مـن روائـع الاعجـاز
في التصويـر القـرآني

د٠ حامد صادق قنيبي
جامعة البترول والمعادن ـ الظهران
المملكة العربية السعودية

لما في السماء من نجوم وكواكب لا تعد ولا تحصى ، ولما أودعه اياها من نظام محكم وتدبير متقن ، ولما لهذه النجوم من (مواقع) استحقت أن تكون محلا للقسم يقسمه الخلاق العظيم ٠

وأكثر أقسام القرآن الكريم استدلالية، فقد استدل سبحانه بالسماء والشمس والقمر والليل والفجر والضحى وغيرها ٠ وجعل القسم بيانا لمن يعقلون ويفكرون في قوله تعالى : « **والفجر ، وليال عشر ٠ والشفع والوتر ، والليل اذا يسرى ، هل في ذلك قسم لذى حجر** » (1) ٠

فنبه بعد القسم على أن الاشياء المقسم بها دلائل لمن يعقل ، وانها قسم عظيم في تقدير من يفكر ٠

وكذلك قوله تعالى : « **فلا أقسم بمواقع النجوم ، وانه لقسم لو تعلمون عظيم ، انه لقرآن كريم في كتاب مكنون** » (2) ٠

(1) الفجر : 1 ـ 5 الحجر : العقل ٠
(2) الواقعة : 75 ـ 78 ٠

فصرح بعظمة القسم لا بعظمة المقسم به ، لان للمقسم به دلالات عظيمة ٠ قال ابن قيم الجوزية : « واقسامه ببعض المخلوقات دليل على أنه من عظيم آياتـه » (3) ٠

وقد سادت فكرة تعظيم المقسم به وسط آراء العلماء والباحثين ، وكلهم يجمع على أن الاقسام ببعض المخلوقات تعظيم لها ، ولفت الانظار اليها ، حتى نستدل بها على الخالق البارىء المصور، كما ذهب الى ذلك القدماء من المفكرين (4) والمحدثون منهم الاستاذ الامام محمد عبده وغيره (5) ٠

واذا رجعنا الى الاقسام القرآنية وأجوبتها وجدنا ملاءمة بينها ، وأدركنا أن المناسبة قوية بين المقسم والمقسم به والمقسم عليه ، وهذا يعزز أنها أقسام استدلالية ٠

قال تعالى : « **والسماء والطارق ، وما أدراك ما الطارق ؟ النجم الثاقب ، ان كل نفس لما عليها حافظ** » (6) ٠

فاقسم سبحانه بالسماء ، وبالنجوم المضيئة للاستدلال بخلقها العظيم العجيب على قدرته ، وجاء جواب القسم ملائما لهذه القدرة ، وهو أن الله مهيمن رقيب على كل نفس ٠

ونؤكد مرة أخرى أن القسم فى مشاهد السماء هو نوع من الدليل الواقعى المرئى المحسوس الذى يستميل المشاعر والوجدان ، ويثير الانتباه والتفكير ، هذا الى ما به من ألوان البلاغة وضروبها ، والتى لنا وقفة معها فى الاعداد القادمة ان شاء الله ٠

ولعل ما دفعنا للوقوف هذه الوقفة مع اقسام القرآن ملاحظتنا أن معظم الآيات التى عرضت مشاهد السماء قد وردت فى سياق القسم ، لذا آثرنا اتباع نهج القرآن الكريم فى عرضها ، وسنرعى ترتيب النزول فى ذكرها لاتحاد مضمونها :

قال تعالى : « **كلا والقمر ، والليل اذ أدبر ، والصبح اذا أسفر ، انها لاحدى الكبر ، نذيرا للبشر** » (7) ٠

---

(3) التبيان فى أقسام القرآن ــ ابن قيم الجوزية ــ تصحيح طه يوسف شاهين ص 3 ــ دار الطباعة المحمدية بالازهر ، 1388 هـ ــ 1968 م ٠

(4) انظر تفسير الزمخشرى 4 ــ 249 ، والاتفاق فى علوم القرآن للسيوطى ــ مطبعة المشهد الحسينى ــ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم 4 ــ 48 ٠

(5) انظر تفسير جزء عم للاستاذ الامام محمد عبده ص 9 ، ص 44 وص 48 ، القاهرة عن طبعة 1903 م ٠

(6) الطارق : 1 ــ 4 ٠

(7) المدثر : 32 ــ 36 ٠

ـ « فلا أقسم بالخنس ، الجـوارى الكنس ، والليل اذا عسعس ، والصبح اذا تنفس · انه لقول رسول كريم » (8)

ـ « والنجم اذا هوى ، ما ضـل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عـن الهوى ، ان هو الا وحي يوحى » (9) ·

ـ « والشمس وضحاها ، والقمـر اذا تلاها ، والنهار اذا جلاها ، والليل اذا يغشاها ، والسماء وما بناهـا ، والارض وما طحاها ، ونفس وما سواها، فالهمها فجورها وتقواها ، قد افلـح من زكاها ، وقد خاب من دساها » (10)

ـ « والسماء ذات البروج ، واليوم الموعود ، وشاهد ومشهود ، قتـل أصحاب الاخدود » (11) ·

ـ « فلا اقسم بمواقع النجـوم وانـه لقسم لو تعلمون عظيم » (12) ·

هذا بعض آيات القسم ببعض المظاهر الكونية من سماء ونجوم وأفلاك وشمس وقمر وكان المقصود ـ والله أعلـم ـ هو لفت أنظار النـاس الى الكـون وما يحتويه من أسرار عجيبة ، وما فيـه من نظام بديع محكم اذ كل يجرى الى أجل مسمى عنده وكل فى فلك يسبحون، لا يصطدم هذا بذاك ، ولا يتخلف هذا عن ذاك ، ولا يبطىء فى سيره ، ولا يختل عن موعده · وصدق الله **وكـل شىء عنده بمقدار** · وفى كل قسم من شىء خلقه . وفى كل قسم من هـذه هذه الاقسام حكم خاصة وأسرار عجيبة، ومناسبات دقيقة قد يظهر لنا فيها بعض الاسرار والله أعلم بأسرار كتابـه المحكم ، وكونه المتقن ، فتبارك اللـه أحسن الخالقين ·

ففى سورة المدثر نقرأ قوله « **كـلا والقمر ، والليل اذ ادبر ، والصبـح اذا أسفر · انها لاحدى الكبر ، نذيرا للبشـر**) ·

اقسم الله سبحانه هنا بالقمر والليل والصبح وهي مخلوقاته وآياته الدالة، وفى القسم بها تنبيه الانام الى ما فى خلقها من جميل الصنع ، وبديع الاحكام، فمشاهد القمر ، والليل حين يدبـر ، والصبح حين يسفر · وهي مشاهـد كونية تلفت الانظار الى هذه الافـلاك التى تظهر ثم تغيب ، وما ينشأ عـن ذلك من ليل ونهار ، وكل ذلك بحكمـة ونظام ودقة واحكام بحيث صار طلوع

---

(8) سورة التكوير : 15 ـ 19 ·

(9) النجـم : 1 ـ 4 ·

(10) الشمس : 1 ـ 10 ·

(11) البـروج : 1 ـ 4 ·

(12) الواقعـة : 75 ـ 76 ·

القمر ومغيبه ، ومجيء النهار وذهابه، ضوابط ضبط بها الايام والشهور والسنون والدهور « **يسالونك عن الاهلة ، قل هي مواقيت للناس والحج** » (13) ·

وهذه المشاهد للقمر ، والليل فى ادباره ، والصبح فى اسفاره ، مشاهد موحية بذاتها تثير مشاعر عميقة فى القلب البشرى :

فالقمر ينشأ صغيرا ثم يكبر ثم يعود صغيرا حتى المحاق ، وهذا الليل بجحافله وسكونه وهداته التى تسبق الشروق ، ثم اسفار الصبح وظهوره ، وما يتبعه من حياة حافلة · كلها مشاهد موحية تنقل القلب الانسانى المتامل لما وراءها من دلائل القدرة المبدعة والحكمة المدبرة والتنسيق المحكم لهذا الكون · ففى الآيات ايماء الى أن الشمس والقمر مخلوقان لله ، وانهما فى حركاتهما وادبارهما واسفارهما ونشوء الليل والنهار عنهما مسخران لامره ، ساجدان بين يدى قدرته وقهره (14) ·

وفى سورة التكوير يقسم الله بمشاهد كونية جميلة ، يختار لها تعبيرات أنيقة : « **فلا أقسم بالخنس الجوارى الكنس ، والليل اذا عسعس · والصبح اذا تنفس · انه لقول رسول كريم** » (15) ·

يقسم الله تبارك وتعالى بعد أن تكلم عن يوم القيامة ومقدماته بالخنس الجوار الكنس ، والليل اذا عسعس ، وبالصبح اذا تنفس ، ان هذا القرآن لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين ، وما هو الا تبليغ من رب العالمين ، وما صاحبكم محمد صلى الله عليه وسلم بمجنون كما يدعى المشركون ·

والخنس جمع خانس وخانسة من الخنوس وهو التأخر ، « وخنس الرجل بين القوم خنوسا اذا تأخر واختفى ، ومنه الخناس · وفى الحديث : (الشيطان يوسوس الى العبد فاذا ذكر الله خنس) وفى أنفه خنس وهو انخفاض فى القصبة وعرض الارنبة · والبقر خنس » (16) ·

---

(13) البقرة : 189 ·

(14) انظر تفسير جزء تبارك للمغربى ص 221 ·

(15) التكوير : 15 ـ 19 ·

(16) أساس البلاغة للزمخشرى ، أبو القاسم جار الله بن عمر ـ (مادة خنس) دار ومطابع الشعب بالقاهرة ·

والخنس فى الآية الكواكب الدرارى، وهي زحل والمشترى وعطارد والمريخ والزهرة ، ويمكن أن يضم اليها القمر لخنوسه نهارا والشمس لخنوسها ليلا ، وبذلك تشمل الخنس جميع الكواكب السيارة ، أو بعبارة أخرى كواكب المجموعة الشمسية ، ولكل منها فلكها الخاص الذى تجرى فيه وتشرق وتغرب أو تظهر وتختفى (17) · « وقيل هي الكواكب جميعها · فانها لا تزال جارية راجعة علينا بعد مغيبها ، غائبة عنا بعد طلوعها » (18) · (والجوارى) جمع جارية لجريانها الدائب فى السماء أو الكون · و (الكنس) جمع كانس اذا دخل كناسه واستتر فيه · » ولما كان للنجوم حال ظهور ، وحال اختفاء، وحال جريان ، وحال غروب ـ اقسم سبحانه بها فى أحوالها كلها · ونبه بخنوسها على ظهورها لان الخنوس هو الاختفاء بعد الظهور ، ولا يقال لما لا يزال مختفيا : انه قد خنس فذكر سبحانه جريانها وغروبها صريحا ، وخنوسها وظهورها ، واكتفى من ذكر طلوعها بجريانها الذى مبدؤه الطلوع ، فالطلوع أول جريانها ·

فتضمن القسم طلوعها ، وغروبها ، وجريانها ، واختفاءها ، وذلك من آياته ودلائل ربوبيته (19) ·

وقيل : الخنس فى الآية بقر الوحش، والكنس الظباء التى تستتر فى كنسهما وبيوتها الشجرية · والاصح حمل الآيتين على الكواكب لذكر الليل والصبح بعدها ، وأضاف ابن قيم الجوزية الى ذلك وجوها أخرى منها أن البقر والظباء لا تختفى عن العيان اختفاء مطلقا ، بل لا تزال ظاهرة فى الفلوات ، ومنها أن كلمة (الخنس) لو كانت جمعا للاخناس من البقر لقيل الخنس بضم الخاء وسكون النون مثل أحمر وحمر ولو كانت جمعا للخنساء من البقر لقيل الخنساوات مثل حسناء وحسناوات ، انما هي جمع خانس مثل صائم وصوم : وبذلك يتعين أن الآية فى الكواكب لا فى بقر الوحش ولا الظباء وبخاصة أن القرآن لم يأت فيه قسم بحيوان · وأيضا فانه اذا جعل القسم بحيوان لم تتضح الصلة بين القسم والمقسم عليه وهو القرآن ، أما الصلة بينه وبين الكواكب فواضحة ، اذ هي تهدى الناس بأضوائها ليلا ونهارا كما يهدى القرآن بأضوائه الربانية العظيمة (20) ·

والتعبير بالخنس الجوارى الكنس يخلع على هذه النجوم الرواجع حياة رشيقة وهي تجرى وتختبىء فى كناسها وترجع من ناحية أخرى · فهناك حياة

---

(17) انظر تفسير ابن كثير 4 ـ 478 ، طبعة الحلبى ، القاهرة ·
(18) تفسير جزء عم لمحمد عبده ص 25 ·
(19) التبيان فى أقسام القرآن ص 72 ·
(20) انظر التبيان فى أقسام القرآن ص 73 وما بعدها ·

تنبض من خلال التعبير الرشيق الانيق عن هذه الكواكب ،وهناك ايحاء شعورى بالجمال فى حركتها : فى اختفائها وفى ظهورها • فى تواريها وفى سفورها • وفى جريها وفى عودتها – يوازيه ايحاء بالجمال فى شكل اللفظ وجرسه •

(والليل اذا عسعس) ••• أى اذا أقبل ظلامه (21) • ولفظ عسعس يوحى بالمعنى وحيا فتشعر به شعورا عميقا ، وتحس بحياة هذا الليل ، وهو يحس الظلام بيده أو برجله لا يرى ! وهو ايحاء عجيب واختيار رائع •

ومثله (والصبح اذا تنفس) •• يصور هذه اليقظة الشاملة للكون بعد هدأة الليل ، والصبح حي يتنفس • أنفاسه النور والحياة والحركة التى تدب فى كل حي وتشمل الكون وأرجاءه •

وكل متذوق لجمال التعبير والتصوير يدرك أن قوله تعالى : (**فلا أقسم بالخنس • الجوارى الكنس • والليل اذا عسعس والصبح اذا تنفس**) •• ثروة شعورية تعبيرية • فوق ما يشير اليه من حقائق كونية جميلة بديعة رشيقة ، تضاف الى رصيد البشرية من المشاعر، وهي تستقبل هذه الظواهر الكونية بالحس الشاعر •

وفى مطلع سورة النجم أقسم سبحانه بالنجم عند هويه على تنزيه رسوله وبراءته مما نسبه اليه أعداؤه من الضلال والغي :

« **والنجم اذا هوى • ما ضل صاحبكم وما غوى • وما ينطق عن الهوى** » (22)

واختلف المفسرون فى المراد بالنجم فى هذا القسم • ولعل أقربها رواية ابن عباس : يعنى الثريا اذا سقطت وغابت • والعرب اذا اطلقت النجم تعنى به الثريا • قال : فباتت تعد النجم • وفى رواية أخرى لابن عباس أيضا : يعنى النجوم التى ترمى بها الشياطين اذا سقطت فى آثارها عند استراق السمع •• ويكون سبحانه قد أقسم بهذه الآية الظاهرة المشاهدة التى نصبها الله سبحانه آية وحفظا للوحى من استراق الشياطين له على أن ما أتى به رسوله حق وصدق ، لا سبيل لشيطان اليه ، بل قد أحرس بالنجم اذا هوى رصد بين يدى (الوحى) وحرسا له على هذا فالارتباط بين

---

(21) تفسير الزمخشرى 4 – 224 •

(22) النجم : 1 – 3 •

القسم به والمقسم عليه فى غاية الظهور . وفى المقسم به دليل على المقسم عليه (23) .

ولعل هناك ارتباطا بين النجم اذا هوى وقوله فى نفش السورة : (**وأنه هو رب الشعرى**) والشعرى نجم أثقل من الشمس بعشرين مرة . ونوره خمسون ضعف نور الشمس وهو أبعد من الشمس بمليون بعد الشمس عنا .

وقد كان هناك من يعبد هذا النجم . وقد هناك من يرصده كنجم ذى شأن ، فتقرير أن الله هو رب الشعرى له مكانه فى السورة التى تبدأ بالقسم بالنجم اذا هوى ، وتتحدث عن الملأ الاعلى ، كما تستهدف تقرير العبودية لله وحده ، ونفى عقيدة الشرك الواهية المتهافتة (24) .

ومهما أحس الناس من منافع لهذه النجوم فانه ينبغى أن يردوها الى من وهبها لهم ، والا يعبدوها من دونه ، فهو الجدير بالعبادة لما أودعها من المنافع والاسرار . يقول سبحانه فى سورة فصلت : « **ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن** » ، فهو الذى خلق الكونين ووهبهما نورهما ولو شاء لطمس هذا النور ، انه واهبه وصانعه ، وهو لذلك الخليق بالعبادة . ويقول انهما من آياته هما وما يتبعهما من اختلاف الليل والنهار ، آيات تدل على قدرته ووحدانيته . ولقوتهما وقوة الاجرام والنجوم فى التعبير عن هذه الدلالة كرر الحديث عنها جميعا فى القرآن وأقسم بها ، ليعبدوا الرب دون المربوب والصانع دون المصنوع .

☆ ☆ ☆

وفى القسم ببعض مخلوقات الله تنبيه الى ما فيها من روعة وجمال تدفع الى التفكير فى خالقها قال تعالى :

« **والشمس وضحاها . والقمر اذا تلاها . والنهار اذا جلاها . والليل اذا يغشاها . والسماء وما بناها . والارض وما طحاها . ونفس وما سواها . فالهمها فجورها وتقواها . قد افلح من زكاها . وقد خاب من دساها** » (25) .

يقسم الله سبحانه بهذه الخلائق والمشاهد الكونية ، كما يقسم بالنفس وتسويتها والهامها . ومن شأن هذا القسم أن يخلع على هذه الخلائق قيمة كبرى ، وأن يوجه اليها القلوب تتملاها وتتدبر ماذا لها من قدر ، وماذا بها من دلالة ، حتى استحقت أن يقسم بها الجليل العظيم .

---

(23) انظر التبيان فى أقسام القرآن ص 153 .

(24) انظر فى ظلال القرآن ـ سيد قطب 7 ـ 632 ـ دار احياء التراث العربى ـ الطبعة الخامسة ـ بيروت 1386 هـ ـ 1967 م .

(25) الشمس : 1 ـ 10 .

فهذا القسم يثير فى النفس الاعجاب القوي بهذا الكون والتقديس لمنظم شؤونه هذا التنظيم الدقيق ، ولذا نجد حرص القرآن على توجيه القلب الانسانى دائما الى مشاهد الكون بشتى الاساليب :

(والشمس وضحاها) فهذه الشمس تبدد ظلمة الليل البهيم بما أودعها الله من قوة ضوئية ، وهي على بعد هائل وبحجم ضخم ولولا هذا لفنى العالم وما كانت هناك حياة ، ولعل كوكب الشمس كان أكثر ما لفت الانسان ويلفته على توالى العصور وهي تبدو من وراء الافق فى مطلع النهار ، وتمضى فى الصعود الى وسط السماء ، وكلما تعالت ازدادت حرارتها ·

والضحى هو أروق أوقات الشمس وأصفاها ، ففى الشتاء هو وقت الدفء المستحب المنعش ، وفى الصيف هو وقت الاشراق الرائق قبل وقدة الظهيرة وقيظها · وقد ورد أن المقصود بالضحى هو النهار كله ، ولكننا نميل الى الاخذ بالمعنى القريب (26) ·

وقد الهم الاولون ما للشمس من تأثير فى حياتهم ، مع أنهم لم يكونوا يعرفون عنها ما نعرفه الآن من أنها مصدر الحياة فى الارض بفضل طاقاتها الحرارية التى تبعث الحياة فى كل الكائنات الارضية ، ومع ذلك أحسوا احساسا دقيقا بخطرها وراعهم موكبها اليومى وأنه لولا بزوغها كل صباح لاظلمت الدنيا فى كسوف مستمر، وكأنما شعروا أنها صاحبة السلطان الاول فى الوجود ، اذ توقد الكون بمصابيح أشعتها ، ، وكل شيء يسبح من الشروق الى الغروب فى أضوائها التى تتوالد كل يوم وتتلألأ ترسل الحياة فى كل كائن من كائنات الوجود · لذلك كله قدسوها وعبدوها ، فى مصر القديمة ، وبلاد الرافدين ، وفى جزيرة العرب وغيرها على أنها آيات الكون هي وضياؤها الذى يبلغ الاوج منذ الضحى (27) ·

والله جل ثناؤه يقسم بها وبضحاها أو ضوئها حين يسطع نوره ويلهب كل ما يمر به ، ليلفت الى بهائها وروعة صنعها وصنع ما ترسله من حرارة وأشعة تبثان الحياة فى الوجود · انه صنع يشهد بقدرته الخارقة بحيث لا يبدو فى صنعه لتلك الآية الكبرى أي خلل ، فهي تبزغ وتغرب بميقات ، وهي ترسل أشعتها وحرارتها بمقدار ، وفى ذلك ما يدل أكبر الدلالة على أنه واحد

---

(26) انظر تفسير ابن كثير 4 ـ 515 ·

(27) انظر سورة الرحمن وسور قصار ـ شوقى ضيف ص 322 وما بعدها ـ دار المعارف بمصر ، 1971 م ·

لا شريك له ، يفعل ما يشاء كما يشاء على مقتضى حكمة باهرة ، دون أن يمسه نصب أو تعب أو يدركه قصور أو عجز وهو القوى القادر الذى لا نهاية لقدرته له ملك السموات والارض ، فكل ما فيهما يصرفه ، حسب حكمته فى خلقه ، وحسب ما يريده من مصلحة ومنفعة .

ويكرر الله فى القرآن مرارا أنه سخر للانسان الشمس كي ينتفع بها أكبر نفع ، ينتفع بميقاتها اليومى وضوئها وحرارتها وينتفع بمنازلها وما ينشأ عنها من فصول لها أبعد الاثر فى حياته وكل ما يتصل بها من زروعه وغير زروعه . وهو يقسم بها ليجذبه من حضيض الكفر والعصيان الى ساحة الايمان والعرفان بأنه مدبر الكون المتفضل بكل ما فيه من نعم وآلاء ينعم بها الانسان صباح مساء ، وجدير به أن يعبده . انه الاله الحق رب العالمين العزيز بسلطانه لا ينازله أحد ولا يمانعه الحكيم بتدبيره لا يشوبه أي نقص ولا يداخله أي خلل ، له التصرف الكلى فى الوجود جميعه شمسا وغير شمس وضحى وغير ضحى ، وله نفوذ الامر فى جميع كائناته من الكواكب وغير الكواكب مما نعلم ومما لا نعلم ، تنزهت ذاته وتقدست أفعاله وصفاته .

☆ ☆ ☆

(والقمر اذا تلاها) .

وهذا القمر يتلو الشمس ويستمد نوره منها ، فاذا غلبت قام مقامها فى البدو للكون وابهاجه بنوره العميق .

ولقد كان القمر هو الكوكب الباهر بعد الشمس الذى لفت الانسان منذ القدم ، اذا رآه حين يرخى الظلام سدوله على التلال والوديان والجبال والاشجار والينابيع والآبار والمسالك والدروب يرسل نوره على جميع البقاع ، فاذا الحياة التى انطفأت فى كل مكان بانطفاء الشمس قد استيقظت من سباتها ولم يعد يرين عليها الصمت والسكون والركود ، فقد دبت الحركة فى الوجود، ولم يعد الانسان أسير الظلام ولا عاد يلابسه ويلابس كل ما حوله فقد طرده نور القمر ، وهو نور لطيف لا تمازجه حرارة كحرارة ضوء الشمس ، وكأنه رحمة كبرى تبزغ فى السماء لانقاذ الانسان من جنود الظلام ووحشته ومخاوفه ، ولذلك طالما ناغاه الانسان على نحو ما يناغى الطفل المصباح ، لما له من أثر فى تحريك نفسه وابتعاث خواطره ولما يجد له من أنس ومسرة . وكان طبيعيا للاولين فى بدء الحياة الانسانية أن يعبدوه ويقدسوه كما قدسوا الشمس وعبدوها . انه وحده الذى يعتلى عرش الليل كما تعتلى الشمس عرش النهار ، يستقل بسلطنة الليل كما استقلت الشمس بسلطنة النهار ، وكأن الكون يرى وجهه فى مرآته ، وكل شىء فيه يكتسى بهاء وجمالا : التلال والكثبان والجبال والوديان والكلأ والاشجار والمياه ، والنجوم تلمع ، وهو يبرز فى جلاله ، وقد بدد الظلام وبدد الوحشة ، والانسان ينظر اليه فى خشوع متأملا فى أشعته الفضية . والله جل ثناؤه

يقسم به ليلفت الى تلك الآية الرائعة من آيات خلقه المحكم ، وكأنه سفير له عندهم ، سفير يحمل اليهم رحمته بهم ورعايته لهم آناء الليل ، رعاية تحتضنهم فيها أشعة القمر ، تغسل من عيونهم غبار الوحشة والظلمة ، وتنير لهم المسالك والطرق ، والارض تستقبلها هانئة بها فاتحة لها صدرها ، تريد أن تنبث فى كل ذراتها، حتى تتجلى فى نورها وتتحلى بلونها · وهو الله مفيض النعم على الانسان ، خلقه من التراب المظلم، وأنار له الوجود وجعله كله نورا، أما فى النهار فأضواء الشمس تغمر كل مكان نورا وحرارة تكتن فيها الحياة، وأما الليل فيبدو القمر بأنواره التى نفحتها فيه الشمس بما تمسكه عليه من أشعتها، وهو معني قوله تعالى : (اذا تلاها) أي تلا الشمس وتبعها ، فهو تابع لها يقتبس من ضوئها والى ذلك أشارت آية سورة يونس : « **هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب** » (28) ·

والضياء أعلى مرتبة من النور ، وكأن نور القمر يتجلى فيه ضياء الشمس ، فهو مظهر لتجليه ، ولذلك كان دونه فى الاسم وفى الحقيقة · ويذكر الله أنه قدر مسيرة القمر فى ليالى الشهر وبعبارة أخرى منازله الثمانى والعشرين ، لتعرف بذلك الشهور والسنون ، وليعرف الحساب بالاوقات من الشهور والاسابيع والايام حتى تنتظم مصالح الناس وشؤونهم الدينية والمعاشية · ويذكر الله مرارا أنه سخر القمر كما سخر الشمس للانسان لينتفع بهما فى حياته ما استطاع الى الانتفاع سبيلا ، انه لم يخلقهما لكي يعبدهما من دونه ، بل ليعبد صانعهما العظيم وليستقر فى نفسه شكره على ما أنعم به عليه من ضياء الشمس ونور القمر ، فتلك آيتان من آيات خلقه البديع دالتان اكبر الدلالة على كمال قدرته وعظيم تدبيره وأنه اذا خلق شيئا أقامه فى أدق تقدير له ، ثم أجراه الى غايته · وقد أجرى القمر والشمس ليضيء بهما الكون ليلا ونهارا ، لا لكي يعبدهما الانسان أو يعبد غيرهما من الكواكب السماوية التى تخضع لاله أعظم منها شأنا ، وفى ذلك يقول : « **ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم اياه تعبدون** » (29) · فهو الذى وهب لهما الضياء والنور ، ولو شاء لطمس النور ومحا الضياء فأظلم الوجود ظلاما لا نهاية له · انه وحده

---

(28) يونس : 5 ·
(29) فصلت : 37 ·

الخليق بالسجود والعبادة وان تعنو له كل الوجوه ٠

☆ ☆ ☆

(والنهار اذا جلاها ٠ والليل اذا يغشاها) ٠

ويقسم بالنهار اذا جلاها ، فالنهار يبرز هذا الكوكب الوهاج (وقيل الضمير فى جلاها للظلمة أو للدنيا او للارض وان لم يجر لها ذكر كقولهم : أصبحت باردة يريدون الغداة ، وأرسلت يريدون السماء) (30) فالنهار يجلى البسيطة ويكشفها (31) ٠

وللنهار فى حياة الانسان آثاره التى يعلمها ٠ وقد ينسى الانسان بطول التكرار جمال النهار وأثره ٠ فهذه اللمسة السريعة فى مثل هذا السياق توقظه وتبعثه للتأمل فى هذه الظاهرة الكبرى ٠

ومثله الليل الذى لا يلبث أن يمحو سنا هذا الكوكب (والليل اذا يغشاها) ٠٠ والتغشية هي مقابل التجلية ٠ أي « فتغيب وتظلم الآفاق » (32) ٠٠ والليل غشاء يضم كل شىء ويخفيه ٠ وهو مشهد له فى النفس وقع وله فى حياة الانسان أثر كالنهار سواء ٠

(والسماء وما بناها ٠ والارض وما طحاها) ٠

وهذه السماء : أحكم الله خلقها ، واتسقت فى عين رائيها بالبناء المحكم الدقيق (والسماء وما بناها) « وما » هنا مصدرية بمعنى والسماء وبنائها (33) ٠ ولفظ السماء حين يذكر يسبق الى الذهن هذا الذى نراه فوقنا كالقبة أنى اتجهنا ، تتناثر فيه النجوم والكواكب السابحة فى أفلاكها ومداراتها ٠

فأما حقيقة السماء فلا ندركها ٠ وهذا الذى نراه فوقنا متماسكا لا يختل ولا يضطرب تتحقق فيه صفة البناء بثباته وتماسكه ٠ أما كيف هو مبنى ، وما الذى يمسك أجزاءه فلا تتناثر وهو سابح فى الفضاء فذلك ما لا ندريه ٠ وكل ما قيل عنه نظريات قابلة للنقص والتعديل ٠ ولا قرار لها ولا ثبات ٠٠ انما نوقن أن يد الله هي التى تمسك هذا البناء : « **ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا ٠ ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده** » (34) ٠

---

(30) تفسير الزمخشرى 4 ـ 258 ، طبعة الحلبى ، 1966 م ، القاهرة ٠

(31) انظر تفسير ابن كثير 4 ـ 515 ٠

(32) تفسير الزمخشرى 4 ـ 258 ٠

(33) انظر تفسير ابن كثير 4 ـ 515 ٠

(34) فاطر : 41 ٠

فالسماء بكل ما فيها من قريب وبعيد ومن كواكب ونجوم بناء عجيب ، ويكفى أن نتدبر مجموعتنا الشمسية وما بها من شمس وقمر وكواكب لنحس عجائب خلق الله فى الكون وأنه لابد لهذا الكون من بان يبنيه وصانع يقيمه · واذا نحن عبرنا مجموعتنا الى مجموعات الكواكب الاخرى ونجومها ملأنا العجب العجاب، ويكفى أن نعرف أن عدد النجوم يجاوز البلايين لا الملايين وأن منها ما تبلغ سرعة ضوئه نحو مائتى ألف ميل وا.. لا يصل الينا الا بعد عدد من السنين يتفاوت قلة وكثرة · وكل هذه النجوم والكواكب تسير بحركات منتظمة دقيقة محسوبة فى الفضاء الكونى الشامل لا يمسكها سوى الله ، فلا عمد ولا عائق ، وانما قدرة الله وحدها ، وهي قدرة تسخر كل ما فى السماء لنا ·

فالانسان مركز الكون وكل ما فيه مخلوق من أجله ، ويقرر القرآن ذلك مرارا وتكرارا كما فى آية الجاثية : **«وسخر لكم ما فى السموات وما فى الارض جميعا منه »** فكل ما فى السموات مسخر للانسان كي يفيد منه أكبر فائدة (35) ·

وهذه الارض وقد انبسطت فى سعة وهيئت للسكنى والعمارة ، وهذه النفس العجيبة بفجورها وتقواها يتسرب اليها الهدى والضلال فى دقة وخفاء ، فهي أبدا بين فجورها بغرائزها وميولها ، وبين تقواها بعقلها وروحها ·

هذا هو القسم ، وهو يدل على الابداع والجمال والقدرة والعلم ، وأما المقسم عليه فقوله تعالى : (**قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها**) ، وهذا يلفت النفس الى التفكير العميق فى خالق هذه المشاهد والخلائق ، وهذا الخالق يذكر دائما هو وما خلق محوطا بهذا الاجلال فى مقام الحق والصدق ·

☆ ☆ ☆

ويقسم تبارك وتعالى بالسماء وما جعل فيها من الكواكب النيرة (**والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق · النجم الثاقب · ان كل نفس لما عليها حافظ**) (35) ·

يتضمن هذا القسم مشهدا كونيا وحقيقة ايمانية · وهو يبدأ بذكر السماء والطارق ويثنى بالاستفهام التفخيمى المعهود فى التعبير القرآنى : « (وما أراك ما الطارق ؟) ·· » وهو استفهام ويقصد به ــ فى عرف خطابهم ــ تعظيم لمستفهم عنه ، كأنه ــ فى فخامة شانه ــ مما لا تمكن احاطة الادراك به · فيقال وما الذى يدريك ما هو كذا ؟ » (36) ثم يحدده ويبينه بشكله وصورته ·

---

(35) انظر تفسير فى ظلال القرآن ﻫ ــ 589 ·

(36) الطارق : 1 ــ 4 ·

(النجم الثاقب) الذى يثقب غلاف الظلام بشعاعه · وهذا الوصف ينطبق على جنس النجم (37) · ولا سبيل الى تعيين نجم بذاته من هذا النص ، ولا ضرورة لهذا التعيين · بل ان الاطلاق أولى ليكون المعنى : والسماء ونجومها الثواقب للظلام ، النوافذ من هذا الحجاب الذى يستر الاشياء · ويكون لهذه الاشارة ايحاؤها ، كما يوحى جرس التعبير ذاته بالشدة والنفاذ والجزم ·

يقسم بالسماء ونجمها الثاقب : على أن كل نفس من الانفس عليها رقيب ، وليس فى النفوس نفس أهملت من رعاية ذلك الرقيب المدبر لشؤونها (38) : (**ان كل نفس لما عليها حافظ**) ·· وفى التعبير بصيغته هذه معنى التوكيد الشديد ·· ما من نفس الا عليها حافظ يراقبها ويحصى عليها، ويحفظ عنها ، وهو موكل بها بأمر الله · وتعيين النفس لانها مستودع الاسرار والافكار · وهي التى يناط بها العمل والجزاء ·

ولا يعقل أن من خلق السماء وبناها ورفع سمكها فسواها ، وأنزل فيها نجمها الثاقب ليرشد السارى فى ظلام الطريق حتى يصل الى غايته المنشودة ـ لا يعقل أنه تارك الانسان حائرا بين الدنيا والآخرة بلا هداية وارشاد ، كما أن النجم الثاقب يطرق حجاب الليل الساتر ، فهناك الرقيب الحافظ ، وصنعة الله واحدة متناسقة فى الانفس وفى الآفاق ·

أقسم سبحانه بالمشاهد فى عوالم هذا الكون من سماء وأرض وشمس وقمر وليل ونهار وظلام ونور ، ويقسم أيضا بعوالم الغيب ليربط بينها وبين المقسم عليه فيقول :

« **والسماء ذات البروج · واليوم الموعود · وشاهد ومشهود · قتل أصحاب الاخدود** » (39) ·

و « هي البروج الاثنا عشر وهي قصور السماء على التشبيه ، وقيل البروج : النجوم التى هي منازل القمر، وقيل عظام الكواكب سميت بروجا لظهورها ، وقيل أبواب السماء » (40) ·

وأقسم سبحانه باليوم الموعود ، وهو يوم القيامة لان الله وعد به ولما نصل اليه (41) ، وفيه فصل وتصفية

---

(37) تفسير جزء عم لمحمد عبده ص 48 ·
(38) انظر تفسير الزمخشرى 4 ـ 240 ·
(39) انظر تفسير جزء عم لمحمد عبده ص 49 ·
(40) البروج : 1 ـ 4 ·
(41) تفسير الزمخشرى 4 ـ 237 ·

حساب الارض وما كان فيها ، وقد وعد الله بمجيئة يوما للحساب والجـزاء ، وأمهل المتخاصمين والمتقاضين اليـه . وهو اليوم العظيم الذى تتطلع اليـه الخلائق وتترقبه لترى كيف تصيـر الامور .

واقسم بالشاهد والمشهود فى ذلك اليوم ، والشاهد كل ما له حس يشهد به ، والمشهود كل محس يشهد بالحس كما هو حقيقة معنى اللفظ (42) .

« اقسم سبحانه أولا بما هو غيب وشهود ، وهو السماء ذات البـروج : فان كواكبها مشهود نورها ، مـرئى ضوؤها ، معروفة حركاتهـا فى طلوعها ومغيبها بحس البصر . (والسماء) ما علاك مما تسميه بهذا الاسم ، وفيه البروج تشاهدها ، ولكن فيهـا غيب لا تعرفه بالحس ، وهو حقيقة الكواكب، وما أودع اللـه فيهـا من القوى ، وما أسكنها من الملك أو غيره .. كل ذلك غيب لا تدركه حواسنا ، وان وصـل الى الاعتقاد بشىء منه عقلنا . ثـم اقسم – جل شأنه – بما هو غيب صرف، وهو اليوم الموعود . لانه أخبرنا بأنه سيكون ، وعمـا يكـون فيه من حوادث البعث والحساب والعقاب والثواب ، ولكن شيئا من ذلك لا يمكن أن نشهده فى حياتنا هذه . وبعد ذلك أقسم بما هو شهادة صرفة ، وهو الشاهد : أي صاحب الحس ، فانه مرئى ، والمشهـود وهو كل ما وقع عليه الحس . فكأنـه – جل شأنه – أقسم بالعوالم كلهـا – مع هذا التقسيم البديع – ليلفتك الى ما فيها من العظم والفخامة بما حضرك، وتبذل الوسع فى ادراك ما استتر عنك، وتستعد لما استقبلك » (43) .

وجواب القسم محذوف دل عليـه (**قتل أصحاب الاخدود** (*)) « أي أنهم ملعونون يكنى كفار قريش كما لعـن أصحاب الاخدود ، وذلك لان السـورة وردت فى تثبيت المؤمنين وتصبيرهـم على أذى أهل مكة وتذكيرهم بما جـرى على من تقدمهم » (44) .

☆ ☆ ☆

مما سبق يتبين لنا تكرار قسم اللـه سبحانه بالسماء والكواكب والنجوم ، ولعل فيما وقفنا عليه من مشاهد تحكى قصة الصنع البديع ، والتدبير المحكـم ما جعلها محلا للقسم العظيم :

---

(42) انظر المصدر السابق 4 – 237 ، وتفسير جزء عم لمحمد عبده ص 45 .

(43) جزء عم لمحمد عبده ص 45 .

(*) وأصحاب الاخدود : قوم كافرون ، ذوو بأس وقوة ، عذبوا قوما مؤمنين ، وحرقوهم بالاخدود (الشق) .

(44) جزء عم لمحمد عبده ص 45 .

« **فلا أقسم بمواقع النجوم · وانه لقسم لو تعلمون عظيم · انه لقرآن كريم** » (45) ·

والمخاطبون يومذاك لم يكونوا يعرفون عن مواقع النجوم الا القليل الذى يدركونه بعيونهم المجردة · ومن ثم قال لهم : « **وانه لقسم لو تعلمون عظيم** » ·· فأما نحن اليوم فندرك من عظمة هذا القسم نصيبا أكبر بكثير مما كانوا يعلمون · وان كنا نحن أيضا لا نعلم الا القليل عن عظمة مواقع النجوم ··

وهذا القليل الذى وصلنا اليه بمراصدنا الصغيرة ، المحدودة المناظير، يقول لنا أن : « النجوم فى السماء يتقارب بعضها من بعض ، وينشأ عن ذلك مجموعة من النجوم ، فأخرى ، فأخرى ، وهكذا دواليك ·· ولفظ (يتقارب) يكاد يكون نابيا فى لغة النجوم ، ذلك اننا نعلم أن أقرب نجم الينا – الى الشمس (*) – يبعد نحوا من 4،4 (**) سنوات (ضوئية) أو بالاميال : 26،400،000 ،000،000 (أي ان رائد الفضاء الذى وصل الى سرعة 25،000 ميل بالساعة ، اذا ما سار بنفس السرعة نحو أول نجم يلزمه من الوقت 115984 سنة عادية ، واذا ما تمكن من تحقيق سرعة الضوء فانه يصل الى القمر بأقل من ثانيتين ، ويصل الى أقرب نجم بـ 4،4 سنوات ضوئية) · فالتقارب فى حديث النجوم يحمل معنى غير المعنى الذى كسبناه وألفناه فى خبرتنا نحن بنى البشر على سطح هذه الارض من أنه تقارب على البعد ، تقارب ظل بعيدا ، أو هو بعد يتنافس حتى ليدخله شىء من معنى التقارب » (46) ·

هذا يعطى فكرة عن سعة السماء ، أما عددُ النجوم ، فانهم كانوا يعدونها بالالوف ، ثم صاروا يعدونها بالملايين ، ثم وصلوا الى مليارين · أما اليوم فانهم يقدرون عدد النجوم فى المجرة التى نحن فيها من عالمها بثلاثين مليارا · ومجرتنا (درب التبان) والتى يقع نظامنا الشمسى كله فى طرفها ، يوجد وراءها عالم السدم ومن جملته سديم المرأة المسلسلة بل ان عوالم السدم التى رأوا منها حتى اليوم بآلات التصوير (500) ألف سديم ثم قالوا لو تقدمت هذه

---

(45) تفسير الزمخشرى 4 – 237 ·
(46) سورة الواقعة : 75 – 77 ·
(*) أي الى نظامنا الشمسى ·
(**) يبعد نحوا من 4،4 سنوات ضوئية ، أو بالاميال هو يبعد 4،4 × 6 مليون مليون = 26،4 مليون مليون ميل ·

الآلات وازدادت اتقانا لرأينا أكثر من مليون سديم (47) .

« ويقول الفلكيون أن من هذه النجوم التى تزيد على عدة ملايين نجم ، ما يمكن رؤيته بالعين المجردة ، وما لا يرى الا بالمجاهر والاجهزة ، وما يمكن أن تحس به الاجهزة دون أن تراه ، هذه كلها تسبح فى الفلك الغامض ، ولا يوجد اي احتمال أن يقترب مجال مغناطيسى لنجم من مجال نجم آخر ، أو يصطدم كوكب بآخر الا كما يحتمل تصادم مركب فى البحر الابيض المتوسط بآخر فى المحيط الهادى يسيران فى اتجاه واحد وبسرعة واحدة ، وهو احتمال بعيد وبعيد جدا ، ان لم يكن مستحيلا !! » (48) .

وكل نجم فى موقعه المتباعد عن موقع اخوته ، قد وضع بحكمة وتقدير ، وهو منسق فى آثاره وتأثراته مع سائر النجوم والكواكب ، لتتوازن هذه الخلائق كلها فى هذا الفضاء الهائل .

فهذا طرف من عظمة مواقع النجوم، وهو أكبر كثيرا جدا مما كان يعلمه المخاطبون بالقرآن أول مرة . وهو فى الوقت ذاته أصغر بما لا يقاس من الحقيقة الكلية لعظمة مواقع النجوم ! .

وانه لنظام باهر تحدى الله به هذا الكائن البشرى المخلوق ، بأن ينظر الى خلق السموات بأمعان وتدقيق ، ليرى هل يجد فيها من (فطور) ، أي خلل ، ثم تحداه أن يرسل البصر مرة أخرى لاستيعاب ما خلقه الله من أسرارها ، الا أن بصره لا يلبث أن يرتد اليه تعبا من المحاولة ، خاسئا حسيرا من الخذلان فى الوصول الى المعرفة الكلية التى يسعى اليها .

« **الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير** » (49) .

وبعد ، فمهما تعمق الانسان فى الانسان فى دراسة السماء وطوى الاجيال فى الاجتهاد فازداد معرفة بها .. فان ما يعرفه سيظل أقل بكثير مما هو .. ومهما تكشف له سر من أسرارها فان ما خفى أكثر وأبعد وأعمق .. والعقل البشرى لا يستطيع ادراك سعة الكون ومداه ، وسيظل عاجزا عن ادراك أول خلق السماء ، ومسافاتها وأزمانها ، ذلك لانه لم يشهد خلقها ، كما لم يشهد خلق نفسه قال تعالى :

« **ما اشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق انفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا** » (50) .

---

(47) مجلة العربى العدد 141 ـ 1970 ، مقال بقلم أحمد زكى ص 38 وما بعدها .
(48) انظر قصة الايمان ـ الشيخ نديم الجسر ص 305 وما بعدها منشورات المكتب الاسلامى ـ الطبعة الثالثة 1389 هـ ـ 1969 م .
(49) الملك : 3 ـ 4 ـ أنظر : الله والعلم والحديث ص 26 .
(50) الكهف : 51 .

القــرآن معجــزة أبديــة

البسيونى قنعــان

« اقتضت ارادة الله تعالى أن تكون معجزة الاسلام الباقى الخالد ، باقيــة خالدة ، تهدى ، وترشــد ، وتجــدد ، يدرسه كل جيل ، ويفسره العلماء كلما بلغ العقل البشرى حــدا جديــدا مــن النضج ، واذا مرت على البشرية فترة حيرة أو نسيان فى جيل أو أجيــال ، جاء من بعدهم فوجد فى القرآن عاصما وهاديــــا ·

- اتسمت تعاليم الديانة الموسوية فى طابعها العام بالعنف ، والمسيحية بالتسامح ، لماذا ؟
- العقلي والحسي من المعجــزات ، أثر كل منهما ، وصلاحيته ·
- تكررت قصة آدم فى القرآن خمسا وعشرين مرة ، ما دلالة هذا ؟
- هل أضافت الاكتشافات الحديثــة لآثار الفراعنة أدلة جديدة عــلى صدق القرآن ·

مقــارنــة

ان الدارس للدين الاسلامى يرى أن بينه وبين الاديان الاخرى فوارق منها :

أن الدين الاسلامى شريعة عامــة شاملة صالحة لكل زمان ومكان ، اما الديانات الاخرى فكانت قاصرة عــلى زمن معين ، أو لقوم معينين ، وكثيرا ما كانت تاتى لعلاج انحراف تفشى فى المجتمع ، وتحمل من التعاليم ما يكفى لعلاجه ، فاذا تفشى فى المجتمع انحراف آخر جاء دين آخر ، وهكذا ·

فاليهودية جاءت لعــلاج المجتمــع الاسرائيلى من طبيعته المادية والمتمردة ومن الجبن الذى تأصل فى القلوب من جراء هذا ، ومن جراء عسف فرعون ، نتيجة أنهم عاشــوا جاليــة صغيــرة ضعيفة ، مستضعفة ، فسامهم ســوء العذاب ، ومــن هنــا فــان الشريعــة الموسوية جاءت لتعالج فيهم هذا ، ولذا اتسمت فى بعض الاحوال بالعنف « **واذ قال موسى لقومه يا قوم انكم ظلمتــم**

أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا الى بارئكم، فاقتلوا أنفسكم، ذلكم خير لكم عند بارئكم، فتاب عليكم، انه هو التواب الرحيم » (1) « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ،ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومها الا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم، ذلك جزيناهم ببغيهم وانا لصادقون » (2) وكتب الله عليهم التيه أربعين سنة حتى ينتهى الجيل الذى تربى على الذل والجبن ٠

وعملت التعاليم عملها فى بنى اسرائيل ، ومر المجتمع اليهودى بمراحل تجاوز فيها مرحلة القوة اللازمة للدفاع والبناء ، الى مرحلة العنف والقسوة والهدم ، فجعلوا يقتلون الانبياء بغير حق ، وقست قلوبهم فهي كالحجارة أو أشد قسوة ٠

فناسب أن تأتى ديانة أخرى ، لتنقذ المجتمع من هذه الضراوة التى جعلت الحياة نوعا من الجحيم ، فجاءت المسيحية وكل همها أن تنشر التسامح والاخاء « اذا ضربك أحد على خدك الايسر فأدر له خدك الايمن ، ومن نازعك الرداء فاعطه القميص أيضا » ٠

فلما بلغت البشرية من قوة العقل والنضج حدا يجعلها صالحة لديانة تامة كاملة ، صالحة لكل زمان ومكان، جاء الاسلام ٠

واذا كانت معجزة الانبياء السابقين حسية ، فقد اختار الله لخاتم أنبيائه محمد (ص) أن تكون معجزته عقلية وباقية ، وهي القرآن والعلة فى ذلك أن الرسالات السابقة كانت تخاطب فى الناس حواسهم ، كمعجزة اليد والعصا لموسى ، واحياء الموتى لعيسى عليهما السلام ، لان الناس فى ذلك الوقت لم يبلغوا من النضج العقلى حدا يجعلهم يذعنون لمعجزته ، كما ان المعجزة الحسية تكفى لاحداث اثر عاجل ولكنه سريع ، ولان الرسالة لا تدوم الي آخر الزمان ، فالحسية كافية ٠

أما الاسلام الباقى الخالد فلابد أن تكون معجزته باقية خالدة ، تهدى ، وترشد ، وتجدد ، يدرسه كل جيل ، ويفسره العلماء ، كلما بلغ العقل البشرى حدا جديدا من النضج هرع الى القرآن ، يقرأ ويفسر ، واذا مرت على البشرية فترة حيرة أو نسيان وغفلة فى جيل أو أجيال ، جاء من بعدهم فوجد القرآن عاصما وهاديا ٠

ولئن كانت المعجزات الحسية أسرع تاثيرا فالمعجزة العقلية أبقى أثرا ٠

---

(1) سورة البقرة الآية : 54 ٠
(2) سورة الانعام الآية : 146 ٠

ولهذا فقد اختار الله أن تكون معجزة الاسلام الخالدة هي القرآن الكريم ، كتاب الله الخالد الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ٠

ولئن كانت أسرار الاعجاز كثيرة فى القرآن ، بعضها طرقه الباحثون ، وبعضها لا يزال قيد البحث ، فاننى سأكتفى - نظرا لضيق المجال - ببعضها ، معتمدا الايجاز ما أمكن ذلك ٠

السر الاول

لقد جاء القرآن فى قمة البلاغة من حيث المعانى والالفاظ والاساليب ، ولقد أحدث القرآن فى نفوس المؤمنين والكافرين أثرا قويا ، لم يستطع الكفار من العرب ، ومنهم فحول البلاغة والبيان ، أن ينكروه ، أو حتى أن يقللوا من شأنه ، فاذا علمنا أنهم قالوا عنه سحرا ، وشعرا ، وأنهم ما كانوا يتجنبون أثره فى نفوسهم الا بأن يتعمدوا عدم سماعه « **وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون** » (2) وان الحسد والحقد على من أنزله الله عليه أكل قلوبهم ، ودفعهم الى التحسر والالم « **وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم** » (3) ٠

وانهم كانوا حينما يسمعون القرآن يبلغون قمة الانبهار والدهشة ، ولكنهم يغالطون ، شأنهم فى ذلك شأن الخصوم الحاقدين « **وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بابصارهم لما سمعوا الذكر ، ويقولون انه لمجنون** » (4) ٠

وما زال العرب يتفاخرون بايجاز المثل القائل « القتل أنفى للقتل » حتى جاء قوله تعالى « **ولكم فى القصاص حياة** » فكان أوجز ، وأبلغ ، ومحددا للمعنى بدقة ووضوح ٠

ولقد ذكر القرآن - على سبيل المثال - قصة آدم خمسا وعشرين مرة ، بحيث تختلف الالفاظ والاساليب ، ويتحد المعنى مع جودة السبك ، وقوة الصياغة ، وهنا يكمن الاعجاز ، فان أبرع القصاصين من البشر لا يستطيع أن يعيد صياغة قصته مرتين بنفس المعنى دون اخلال بالصياغة ٠

وقد سلك القرآن طريقة التحدى للعرب ، أن يأتوا بعشر سور فعجزوا ، فتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا ٠

والذى لم يكن يعرفه هؤلاء أن الزمان سمير ، وأن القرون ستتتابع ، وعجز الناس عن الاتيان بسورة من القرآن متواصل ، رغم أن الزمان يحمل فى

(2) سورة فصلت الآية : 26
(3) سورة الزخرف الآية : 31 ٠
(4) سورة القلم الآية : 51 ٠

طياته من البلغاء والفصحاء ما يحمل، ورغم أن العداوة للقرآن وأهله تبلغ حدودا لم تعرفها من قبل ، فهذه الحروب الضارية ، وهؤلاء الاعداء على قوتهم وضراوتهم ، وتنوع أساليبهم من الحملات الدعائية ، ومحاولات الهدم باسم التبشير ، وباسم العلم ، ولو نجح أحد من هؤلاء فى هذا الزمن الطويل ، أن يأتى مثل القرآن أو سورة منه ، لضرب الدعوة المحمدية فى صميمها ، ولكن الجميع ـ رغم المحاولات الكثيرة ـ باءوا بالفشل ، فلجأوا الى طرق أخرى ، وما أسهل الافتراءات والمغالطات ٠

السر الثانى

ان القرآن أخبر بكثير من الامور الغيبية كما حدث من تنبؤ بظفر الروم بعد هزيمتهم « **غلبت الروم فى أدنى الارض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون ٠ فى بضع سنين** » (5) وقد جاء الزمان بما يصدق هذا ، وكما حدث فى حق الوليد بن المغيرة ، حين أنزل الله فيه قوله : « **ولا تطع كل حلاف مهين ٠ هماز مشاء بنميم ٠ مناع للخير معتد أثيم ، عتل بعد ذلك زنيم** » (6) فدخل على أمه ، وهددها ! ان هي لم تخبره بحقيقة نسبه ، قائلا : ان محمدا ذكر فى حقى هذه الخصال ، وقد وجدتها جميعها عندى الا الزنيم فانه لا يعرف الا منك ، فقالت له : ان أباك كان لا ينجب فخفت على ماله من الضياع ، فمكنت راعيا من نفسى ، فأنت ابنه ٠

هذا وقد أخبر القرآن بكثير من الاحداث التاريخية التى صدقتها الآثار فيما بعد ، وأخبر عن الانبياء والمرسلين وغيرهم ممن لم يكن يعرفهم أحد « **نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن ، وان كنت من قبله لمن الغافلين** » (7) ٠

وقد حدثنا الدكتور غلاب : ان أستاذه فى « باريس » وهو يتعرض فى درسه لما حدث لفرعون موسى ، قال لهم : وللاسف فان الكتب المنزلة تقول ان فرعون قد غرق مع أن الاكتشافات الاثرية الحديثة قد أثبتت أن فرعون مدفون فى قبره ، وأن مومياءه ما تزال، فوقف الدكتور غلاب وقال : ان القرآن قد ذكر ان فرعون قد انتشلت جثته بعد غرقه ، فقال له : كيف ذلك ؟ ، فقال : قال الله تعالى : « **فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية** » (8) فلم يسع الاستاذ الا أن يبدى اعجابه ورضاه ٠

---

(5) سورة الروم الآيات من 2 الى 4 ٠
(6) سورة القلم الآيات من 10 الى 13 ٠
(7) سورة يوسف الآية : 3 ٠
(8) سورة يونس من الآية 92 ٠

السـر الثالث

على الرغم من أن بعض العلماء يرى : أنه يجب علينا ألا نقحم القرآن فى بحث نظريات علمية ، فانه ليس كتاب بحث علمى ، كما أن النظريات العلمية تتعرض للهدم والبناء بمرور الزمن ، مما يجب علينا الا نعرض القرآن لمثل تلك الامور ، أقول رغم ذلك فاننا نعلم ان القرآن حمل بين دفتيه ما يمكن أن نسميه ـ على أقل تقدير ـ اشارات لنظريات علمية ، يعتبرها الباحثون من أعظم ما وصل اليه العلم فى العصر الحديث ٠

فمثلا يقول الله تعالى : « **أو لم يروا أنا نأتى الارض ننقصها من أطرافها**» (9) وقد أثبت الباحثون فى كروية الارض أنها كما قال القرآن الكريم غير تامة التكوير ٠

وقال تعالى : « **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء** » (10) فان الآية كما نرى تشبه الضال بالذى يصعد فى السماء ، فيضيق صدره ، ويكاد يختنق ، لقلة الاوكسجين كلما ارتفعنا ، حتى ينعدم ، كما أثبت العلماء ٠

السـر الرابـع

وأخيرا فان القرآن حمل الى البشرية تشريعا كاملا متكاملا ، وحمل بين دفتيه تعاليم خالدة ، تكفى لاسعاد المجتمع الانسانى ، فنظم العلاقة بين الانسان وربه ، وبينه وبين مجتمعه ، وأفراد هذا المجتمع ، كما حرم كل ما من شأنه الاضرار بالبشرية أو المساس بها ٠ ولو ذهبنا لنستعرض ما فى القرآن من تعاليم ونظم ، وشرائع وقوانين ، لضاق بنا المجال ، ولكننا نقول :

ان المجتمع الانسانى فى هذا العصر الذى أعمته المادة ، وانخدع بما لديه من علم مادى ، راح يسخره للفناء والهلاك ، مما جعله يعيش على فوهة بركان ، أقول : ان هذا المجتمع لا يشفيه من أمراضه الا اتباع القرآن الكريم ، الذى حمل حضارة ، قوامها التوازن الخلاق بين الروح والمادة « **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا** » (11) ٠

نعم ٠ لا صلاح للبشرية ، ولا سعادة لها ، الا اذا أصبح القلب الانسانى بما يحمل من حب وخير وايمان ، معادلا للعقل الانسانى بما ينتج من علم وتكنولوجيا تجاوزت

---

(9) سورة الرعد من الآية : 41 ٠
(10) سورة الانعام من الآية : 125 ٠
(11) سورة القصص من الآية : 77 ٠

الاحلام ، وأن ترجع البشرية الى رحاب القرآن الكريم ·

« **أو لم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أشد منهم قوة ، وأثاروا الارض وعمروها أكثر مما عمروها ، وجاءتهم رسلهم بالبينات ، فما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** » (12) ·

---

(12) سورة الروم ، الآية : 9 ·

معـنى الـوحى فى القـرآن

د٠ عمار طالبى

بسم الله الرحمن الرحيم ٠

حضرات الســـادة ،

انه ليسعدنى أن أتحدث اليكـم عن موضوع ذى أهمية فى عصرنا هذا وهو مشكلة الوحي ٠ ولقد سبق للمسلميـن أن تحدثوا عن هذا الموضوع كما تحدث عنه النصارى وغيرهم من أهل الديانات السماوية ٠ وأذكر بأن الشيخ رشيـد رضا له كتاب سماه الوحي المحمـدى وكذلك الشيخ عبد الله دراز له كتاب سماه النبأ العظيم ويقصد به الوحي أو القرآن وكذلك مالك بن نبى له كتاب أصدره بالفرنسية وترجم الى العربيـة وهو الظاهرة القرآنية والواقع انـه يتحدث عن الوحي فى هذا الكتاب ، يمكن القول بأنه قد تعددت المناهـج المستعملة فى دراسة الظاهرة الدينيـة كمنهج الانترولوجيا ومنهج التحليـل النفسى ٠ والمنهج التاريخى المقـارن ومنهج التحليل المنطقى للغة هذا مستخدم عنـد الانجليـز بالخصـوص والمنهج الظواهرى والوجودى الذاتى كما أنه قد تعددت الفروض لتفسير الديانات فهو (الدين) ظاهرة فى نظرهم مصدرها اجتمـاعى أو نفسى أو موقـف ازاء الطبيعة ولكن كثيرا ما يقع الخلط بيـن الدين كظاهرة منزلة ٠ مصدرها خـارج الانسان فى صورتيه الفردية والاجتماعية وبين الدين كظاهرة مصدرها مخـاوف الانسان ومواقفه ازاء الطبيعة وغيرها لتسلية نفسه أو تعزيتهـا أو لتبرير أوضاعه مما أدى الى القول بأن الانسان هو الذى صنع الدين والعكس نعم قـد يقال ان الدين المنزل نفسه قد تطرأ عليه تعديلات وتحريفات واضافات وروايات شفوية مختلفة تتسرب من خلالهـا التقاليد الاجتماعية عبـر الـزمن فيـما ذهب اليـه (جون ماكينزى) فى مقاله الطابع الاجتماعى للالهـام وهذا فى الواقع متصل بالديانة المسيحية ولا يمكن أن نطبقه على النص القرآنى ، ولكـن بالنسبة للقرآن فان نصه محفوظ تاريخيا مما يجعله خارج نطاق الحركة النقدية الحديثة للكتـب التى تسمى بالكتـب

(*) محاضرة ألقيت بالمركز الثقافى الاسلامى بالعاصمة يوم 4 ـ 6 ـ 1979 م ٠

المقدسة ، التوراة والانجيل لان المخطوطات فى العالم القديم الذى وجدت فيه هذه الكتب قد يقع نقلها بشىء من الحرية يتصرفون فى النقل فكانت موضوعات للمراجعة وللروايات الشفوية فيما يُذهب اليه ماكينزى نفسه وهذا باحث أنجليزى ، ويمكن للدارس أن يستعمل المنهج الفيلولوجى فى دراسة مسألة الوحي ، المنهج اللغوى،فقه اللغة لانه كما يقال اذا كانت الرياضيات منهجا للعلوم فان الفيلولوجيا بالنسبة لعلوم الروح كالرياضيات بالنسبة للعلوم الطبيعية ولان اللغة هي الاداة المثالية للوحى، فالمعنى وتبليغه عن طريق القول عنصران أساسيان فى كل وحي ، لابد من القول لابد من الكلام واذا كانت اللغة نسقا من الرموز ذات طرائق معينة فى الاستعمال وفعلا موجها نحو الآخر فان تاريخ دين ما ، من الاديان ـ من الديانات السماوية خاصة ـ لا يعدو أن يكون قراءة متواصلة للكتاب،وتأويلا مستمرا له،ولذلك يقول الغزالى المتوفى سنة 505 هـ · « أن فى فهم معانى القرآن مجالا رحبا ومتسعا بالغا وان المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الادراك وان الاخبار والآثار تدل على أن القرآن متسع لارباب الفهم »،ويذهب الغزالى أيضا الى القول بان الله تجلى فى كلامه للبشر فالوحى تجل لله وظهوره فى كلامه مستشهدا بكلمة قالها جعفر الصادق المتوفى سنة 148 هـ · قال جعفر الصادق « لقد تجلى الله عز وجل لخلقه فى كلامه ، ولكنهم لا يبصرون» فمعرفة الله سبيلها قراءة واعية لرموز الوحي ولذلك اعتبر الغزالى القرآن شرحا لله عن طريق فعل من أفعاله وهو القول يقول الغزالى « وبالجملة فالعلوم كلها داخلة بأفعال الله عز وجل وصفاته باعتبار أن العالم كله فعل من أفعال الله وان المخلوقات كلها فعل من أفعاله » هذا كلام الغزالى،وفى القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته وهذه العلوم لا نهاية لها · وفى القرآن اشارة الى مجامعها وأفعال الله تتمثل فى مخلوقاته والكائنات تمثل نسقا منظما كأنه ضرب من اللغة المنظمة تمام التنظيم وقراءتها وتنظيمها هو العلوم المختلفة علوم الكون العلوم الطبيعية ونحن لا نرمى فى هذه الكلمة الى نقد المناهج الحديثة فى نقد الدين وبحثه · وانما نهدف الى بيان معنى الوحي فى السياق اللغوى القرآنى باعتباره سياقا لغويا أو رمزيا ·

معنى الوحي فى اللغة : الوحي فى اللغة له معان كثيرة ولكن نختار أهمها تدل كلمة الوحي فى اللغة العربية على عدة معانى منها · الخط والكتابة · قال كعب بن زهير :

أتى العجم والآفاق منه قصائد
بقين بقاء الوحي فى الحجر الاصم

بقاء الوحي فى الحجر الاصم أي بقاء الكتابة والخط ومنه قول رؤبة :

كأنـــه بعـد ريـاح تدهمـــه

ومـرثغنّات الدجـــون تثمـــة

انجيـل أحبـــار وحي منمنمـــه

أى كتبه كاتبـــه ومـــن المعانى الاساسية للوحي السرعة ، ففى الحديث

« اذا أردت أمرا فتدبر عاقبته فـــان كانت شرا فانته وان كانت خيرا فتوحه»

أي أسرع اليه تسرع اليه فالوحاء هو السرعة ويقال سم وحي ، سريـــع الفتل واستوحيته أي استعجلته وتوحيت توحيا : تسرعت هذا تجدونه فى تفسير الطبرى حينما تعرض لكلـمة الـوحي وكذلـــك الزمخشـــرى فى الفـائـــق فى غريـب الحـديـــث • ومـــن هنـــا ندرك السمة الجوهرية للوحي وهي أنه يقع فى لمحة خاطفة تكاد تكون لا فى زمان وهو ما تفطن اليه الكندى المتوفى سنة 152 هـ فى تفرقته بين العلم الالهى والعلم البشرى فاعتبر علـم الرســـل موهبة دون اكتساب ولا حيلة ولا بحث وأنه يقع لا فى زمان بخلاف الفلسفـــة وغيرها من المعارف والعلوم الانسانيـة وهو ما ذهب اليه ابن خلدون أيضا كما سيأتى وقد لخص لنا محمد علي التهانوى فى كتابه كشاف اصطلاحات الفنـــون مختلف الدلالات اللغوية التى لا تختلف فى أساسها عما ذكره الطبرى المتوفى سنة 310 هـ فبين أنه الاعلام فى خفـــاء أي الوحي اعلام فى خفاء وسرعة عن طريق كلام أو كتابة او رسالة أو اشارة كاشارة العيون ويطلق الوحي عـــلى الوسوسة كما فى قوله تعـــالى « **ان الشياطيـن ليوحـــون الى أوليائهـــم ليجادلوكم** » سورة الانعام آية 121 • فالمعنى العام للوحي اذن باعتباره عملية هـــو القاء المـوحى الى المـوحى اليه بالوسائل المشار اليها وقد يطلق عـلى اسـم المفعـول ، أي عـــلى الموحى ، فالقرآن مثلا وحي ، ويذهب الزاغـــب الاصفهانى المتوفى سنة 502 هـ الى القول : بأن الوحي هو التفهم وان كل ما فهم به شيء من الاشارة والالهام والكتـب فهو وحي ، من الناحيـــة اللغويـــة ، بطبيعة الحال •

ما هو معنى الوحي الذى ورد فى القرآن ؟ فى سياق القرآن ؟ فى الآيات المختلفة ، فى السور المختلفة التى وردت فيها هذه المادة ، مادة وحي بجميـــع الصيغ اللغوية ؟

لفهم معنى الوحي فى القرآن أيهـا السادة ، يكون من الضرورى ربط هذه الكلمة بكلمات أخرى ، مثل : القـول ، الكلام ، اللسان ، القراءة ، التلاوة ، الترتيل ، النداء ، الامر ، التنزيـل ، الارسال ، التعليم ، الخلق ، الاتباع ، الاستماع • وهذه المواد كلها وردت فى القرآن تشير الى الوحي •

فالرازى يذهب الى أن الايحاء فيه معنى القول وورد فى كثير من الآيات أمـــر بصيغة ، قل • ثم يأتى ما يقال يـأتى

الوحى **قل هو الله أحد** · فى الاخلاص آيـــة ١ ·

قل ما كنـت بدعـا من الرســـل · الاحقــاف 49 ·

وكذلك التعليـم فى قوله تعــالى : « **وأوحينا اليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا** » فسر الزمخشرى الوحي هنا بالتعليم أي بتعليمنا فى سورة المؤمنون آية 27 فسره بتعليم صنع السفن وقوله تعالى « **وانزل عليك الكتاب والحكمــة وعلمك ما لم تكن تعلم**» سورة النساء ١١3 وارتبط الوحي بسياق التلاوة فى قوله : « **واتل ما أوحي اليــك من كتاب ربك** » الرسول ما عليه الا أن يتلو لا يصوغ لا يؤلف لا يكتـب ســورة الكهـف 27 وبالترتيل فى قولـــه « **ورتــل القـــرآن ترتيلا** » الترتيل أمر بترتيل شىء موجود ليس له يد فى صنعه سورة المزمل آية 4 ·

وبالقراءة ، تربط الوحى كما فى قوله تعالى « **اقر أباسم ربك** » سورة العلـــق آيـــة ١ · « **سنقرئك فلا تنسى** » الاعلى آيـــة 6 ·

وكذلك تربط الوحي بالاتباع فى قوله تعالى « **قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى أن اتبع الا ما يوحى الي** » ســورة يونس آية ١5 ـ كذلك قوله تعالى «**فــاذا قراناه فاتبع قرآنه ثم ان علينا بيانه** » سورة القيامة آية ١6 · وبالكلام أي ربط الوحي بالكلام فى قوله تعالى :

« **وكلم الله موسى تكليما** » ســـورة النساء آية : ١6 ·

« **وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء** » سورة الزخرف آيـــة ٥١ ·

وكذلك باللسان فى قوله تعالى : « **وما أرسلنا من رســول الا بلســان قومــه** » سورة ابراهيم آية : 5 ·

وبالتنزيل فى قوله تعالى : « **نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديـــه** » آل عمران آية 3 · وكذلك قوله تعــالى : « **وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا** » الاسراء آية ١٥6 · وبالبلاغ « الوحي » « **ما على الرسول الا البلاغ** » المائدة آية 99 · هذه الآيات التى وردت فيها هذه الكلمات شاهدة كلهـــا ان الوحي مصدره خارجى « خــــارج الرسول » وأنه لا يمكن فيه التفرقة بين المعنى واللفظ كما يفـرق بعضـهـم أن المعنى من الله واللفظ من الرسول ولا يفرق فيه بين السورة والمضمون فقـد نزل معنى ولفظا من اللــه · وما كــان لرسول ان يبدل ما عليه الا أن يبلـــغ وأن يتلو · والتلاوة نفسها اتباع لنموذج معين على نحو ما يقال فى المنطق مقدم وتالى · ولذلك ارتبط بالاستماع ، فى قوله تعالى : « **وانا اخترتك فاستمع لما يوحى** » طه آية ١3 ·

ومن جهة أخرى فالكلام أداة المخاطبة بين الذوات ، فاختار الله ألسن أقوال الرسل فى مختلف الامم أي اختار لغتها ليتجلى لعباده واذا تعددت اللغات لتعدد المجتمعات فذلك واقع اجتماعى لا مناص منه • لان الجوهر واحد وهو القدرة البشرية على التعبير واختيار اللغة الانسانية لا يتنافى مع علو الذاة الالهية أو تعاليها • ولذلك بين القرآن أنه ما أرسل الله رسولا من الرسل الا باللغة التى يفهمها قومه مباشرة اذ وظيفة اللغة وظيفة اجتماعية ، وظيفة تواصل واخبار بدونها يصعب التواصل بالمعنى الدقيق للكلمة • وأما اللغات الاخرى فيمكن بالترجمة • فليس الرسول متلقى المعانى تلقى فى قلبه ثم يتولى التعبير عنها بل هو يقرأ النص قراءة ويحفظه ويعيه •

كما يجرى على لسانه ويجهد نفسه بحفظه وترداده بحرص شديد حتى انه منهي عن تحريك لسانه ليعجل بقراءته •

لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه فاذا قرأناه فاتبع قرآنه » القيامة آية 16 •

فهو يسمتع لصوت • ان من معانى الوحي فى اللغة العربية الصوت : صوت الناس ، صوت الطيور ، صوت الذئب كما فى لسان العرب لابن منظور ـ فقد شهد صاحب الوحي على نفسه أنه لا يد له فيه • وأي مصلحة له فى أن ينسب بضاعته لغيره • واذا قيل أنه نسبه الى الله ليزداد عظمة فى علم الناس فان محمدا قد صدر منه كلام نسبه الى نفسه ، فلم اذن لم ينسبه كله الى الله ، ومن جهة أخرى فان التاريخ لا يسمح لنا أبدا أن نجعله يحقق اصلاح قومه على أساس من التمويه • فقد شهدت خصومه بصدقه وشهد له أعداؤه بأمانته وفى القرآن « **ولو تقول علينا بعض الاقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من احد عنه حاجزين»** • الحق 44

« **ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا او قال أوحي الي ولم يوح اليه شيء »** الانعام 94 •

استعملت مادة الوحي فى القرآن موجهة الى أربع مستويات من الكائنات • المعانى الاساسية التى وردت فيها المادة فى القرآن • الجماد ، الحيوان ، الانسان ، الملائكة •

فالوحي بهذا الاعتبار ، وحي عام ووحي خاص •

فالوحي العام يشمل الخلق نفسه ، عملية الخلق • فاذا اعتبرنا الوحي فى صورته الرمزية ، اللغوية ، فان هذه الرمزية لها أساس فى طبيعة الكائنات والاشياء • فقوانين الطبيعة ان هي الا تجل وتعبير عن ارادة الله • ألا يتيح لنا هذا فيما يقول René Guénon وهو مفكر كبير فرنسى ثم أسلم وله عدة كتب ، وسمى نفسه عبد الواحد يحيى ، ألا يتيح لنا هذا فيما يقول René Guénon

أن نثبت أن هذه الرمزية ترجع الى أصل غير بشرى ، فالله يتجلى عن طريق الخلق نفسه باثبات خارجى لارادته • ولهذا فان العالم نفسه ، هذا الكون لغة الهية بالنسبة لاولئك الذين يستطيعون فهمها فى ما يرى René Guénon نفسه •

ومن ثمة فلا عجب أن نجد الفيلسوف Bercley يقول هذا فى القرن 18 م • توفى فى سنة 1753 ، يقول : أن العالم هو اللغة التى خاطب بها الروح اللامتناهى الارواح المتناهية •

والواقع ان كل تعبير وكل صيغة فهي رمز للفكر الذى ترجم فى صورة خارجية • وهنا يمكن المقارنة بين اللغة الانسانية باعتبارها رموزا وصيغا دالة وبين الموجودات الاخرى باعتبارها كذلك انساق ذات دلالة • فالرازى يبين لنا (الرازى : متوفى سنة 606 هـ) ان مادة كـ ل م فى اللغة وفى تقاليبها الستة ما يسمى بالاشتقاق الاكبر ، من حيث الاشتقاق الاكبر ، والاصغر يدل على الشدة والقوة • ك ، ل ، م •

تدل على الشدة والقوة والتأثير فى جميع مشتقاتها وتقاليبها فهي مؤثرة تأثيرا عضويا فى السمع مثلا وتأثيرا ذهنيا ووجدانيا ، لما تسمع الكلام هذا لابد أن يحدث أثرا عضويا وذهنيا ووجدانيا ان بالسلب وان بالايجاب ، بل يذهب الى أن الكلمة تطلق على فعل الله ، فأفعاله كلماته وبهذا المعنى فسر الرازى قوله تعالى : « **لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا** » الكهف آية : 109 •

كما ان القول يدل فى تقاليبه الاشتقاقية الستة على الحركة والخفة بل ان الخلق نفسه يتم بكلمة : كن الوجودية ، كان التامة لا كان الناقصة • باعتبارها تعبيرا عن ارادة وتوجها الى ايجاد ، فالوحي فى أساسه انما هو أثر من أثر الكلمة مثل الخلق ، ولذلك استعمل العهد القديم فكرة اللغة لوصف فعل الخلق فهناك أمر بالكينونة ثم امتثال هذه الكينونة • فى التوراة قال الى النور : كن فكان النور •

فالكائنات كلها فيما يذهب اليه الشهر ستانى ، هذا من المتاثرين بالغزالى توفى بعد الغزالى بقليل فى سنة 548 يقول : الكائنات انما تتكون بقوله وأمره •

قال الله تعالى : **انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له : كن فيكون** » ويرى أن الكلمات مظاهر الامر (نص) والروحانيات مظاهر الكائنات والاجسام مظاهر الروحانيات والابداع والخلق انما يبتدىء من الارواح والاجسام • الكلمات أسباب الروحانيات والروحانيات مدبرات الجسمانيات وكل الكون قائم بكلمة الله محفوظ بأمر الله • هذا النص للشهرستانى فى كتابه : نهاية الاقدام فى علم الكلام •

وفى القرآن : **ما خلقت الجن والانس الا ليعبدون** » الذاريات آية 56 · فسرت العبادة هنا : بالمعرفة · الا ليعبدون أي ليعرفون ·

وورد فى الاثر تناقله الكثير من المتصوفة وكثير من المتحدثين كنت كنزا مخفيا لم أعرف (هذا حديث كأنه حديث قدسى) فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق وتعرفت اليهم فبى عرفونى. عن طريق خلقه ، الموجودات · المقصود بالمعرفة هنا : المعرفة الفطرية ·

وفى سياق هذه الرمزية فى المخلوقات يذهب الغزالى الى أن لكل شىء شهادات شتى على تقديس الله سبحانه وتسبيحه ويدرك كل واحد بقدر عقله وبصيرته وتعداد هذا الفن أيضا مما يتفاوت أرباب الظواهر وأرباب البصائر فى علمه هذا فى كتاب الاحياء جـ 1 ص 103 ، وفى القرآن « **وان من شىء الا يسبح بحمده · ولكن لا تفقهون تسبيحهم** » الاسراء آية 44 · فالعلاقة بين الله وبين الموجودات علاقة أمر وطاعة قول فوجود ففى القرآن : « **ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ايتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين** » فصلت آية 11 · فالرازى يرى ان المراد بـ:ايتيا الى الوجود والحصول فى الواقع وهو كقوله « **كن فيكون** » ، الاتيان الحصول فى الواقع على وفق المراد وهذا الضرب من الوحي هو الخلق الذى أشارت اليه الآية « **وأوحى فى كل سماء أمرها** » وهنا ينبغى أن يتأمل الانسان ـ فى كل سماء أمرها ، القوانين والنظام الذى فى السموات هو وحى وهو مظهر من مظاهر القدرة الالهية والارادة الالهية · هنا الوحى مستعمل فى الكائنات الجامدة « **وأوحى فى كل سماء أمرها** » ، فصلت آية 12 فالوحى الى السماء هو وضع نظامها الذى تنتظم به فى وجودها فهذه القوانين فى الطبيعة وهذا النظام فى الكون الذى تدل عليه كلمة (كوسموس اليونانية) هو وحى ، وكذلك نجد الوحي فى القرآن وجه الى الارض فى قوله سبحانه : « **بأن ربك أوحى لها** » الزلزلة آية 5 · أي أوحى اليها وأمرها ووجه الامر كذلك الى الجبال « **يا جبال أوبى معه والطير** » سورة سبأ آية 10 · وجه الوحى من جهة أخرى فى القرآن الى الحيوان ·

الى النحل « **وأوحى ربك الى النحل** » سورة النحل آية 68 فسر المفسرون الوحى هنا بالالهام ، قال الزمخشرى ان الله أودعها علما بذلك أي النحل وفطنها كما أولى أولى العقول عقولهم ، « كما أعطى لاصحاب العقول عقولهم » ويرى الرازى أن الله قرر فى نفوسها هذه الاعمال العجيبة « النحل » ويذهب ابن العربى المتصوف الى القول بأن ما فطر عليه كل شىء مما لا كسب له فيه من الوحي أيضا ـ ما فطرنا عليه من الاستعدادات النفسية والعقلية هذه

الاستعدادات كلها من الوحى كالمولود يتلقى ثدى أمه · ووجه النداء أيضا الى الطير · « **ويا جبال أوّبي معه والطير** » سبأ آية 10 · واستعمل الوحي فى مستوى الانسان لكن لغير الانبياء والرسل « **وأوحينا الى أم موسى أن ارضعيه** » القصص 7 · أم موسى لم تكن نبية وفسر فى هذا المجال أيضا بالالهام وانما اعلى درجة من درجات الوحى هذا الوحى الموجه الى الرسل والانبياء وهو الوحى بالمعنى الخاص الدقيق الذى يمثل رسالة تبلغ فالوحى هنا ليس القاء غامضا وانما هو التشريع لا يقتصر على الرسول باعتباره فردا وانما يتجاوزه بالتبليغ الى غيره من الناس ، والامر هنا هو أمر تشريعى وليس أمرا تكوينيا الامر التكوينى للموجودات بكن ولكن الامر بالوحي الخاص بالانبياء انما هو أمر تشريعى يشرع للناس الاخلاق يشرع للناس كيف يسلكون كما كان بالنسبة للموجودات الاخرى « الامر التكوينى » وهنا يرتبط الوحى باللغة ارتباطا وثيقا باعتبار أن اللغة لها وظيفة اجتماعية اخبارية مبينة كما أشرنا من قبل · « **وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه** » ليبين لهم اللام هنا للتعليل ليبين لهم · كيف يفهمون الوحى بدون اللغة التى يفهمونها ؟ ولذلك نجد الغزالى يفرق بين الوحى الصريح وبين غيره من ضروب الالهام التى ربما تكون ذاتية خالصة · اذ الالهام قد يكون اندفاقا باطنيا لامور غامضة من غير تعلم ولذلك يرى أن هذا الالهام وهذه الانواع من الحدس الذى يأتى للناس يخالف الوحى الصريح · ما هو الوحى الصريح اذن ؟ يعرفه الغزالى « بانه هو سماع الصوت بحاسة الاذن ، ومشاهدة الملك بحاسة البصر » يعنى أقوى الحواس تستعمل فى الوحى لضمان يقينه وصراحته · الصوت · سماع للصوت بحاسة الاذن ومشاهدة الملك بحاسة البصر ، والسمع والبصر هما أقوى حاستين فى المعرفة على الاطلاق ولذلك أخبر عن هذا بالنفث فى الروع ودرجات كثيرة والخوض فيها لا يليق بعلم المعاملة · هذه لغة الغزالى دائما · قال هذا النص ولكن لم يرد أن يتعمق فى ذلك وانصرف فهذا الجانب الحسى أيها السادة هو الذى يضمن لنا الموضوعية فى الوحى وينفى فكرة اللاشعور التى يعتمد عليها المحللون النفسانيون الذين يفسرون أنواع الالهام وأنواع الحدس والوحى ويبعد مجرد التأمل والحدس اذا أضفنا الى ذلك معرفة تاريخية موثوق بها حول سلامة شخصية الرسول العقلية والاخلاقية وليشهد خارج مجاله الشخصى وان الاعراض الجسمية التى تصحب حالة الوعي لا تكون الا فى تلك اللحظة الخاطفة واللمحة القصيرة التى يأتى فيها الوحي لشدته ولذلك ورد فى القرآن « **انا سنلقى عليك قولا ثقيلا** » (وحى شديد) المزمل آية 5 · أما فيما عدا ذلك من لحظات حياته فهو لا تظهر

عليه أية أعراض تشير الى مرض عصبى أو نفسى ومن جهة أخرى فان الالهـام ليس محددا نفسيا فهو معرفة مباشرة للموضوع قابل للتفكير أو خـاض فيه التفكير فعلا وهو يمكـن أن يخضـع للبرهان العقلى فيما بعد وهو لا تصحبه أية ظاهرة نفسية أو سمعية أو بصرية أو عصبية ، الالهام لا ينطوى على يقيـن كامل اذ يحتاج الى برهـان بخـلاف الوحى فهو يقين فى نفس الرسول لا يشك فيه أبدا وليس النبىء مختارا فى الوحى. يقول ابن عربى ولهذا الا يتصور المخالف اذا كان الكلام وحيا • فلا يمكن للرسول أن يخالف فان سلطانه أقوى من أن يقاوم فدل على أن الوحى اقوى سلطانا مـن نفس الموحى اليه من طبعه الذى هـو عين نفسه لقد شهد الانبياء جميعا أن رسالتهم خارجة عن كيانهم الشخصى فهذا أرمياء نبى من أنبياء بنى اسرائيل يقول فاذا قلت لم أعد أذكره أو أتكلـم باسمه (الله) وجدت فى قلبى كالنـار المضطرمة المستكنة فى عظامى فأحـاول أن أطفئها ولـكـن لا أستطيـع • ففى القرآن : « **انا اخترتك فاستمع لما يوحى**» اختيار الله ، الله اختاره وليس لـه الاختيار ما عليه الا ان يستمع وكذلـك قوله سبحانه وتعالى : « **الله يصطـفى من الملائكة رسلا ومن الناس** » الحـج آية 75 وتنبه ابن خلدون الى الجانب التربوى التدريجى فى الوحى فبيـن : ان الوحى على الجملة فيه صعوبة وشدة ولذلك ينبغى الترفق بالموحى اليه شيئا فشيئا •

وأتى بقول عائشة كان ينزل عليـه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيقصم عنه (أي يفارقه) وأن جبينه ليتفصـد عرقا » ـ ولذلك بدأ الوحى تدريجيا بدأ بالرؤيا الصادقة أخف أنواع الوحي ـ ثم جاءه الملك متمثلا له فى صورة انسان غطه غطا شديدا حتى بلغ منه الجهـد عدة مرات ليعده للرسالة الشديـدة القوية ليستعد للوحى •

قال ابن خلدون وقد يفضى الاعتياد بالتدريج فيه شيئا فشيئا الى بعـض السهـولـة بـالقيـاس الى مـا قبله بل انه يرجع السبب (أي ابن خلدون) فى كون السور والآيات التى نزلت عليه فى المرحلة الاولى أي الآيات التى نزلت فى مكة ـ قصيرة لماذا كانت هذه الآيات قصيرة ؟

يقول : لان الوحي شديد • كـانت قصيرة حتى يتعود وكانت الآيات التى نزلت عليه فى المدينة طويلة لانه تعود على الوحى فلم يصبح ثقيلا عليه كمـا كان من قبل فهذه العملية التربوية هي التى تفسر لنا طول الآيات والسور التى نزلت بالمدينة وقصر السور والآيـات التى نزلت بمكة ويرى ابن خلدون أيضا أن التلقى والفهم والرجوع الى المدارك البشرية ـ لان حالة الوحى كانت تخرج عن المدارك البشرية ـ كأنه فى لحظة واحدة

بل أقرب من لمح البصر لانـه ليس فى زمان بل كلها تقع جميعا فيظهـر كانها سريعة ولذلك سميت وحيا لان الوحى فى اللغة الاسراع (هـذا كلام ابـن خلدون) ٠

فالوحى اذن يبدأ بالرؤيا درجـة أولى أخف ثم يكون حسيا فى اليقظـة يتدرج الحس نفسه ابتداء من السمـع وانتهاء الى البصر وهو أكثر وضوحا وقد فسر لنا النبى صلى الله عليـه وسلم كيفية ألوحى حين سأله الحـارث ابن هشام بن المغيرة المخزومى المتوفى سنة 18 هـ ٠

قال كيف يأتيك الوحى ؟ « فقال أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عنى وقد وعيت ما قال ٠ وأحيانا يتمثل لى الملك رجـلا فيكلمنى فاعي ما يقول » ٠

ولبيان التدريج علق ابن خلدون على ذلك بقوله : (ان المكانة الاولى أشـد لانها مبدأ الخروج فى ذلك الاتصال من القوة الى الفعل فيعسر بعض ألعسـر ولذلك لما عاج فيها عن المدارك البشرية اختصت بالسمـع وصعـب ما سـواه وعندما يتكرر الوحى ويكثـر التـلقى يسهل ذلك الاتصال ، فعندما يعوج الى المدارك البشرية يأتى على جميعهـا وخصوصا الاوضح منها وهـو ادراك البصـر ٠

يتفق ابن عربى مع ابن خلدون فى أن بداية الوحى هي الرؤيا الصادقـة ثم الحس ويعرف الوحى بأنه « انزال المعانى المجردة العقلية فى القوالـب الحسية المقيدة (اللغة) فى حضـرة الخيال فى نوم كان أو فى يقظة » يبدو أنه متأثر هنا بالفارابى فى تفسير النبوة وهو من مدركات الحس فى حضـرة المحسوس مثل قوله تعالى : « **فتمثـل لها بشرا سويا** » مريم 17 ٠

وفى حضرة الخيال كما أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم العلـم فى صورة اللبن وكذا أول رؤياه لان البدء عنده هو ما يناسب الحس اولا ٠ ثـم يرتقى الى الامور المجردة الخارجة عن الحس والوحى هنا تشريع ويذهب أيضا الى أن الوحى يقع فى لمحة خاطفة فهو المفهوم الاول والافهام الاول ولا أعجب من أن يكون عين الفهم عين الافهام عيـن المفهوم منه الا ترى ان الوحى هـو السرعة ولا سرعة أسرع مما ذكرنـاه فهذا الضرب من الكلام يسمى وحيـا وأنه تجلى ذاتى فالوحى ما يسرع أثره من كلام الحق تعالى فى نفس السامع وهذا الكلام الوحى يساوقه وعي بـه وبمصدره يخلاف الالهام والالقاء فى القلب فانـه لا يـدرى من أيـن أتى (لا يعرف مصدره) والوحى كما اشرنا فيه شدة وصعوبة كعملية تلقى من جهة وكعملية تبليغ من جهة أخرى ، كيـف يبلغ للناس ما يناقض أحوالهم الاجتماعية ومعتقداتهم هذا صعب ولذا اقـتـضى الصبر قال تعالى : « **اتبع ما يوحى اليك**

واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين » يونس آية 109 « **فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وضائق به صدرك**» (هذا يدل على الصعوبة) هود آية 12 ·

ولكي يطمئن أنزل عليه : « **فاستمسك بالذى أوحى اليك انك على صراط مستقيم** » سورة الزخرف آية 42 · وبسر له العمل فقال : « **فانما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا** » القوم اللد هم المعاندون هذه صعوبة كبيرة اجتماعية · يسره بلسانه أي أنزله بلسانه الذى يستطيع أن يخاطب به وأن يفهمه قومه لانه يخاطبهم بلسانهم سورة مريم آية 97 ·

كذلك قوله « **بلسان عربي مبين** » الشعراء آية 195 · (**وهذا لسان عربي مبين**) النحل آية 103 (**انا انزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون**) يوسف آية 2 (**قرآنا عربيا غير ذى عوج**) الزمر آية 28 (**كتاب فصلت آياته لقوم يعلمون**) فصلت آية 3 · وأزال عنه الشك بقوله : (**الحق من ربك فلا تكن من الممترين**) البقرة آية 147 · (**فان كنت فى شك مما انزلنا اليك فاسئل الذين يقرأون الكتاب من قبلك · لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين · ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين**) يونس 94 ، 95 · و (**نقص عليك من انباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين**) هود 120 (**ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا واوذوا حتى اتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمة الله**) الانعام آية 34 · نفى القرآن عن النبى صلى الله عليه وسلم أن يكون شاعرا او كاهنا (**وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون**) الحاقة آية 41 ، 42 · (**وما علمناه الشعر وما ينبغى له ان هو الا ذكر وقرآن مبين**) يس آية 69 · فليس نظم القرآن بنظم شعر وليس بسجع كسجع الكهان وما ينطوى عليه من خرافات وسخافات · ويمكن للدارس ، أيها السادة بالاضافة الى هذا أن يتتبع بالبحث مادة الوحى فى الحديث النبوى فى مواقف مختلفة سواء ما كان منه توقيفيا أو توفيقيا (أنواع الحديث) فان فيه شواهد هامة على أحوال النبى حين يوحى اليه وينبغى أن نشير الى أن الحديث سواء كان قدسيا أو غير قدسى انما لفظه من كلام النبى لا من كلام الله مع اختلاف فى القدسى والراجح أنه من عند النبى فى لفظه ·

أما كتب الانبياء التى وصلتنا فانه من الصعب أن نميز فيها بين كلام الله وكلام الرسل التى نسبت اليهم من حيث النص لان هذه الكتب تعرضت لتغيير مستمر ودخلت فيه العادات الاجتماعية والقوانين ، ودخلت فى هذه النصوص وتناقلتها الالسن شفويا وتغيرت على تغير الزمن وتغير المجتمعات وتغير اللغات اللغة العبرية ، اللغة اليونانية ،

اللغة الآرمية . فانه من الصعب فيها أن نميز بين كلام الله الذى أنزل وبين الكلام الذى نسب الى الرسل رسل بنى اسرائيل ولذلك افترض الكاردينال (فرانزلين) يقول : أن الله أوحى المعانى وأن الانسان وضع الصورة والاسلوب ، ولكن هذا التمييز ان هو الا نظرى فان المسيح وحده هو الذى تكلم فى نظر القديس أغسطين ولذا نجد مجلس الكنائس مجلس الفاتيكان لسنة 1870 يقول : تعتبر الكنيسة هذه الكتب مقدسة وقانونية لانها كتبت تحت تاثير الروح القدس فالله هو الذى ألفها نسبوها الى الله كي لا يتركوا سبيلا للنقد الذى وجه الى هذه الكتب ولكن التاليف هنا يحتاج الى توضيح فهل هو وضع النص لفظا ومعنى أم أن الله هو العلة والمصدر المؤثر فى نفس الرسول وان الرسول له نوع من الحرية فى هذا الالهام من حيث التعبير هذا مشكل بالنسبة للكتب المقدسة ، التى وصلتنا ويقولون ان الوحى عندهم لم ينقطع الى يومنا هذا أي واحد من الكهان من الرهبان من القديسين عندهم يستطيع أن يتلقى الوحى الى يومنا هذا وكلامه وحى ولكن هنا كيف نفرق اذن بين كلام الشاعر وكلام الفنان وبين الكلام الذى ألهم وبين كلام شخص آخر يدعى أنه يوحى اليه هذه مشكلة كبيرة بالنسبة للمسيحيين واليهود ولكنها ليست مشكلة تماما بالنسبة للقرآن لانه حفظ نصه حرفيا ولم يتغير منه حرف واحد وهذه هي المعجزة الكبرى للقرآن وأول عمل علمى وقع فى المجتمع الاسلامى هو حفظ القرآن تسجيل القرآن جمع القرآن كتابة القرآن فى مصحف هذا أول عمل علمى عظيم حفظ لنا هذا القرآن على الصورة التى أنزل بها .

ومن ثم فان الكتب القديمة دخلت فيها تغييرات كثيرة وتشريعات . تشريع حمورابى وجدناه فى كتبهم المقدسة وكذلك أناشيد فى ديانات الفراعنة القدماء وجدت بصيغها فى هذه الكتب على أنها منسوبة للانبياء والرسل وكذلك مسألة الثالوث وجد فى الديانة البراهمية قبل المسيحية ووجد فى ديانة الفراعنة (قدماء المصريين) الثالوث هناك نصوص كثيرة فى هذا ولهذا فان النص الوحيد من الكتب السماوية الذى بقى كما أنزل هو نص القرآن وهذا بوعد الله سبحانه وتعالى : « **انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون** » فهذه المشكلة اذن بالنسبة للوحى فيما يتعلق بالمسيحيين خصوصا الذين يقولون ان الوحى مستمر الى يومنا هذا يمكن على ضوء قراءة الاناجيل أن يوحى الى أحد الصالحين منهم وكلامه يعتبر وحيا وكذلك يعتبر مثلا البابا يعتبر معصوما (من العصمة) مع أن الانبياء ليسوا معصومين عندهم وهذه الفكرة ، فكرة عصمة البابا وجدت اخيرا فقط ليس لها أصل فى المسيحية القديمة وبهذا أيها السادة فقد جمعت

الآيات التى وردت فيها مادة الوحى فى القرآن وهي سبعون آية وفهرستها على حسب ورودهـا فى السور بـالترتيب موجودة هنا وكذلك جعلت لهأ مختصرا فى أرقام، رقم السورة واسمها ورقم الآية واذا وجدنا سورة واحدة وردت فيها آيات كثيرة فيها مادة الوحى وضعنا أرقامها بجانب السورة حتى يسهل على الباحث أن يراجع سياق تلك المادة ليفهم ماذا يقصد منها وهذه تحتاج الى دراسـة مفصلة ولكن نحن اشرنا الى المستويات الاربع التى توجهت اليها هذه المادة أي الوحى ، الجماد والحيوان والانسان ، بطبيعة الحال الانسان غير النبى يوجه اليه الالهام والانسان الذى هو نـبي يكون معنى الوحى هنا بالمعنى الفنى الدقيق الذى فيه رسالة ، ثم الملائكة هناك آيات كثيرة أيضا توجهت الى الملائكـة على أنهم رسل أرسلهم الله الى البشـر يعنى الى الانبياء ، لان النبي يرسل الله اليه ملكا من الملائكة فهذا الملك رسول وبهذا اختم كلمتى هذه وأرجو أن أكون قد وفقت شيئا ما · الى بيان هذا المعنى والسلام عليكم ورحمة اللـه تعـالى وبركاته ·



محمد (صلى الله عليه وسلم)
فى نظـر المفكرين الغربيين

محمد الصالح الصديق

ان الزمن بتعاقب أيامه ، وتـوالى احداثه ، يزيد فى سجل التاريخ صفحة بعد صفحة ، ويضيف الى ذاكرة الانسان، خواطر وصورا جديدة ٠

وان تشعب الاحداث وتراكمها فى معترك الحياة ، وتزاحم الصور والخواطر على الذاكرة كفيل بان يسدل ستارا على أى حادث فيختفى ويسقط فى حساب التاريخ فلا يعود يذكر ولا يعثر له على اثر ٠

ولكن هناك احداثا وان كانت قليلة بالنسبة الى الاحداث التى تجد فى الحياة لا تخضع لهذا القانون ، ولا ترضخ لهذه القاعدة ، بل هى شاذة ومستثناة مـن الحكم ٠

ويتصدر هـذه الاحداث ميـلاد نبـى الانسانية الاعظم محمد صلى الله عليه وسلم ٠ لقد مضت أربعة عشر قرنا فى جزر التاريخ ومده ، وصروف الدهـر وخطوبه ، استعمرت خلال هذه الاحقاب شعوب وتحررت شعوب ، وقامت دول ، وزالت دول ، وقويت امم وضعفت امم ، وظهرت مذاهب واختفت مذاهـب ، وانتصرت جيوش وانهزمـت جيوش ، وتهاوت عروش وقامت عروش ٠ وميلاد محمد صلى الله عليه وسلم كوكب يتألق فى سماء الحياة ، ومشعل لا يخبو عـلى ساحل الوجود ، وعلم يخفق على شاهق التاريخ ٠

فكلما أهل شهر ربيع الاول أعلن للبشرية عن ذكرى ميلاد هـذا النبى الكريم . فترى مئات الملايين من المسلمين فى انحاء المعمورة وفى مختلف القارات الخمس يبتهجون بمقدم هذه الذكرى التاريخية الغالية ويستعدون لاقامـة الحفلات المختلفة ، فى الشكل والنوع ، ولكنها جميعها متحدة المصدر والباعث

وهو حب الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومتفقة الهدف والغاية ، وهو اكـرام الرسول وتعظيمه وتبجيله •

وكلما اهل هذا الشهر اهتزت نفوس ، وتفتحت قلـوب ، وانتعشت افكـار ، وتأهبت عقول واقلام لدراسة شخصية الرسول العظيمة فتراها تبحث وتحلل وتستجلى وتستنبط ، وتنقب وتعلـل وكلما فكر المفكرون ، وبحث الباحثون ، وكتب الكاتبون ظهرت آفاق بعد آفاق ، وآثار بعد آثار ، ومجاهل بعد مجاهل ••• وظهر للانسان مهما بلغ عقله وقلمه من قدرة على التفكير والابداع انه امام علم شامخ دونه القول والبيان ، أو أمـام خضم هائل ، عميق الغور ، بعيد الارجاء تنقطع انفاسه ، وتكل عزماته ، ويضيق بيانه عن التعبير عن حقيقته •

أليس صاحب الذكرى هو المثـل الكامل فى تاريخ البشرية ، والرمـز الخالد لدعوة الحق والخير والفضيلة •

أليس صاحب الذكرى هو الذى أرسله الله ليضع على وجه هذه الارض حياة مثالية فيها سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ؟

أليس صاحب الذكرى هو الذى فجر فى الارض ينابيع الحياة ، واشعـل مصابيح الهدى ، وأرسى قواعد الحق ، وجعل للانسان قيمة ووزنا ، وللحياة اعتبارا ومعنى ؟

أليس صاحب الذكرى هو الذى نـزل عليه اعظم كتاب ، وأكرمه الله بأعظم نبوة ، وفضله باعظم رسالة ستظل منبع الحياة ، وقوام الحياة ، ما دامت الحياة ؟

ورسول البشرية ـ فى نظرى ـ يشبه هذا الوجود الضخم الهائل ، الزاخـر بالكنـوز والاسرار فمنذ أن وجـد الانسان وهو ينظر ويتأمل ، ويـدرس ويبحث مدفوعا بحب الاطلاع وكلمـا امعن فى البحث والنظـر والدراسة ، وتغلغل فى أعماق الكون ، ووقف على أسراره انكشفت له آفاق رحبة ، وعوالم واسعة ، وأسرار وحقائق تفوق الوصف والتقدير • وأدرك عظمة الكون بصورة أجلى وأوضح ، وتفاءل أمام الحقيقـة الضخمة وتلاشى غروره وادعاؤه •

وهكذا نبى الاسلام صلى الله عليـه وسلم ••• فمنذ أربعـة عشر قرنـا والعلماء والمفكرون والباحثون يجدون فى الكشف عن خصائص شخصيته العظيمة، ومكانته الفذة ، وقيادتـه الحكيمـة ، وشريعته الخالدة ، ومع تحقيقهم لغايات بعيدة فى الموضوع فما يزال الطريـق طويلا لا نهاية له ، والجهاد شاقا يتقاضى عزما وصبرا ومثابرة •

واذا كان بعض الباحثين المسلمـين ـ نظريا ـ والاجانب قد حرموا مـن

ادراك عظمة هذا الرجل ، بالرغم من خوضهم فى البحث عنها ، لضعف فى النظر ، وقصور فى العقل ، وخلل في الادراك ، وانحراف فى الميدان ، وعقدة فى النفس وانطماس فى الفطـــرة ، وفساد فى المزاج فان مثلهم فى ذلك - كما يقول الشاعر الكبير جلال الدين الرومى - كمثل ابليس وابى جهل :

ان الظواهر أضلت ابليس فلم ير من جوهر آدم الا الماء والطين ، واضلت الظواهر ابا جهل حين نظر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم على انه محمد ابن عبد الله القرشى ولم ير فيه سيدنا محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فما ذنب الشمس اذا لم تستطع العين رؤيتها ؟ وما ذنب الطعم اذا لم يدرك الفم مذاقه الحلو ؟

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد
وينكر الفـم طعـم الماء مـن سقـم

واذا أعجـب بالرجـل قومـه واصدقاؤه ومحضوه الحب والتقدير واحلوه مكانة فذة بينهم فانه لا شك رجل عظيم ، ولكن اذا أعجب مع الاقارب والاصدقاء أقوام آخرون لا يمتون اليه بصلة ، فهو لا شك فى قمة العظمة .

فالمعجبون بالرسول اعجابا يفـوق كل وصف ، والمغرمون بحبه غرامـا يتجاوز كل حد ، هــم المؤمنون به ، والتابعون لدينه ، والسالكون لنهجه .

ولكن هذا الاعجــاب تجاوزهم الى أجانب لا يؤمنون به ، ولا يدينون بدينه ، ولا يمتون اليه الا بصلـــة الاعجـــاب والتقدير ، لشخصيته العظيمة ، ودينـه القويم ، وللكتاب السماوى المنزل عليه، فترفعوا عن التعصب ، وتساموا عـن مستوى الطغام المناكيد الذين يشوهون الحقائق بالخداع والدهاء والوهـــم والحيل الكاذبة ، والمؤامرات المضللة .

فكتبوا عن الرسول وعـــن القـرآن الكريم ، والاسلام والمسلمين ، فكانت كتاباتهم وابحاثهم علمية خالصة ، صادقة هادفة ، منطقية بريئة ، لا حقد فيهـا ولا تعصب ، ولا كذب ولا تضليـــل ، ولا تحريف ولا تشويه، ولا طمع ولا رياء.

فهؤلاء المنصفون من الاجانب عظمـاء أبطال فى نظرى ، ونظر كل منصف ، لانهم أقوياء فى مواقفهم تجاه الحـق ، أحرار فى تفكيرهم ، منصفون فى احكامهم أمناء على رسالتهم فى الحياة كمفكرين وكاتبـين .

واننا لنرى احسن ما نساهم به فى الاحتفال بهذه الذكرى الخالدة لميلاد نبى البشر عليه الصلاة والسلام ، أن نقدم أمثلة من هؤلاء المفكرين الاعلام فى صور

بليغة معبرة تعكس فى عمق واخلاص وصدق ، عظمة الرسول وعظمة الاسلام وعظمة القرآن عند هؤلاء ·

ولكى يستبين المرء عظمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وعظمة دعوته الرشيدة الهادية ، والانقلاب الجذرى الهائل ، الذى أحدثه فى النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، فضلا عما احدثه من تغيير جذرى فى سلوك الفرد ـ عليه ان يقف على حالة العالم قبل ميلاده عليه السلام :

كتب فى هذا الموضوع العالم الشهير « جون لابوم » يقول :

« كان العالم قبل مولد هذا النبى مملوءا بغيوم الاضطرابات والفتن والقلاقل ، ففى انجليترا كان الانجلو ، يتنازعون السكسونيين ، وفى فرنسا كان أولاد « كلوفيس » متخاصمين متحاربين ·

اما فى ايطاليا فكان اسم الرومان وهو ذلك الاسم الشامخ قد فقد هيبته القديمة وكانت روما وهى رأس ذلك التمثال المتهشم تترنح وتضطرب كلما ألم بها طائفة من ذكريات عظمتها الراحلة · اما فى افريقيا فكان اليونانيون والرومانيون انفسهم وهم اخلاط من عساكر وتجار وحكام دائبين على امتصاص دم مصر ساعين فى جعلها كالجثة الهامدة لا حس فيها ولا حركة » · هـ

واستطرد العالم الفرنسى (جون لابوم) يقول عن العرب :

« وكان العرب مغرمين بشرب الراح ولعب الميسر، وكان من عادتهم ان يتزوج الرجل من النساء بقدر ما تسمح به أحواله المعيشية ··· وكان له أن يطلقهن متى شاء هواه ·

وكانت الارملة تعد من ضمن ميراث زوجها ·

وكانت عندهم متاعا يقتنى ، وسلعة تباع وتشترى ·

ولا يهم الرجل ما يصيب الاسرة من تفكك وانحلال وانهيار ، وكان من تقاليدهم البغيضة وأد البنات ، وكان الرجل اذا بشر بالانثى توارى عن أهله حياء » · هـ

اما العالم الانجليزى الشهير « بوسورت سميث » فانه وصف العرب قبل الدعوة المحمدية بأنهم ماديون لا يعتقدون فى الحياة بعد الموت، ولا يشعرون بمسؤولية أعمالهم ، وكانوا يؤمنون بالارواح الشريرة وينسبون اليها كل ما ينتابهم من علل واسقام ، وكان الجهل منتشرا بينهم ، وكانت الرذيلة متفشية الى أبعد حد حتى انعدمت كل رابطة فى البلاد ، اما أشعارهم فكانت مليئة بالفحش

والاستهتار ، وشاعت الفاحشة ولم يكن هناك رادع من نظام أو ضمير » ٠ هـ

اما العالم الباحث السيد « وليم ميور » فانه قد تناول العرب قبل البعثة المحمدية من جانب آخر فقال :

« لقد كانت عبادة الاصنام متأصلة في نفوسهم وتجرى في عروقهم ٠ بعد ان ملأت الخرافات والاوهام والخزعبلات فراغ عقولهم ٠

فكان لذلك اثر بالغ في كل أعمالهم وتصرفاتهم ٠٠٠

وكانت قبائلهم متنافرة ٠٠٠ لا تعرف الهدوء ، والاستقرار ٠

وكثيرا ما تدخل في حرب طاحنة مع القبائل المجاورة بلا رحمة ولا هوادة حتى القبائل التي كانت تربطها رباط القرابة والمنفعة كانت تتقاتل لاتفه الاسباب » ٠ هـ

أما الكاتب الكبير (ج٠ هـ) دينسون صاحب المؤلف القيم (العواطف كأساس للحضارة) فقد وصف الفترة المظلمة التي سبقت شروق شمس الاسلام وبعثة خاتم الانبياء ثم قال :

« اما النظم التي خلفتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والانهيار بدلا من الاتحاد والنظام ، وكانت المدينة كشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها الى العالم كله ، واقفة تترنح وقد تسرب اليها العطب حتى اللباب ، وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذى وحد العالم جميعه » ٠ هـ

وظل العالم بما فيه بلاد العرب يعاني الضعف والخوار والتفكك والانحلال حتى جاء نبي الاسلام محمد صلى الله عليه وسلم فبعث الحياة من جديد ، وغير مجرى التاريخ في العالم بفضل دينه وكتابه الخالد المعجز، فاذا بالامبراطورية الاسلامية تمتد في أمد قصير الى الهند مشرقا والى بلاد اسبانيا غربا حتى قال المستر «سباستيان شارلي» كلمته المأثورة الخالدة :

« لقد مات الشرق بموت (دارا) وعادت اليه الحياة على يد محمد » ٠ هـ

و (دارا) هو ملك الفرس الذى حاربه الاسكندر في القرن الرابع قبل الميلاد ، وقهره واحتل بلاده التي كانت أقوى امم الشرق وقتئذ ٠

وفي الطفرة الهائلة المدهشة التي حدثت في حياة العرب بفضل محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي التحول الجذرى الخارق الذى تم بفضل القرآن الكريم ، كتب المؤرخ والفيلسوف الانجليزى العظيم (توماس كارلايل) يقول :

« لقد اخرج الله العرب بالاسلام من الظلمات الى النور واحيا به أمة هامدة وما كانت هذه الامة الا فئة جوالة فى الصحـراء الهيجاء ، خاملة فقيرة تجوب الفلوات ومنذ بدأ العالم لا يسمع لها صوتا ولا تحس منها حركة فارسل الله لهم نبيا بكلمة من عنده ورسالة مـــن قبلـه .

فاذا بالخمول قد استحـال شهرة ، والغموض نباهة ، والضعف قوة ، واذا بالضوء الخافت قد اضحى نورا وهاجـا يملأ الانحاء ويعم الارجاء .

وما هو الا قرن بعد هذا الحادث حتى امتدت دولة العرب الى الهند والى بلاد الاندلس وظلت هذه الدولة تشرق حقبا عديدة ودهورا مديدة بنور الحق والمروءة والعدل والشهامة والنبل » . هـ

اما الكاتـــب العبقرى النابغة (ول ديورانت) صاحب الموسوعة التاريخية الرائعة (قصة الحضارة) فقد أوضح ما كان للحضارة الاسلامية المحمدية من اثر فى حضارة أوروبا والعالم أجمع .

واشاد فى اعجاب وتقدير بفضل محمد الذى فجر الحيـــاة المثالية فى العالـم ثم قال :

« اذا ما حكمنا على العظمة بما كـان للعظيم من أثر فى الناس قلنا ان محمدا كان فى أعظم عظماء التاريخ فقد أخذ على نفسه ان يرفـــع المستوى الروحى والاخلاقى لشعب ألقت به فى دياجير الهمجية حرارة الجو وجدب الصحراء ، وقد نجح فى تحقيق هذا الغرض نجاحا لم يزاحمه فيه اى مصلح آخر فى التاريخ كله وقل ان نجد انسانا غيره حقـــق ما كان يحلم به من اصلاح » . هـ

تلك طائفة قليلة من آراء اعلام الفكر الغربى فى عظمة محمد صلى الله عليه وسلم ، والتغيير الجذرى المدهش الذى تم على يديه فى أمد وجيز .

✡ ✡ ✡

من أبرز ما آثار اعجاب المفكريـــن الغربيين بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وتناولوه بالدراسة والبحث ، شخصيته العظيمة الفذة التى تجاوزت كل حدود الادب والاخلاق المتعارفـة عنـــد ذوى النفوس الكريمة ، والهمم العاليـــة ، والطباع المهذبة الاصيلة .

فالبرغم من أنه ولد فى بيئة مفككة متخاذلة ، يسودها الجهل وتحكمها العصبية وتستبد بها أخلاق سيئة وعادات قبيحة ـ فانه كان استاذ الانسانية ، ورائـد البشرية ، ومنبع الفضائل والاخـلاق ، كان لا يتكلم الا فيما يرجو خيره لا ثوابه ولا يواجه أحدا بما يكره ، وكان دائم البشر لـين الجانب ، يحتمل الجفوة فى

المنطق ، يساير الفطرة ، ويعيش فى ظلال الانسانية فهو بتواضعه الجم وتقشفه فى جميع مظاهر الحياة كالشمس قريبة من كل أحد : بضوئها ودفئها ، ولكنها فى حقيقتها بعيدة عالية •

وقد كتب الباحث السيد (توماس كاريلال) معجبا بهذه الشخصية المحمدية العالية التى استطاع بها ان يملك القلوب والعقول فقال :

« لقد كان زاهدا متقشفا فى مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه وسائر أموره وأحواله •

فكان طعامه عادة الخبز والماء •

وكثيرا ما تتابعت الشهور ولم توقد بداره نار • فهل بعد ذلك مكرمة ومفخرة ؟

فحبذا محمد رجل متقشف حسن الملبس والمأكل •

مجتهد فى الله •

دائب فى نشر دين الله غير طامح الى ما يطمح اليه غيره لا من رتبة أو دولة أو سلطان) • هـ

واضاف الفيلسوف (كارلايل) يقول : «ولو كان غير ذلك لما استطاع ان يلاقى من العرب الغلاظ احتراما واجلالا واكبارا ، ولما استطاع ان يقودهم ويعاشرهم معظم وقته ، ثلاثا وعشرين حجة وهم ملتفون حوله ، يقاتلون بين يديه ويجاهدون حوله ؟

لقد كان فى قلوب هؤلاء العرب جفاء وغلظة وكان من الصعب قيادتهم وتوجيههم •

لهذا كان من يقدر على ترويضهم وتذليلهم بطلا (وايم الله) ، ولولا ما وجدوا فيه من آيات النبل والفضل لما خضعوا لارادته ولما انقادوا لمشيئته» • هـ

وفى نفس الموضوع كتب الدكتور (ريكورد الفارير كوستيل) الاستاذ بجامعة المكسيك بعد ان أعلن اسلامه وكان قد وقف نفسه مدة طويلة لدراسة الاسلام وشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم كتب يقول :

« ان اعجابى برسول الله صلى الله عليه وسلم فات الخيال فقد أيقنت بدء دراستى بشخصية الرسول المختار أن الدين الاسلامى هو خير الاديان وان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هذا خلقه الذى رباه الله عليه كفيل أن يجذب بخلقه الكريم واخلاقه الحميدة كل العقول بمذاهبها المختلفة وأجناسها المتعددة •

وان نبى الله المختار شخصية فريدة فى نوعها فى هذا الوجود لانها اقامت الدنيا واقعدتها بثورة مازالت حتى اليوم

بدليل الكثرة اليومية الهائلة التى تدخل فى الدين الاسلامى عن طريقه وعلى طريق الحق الذى جعله الله كريما بها فاعز بها الاسلام » • هـ

اما العالم الكبير المستر (لين بول) فقد كتب رسالة قيمة دافع فيها ببطولة وصدق ، ونزاهة واخلاص عن محمد صلى الله عليه وسلم ، فكانت صورة ناطقة بعظمته وعبقريته ، وصاعقة من نار على رؤوس الحاقدين على الاسلام الذين يرجون الشبه والاباطيل •

وقد جاء فى هذه الرسالة ما يلى :

« ان كثيرا من كتاب التراجم والسير الاوروبيين الذين تناولوا الكلام عن سيرة محمد لم يتعففوا عن أن يشوهوا هذه السيرة بما ادخلوه عليها من افتراءات وادعاءات، كاتهامهم له بالقسوة وارتكاب الموبقات والانهماك فى الشهوات » • هـ

واسترسل الكاتب (لين بول) يقول : أما انه كان متصفا بالقسوة فتهمة غير جديرة بالاعتبار •

ذلك اننا اذا رجعنا الى التاريخ وحكمناه فى هذه المسألة تبين لنا ان القسوة لم تكن قط من اخلاق محمد •

بدليل معاملته للاسرى بعد موقعة بدر وتسامحه مع أعدائه وصبره على أذاهم • وعطفه على الاطفال المرضى وحقنه للدماء •

وعفوه عن أولئك الذين قضوا فى محاربته ثمانية عشر عاما اظهروا له فيها صنوف العداء وأذاقوه فى خلالها كل أنواع الجور والظلم والاضطهاد •••

ولقد نال محمد تقدير العالم أجمع واعدائه بنوع خاص عندما ضرب للناس مثلا فى مكارم الاخلاق وأطلق سراح عشرة آلاف أسير كانوا فى يوم من الايام يعملون على قتله والفتك به وايراده هو أصحابه مورد الهلاك ولما استتب له الامن وخضعت شبه جزيرة العرب له •

لم يحاول ان يكره أحدا على اعتناق الاسلام » • هـ

وتناول الكاتب العبقرى (أكسير وليم ميور) حياة محمد صلى الله عليه وسلم بالبحث والتحليل من جوانب مختلفة وأبدع فيما كتب •

ووهب عقله وقلبه وعاطفته للحق جبا للانصاف والنزاهة •

وتحدث بالخصوص عن شخصية الرسول الاخلاقية الفريدة التى كانت من أكبر العوامل على نجاح دعوته •

وارساء دعائم دولته الدنيوية والدينية،

مما جعله فى غنى عن القوة ، لانه كان يخاطب العقل ويهدى القلب ، والعقل لا سلطان للقوة عليهما ٠

ومما قاله الكاتب :

« ومن صفاته الجديرة بالتنويه :

الرقة والاحترام اللذان كان يعامل بهما اتباعه حتى اقلهم شأنا ٠

فالتواضع والرأفة والاناة وانكار الذات والسماحة والسخاء تغلغلت فى نفسه فاحبه كل من حوله » ٠ هـ

واضاف (السير وليم ميور) يقول :

وكان ـ محمد ـ يكره ان يقول لا ، فاذا لم يتمكن من ان يجيب الطالب لسؤاله فضل السكوت على الجواب ، وقد قالت عنه عائشة : انه كان أشد حياء من العذراء فى خدرها ، وكان اذا أساءه شيء تبيناه فى أسارير وجهه أكثر من كلامه ولم يمس أحدا بالضرر الا فى سبيل الله ٠ ويؤثر عنه انه كان لا يمتنع عن اجابة دعوة الى بيت مهما كان رب البيت ٠

واذا جلس الى صاحبه لم يرفع نحوه ركبتيه تشامخا منه وكبرا ، وكانت له تلك الخلة النادرة التى يجعل بها كل فرد من صحابته يظن أنه المفضل المختار » ٠ هـ

والكثير من الفلاسفة الغربيين الذين اهتموا بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم أدهشهم تواضعه وبعده عن الادعاء والتظاهر والفخر والرياء ٠

ولنرهف آذاننا ونستمع الى توماس كارلايل وهو يقول :

« أحب محمد لبراءة طبعه من الرياء والتصنع ٠

ولقد كان ابن الصحراء مستقل الرأى لا يعتمد الا على نفسه ، ولا يدعى ما ليس فيه ، ولم يكن متكبرا ولا ذليلا ، فهو قائم فى ثوبه المرقع كما أوجده الله ، يخاطب بقوله الحر المبين أكاسرة العجم وقياصرة الروم ، يرشدهم الى ما يجب عليهم لهذه الحياة وللحياة الآخرة » ٠ هـ

واستمر كارلايل يقول :

« وكان محمد اذ سئل أن يأتى بمعجزة قال حسبكم بالكون معجزة ٠

انظروا الى هذه الارض ٠٠٠ أليست من عجائب صنع الله ؟ أليست آية من آيات عظمته ؟ » ويزعم المتعصبون ان محمدا لم يكن يريد بدعوته غير الشهرة الشخصية والجاه والسلطان ٠ لقد انطلقت من فؤاد ذلك الرجل الكبير النفس المملوء رحمة وبرا وحنانا وخيرا ونورا وحكمة ٠

أفكار غير الطمع الدنوى واهـداف سامية غير طلب الجاه والسلطان » • هـ

وتأثـــر العالم الباحث (بوسورث سميث) هو الآخر بشخصية الرسول النبيلة المتواضعة القوية •

التى كونت أمة تعد مثلا عاليا فى علو النفس ، وصفاء الطبع ، واقامة العدل، والخضوع للحق بالحق ، فكتب يقول :

« ان أعجب العجائب فى حياة محمد أنه لم يدع قط القدرة على اتيان المعجزات فايما شيء قال انه يستطيع ان يفعله رآه اتباعه وهو يفعله ، ولم ينسب أحد منهم اليه معجزة من المعجزات •

بل ان محمدا نفسه حرص دائما على ان ينكر قدرته على اتيانها •

اى دليل له مثل هـــذه القوة عـلى الاخلاص يمكن ان يسوقه انسان ! !

لقد ظل محمد الى آخر حياته وليس له لقب يعتز به الا أنه نبى مرسل مـــن عند الله دون أن يكون له جيش قائم ولا دخل ثابت •

واذا كان لاى انسان أن يدعى الحق فى تلقى الوحى من الله فانه محمد ، وانه لحدث فريد فى التاريخ ان يؤسس محمد شعبا وامبراطورية ودينا » • هـ

وتحدث الكاتب الكبير (جرجس سال) فى كتابه « مقالة فى الاسلام » فقال :

« ان محمدا رسول الاسلام كان صالح الاخلاق ولم يكن على الشر والخبث كما يصفه به خصومه • ثم مضى يعرض كلاما له دلالاته البعيدة فى الموضوع وقال :

قال (جيبون) : (عقيدة محمد خالصة ليس فيها عبس ولا ابهام والقرآن شاهد عدل وبرهان قاطع على وحدانية الله عز وجل ، لقد هجر نبى مكة عبادة الاصنام والبشر ، سواء أكانوا من النجوم ، أم من الكواكب السيارة ، أم من غير ذلك على القاعدة العلمية الصحيحة وهى :

« ان كل قابل للنهى لابد أن يبيد ويفنى ، وكل مولود لابد أن يموت ، وكل بازغ لابد له من أفول » • هـ

وبحث العالم الشهـــير البروفيسور (ليك) حقيقة الاسلام وطبيعته وأهميته العظمى فى حيـــاة الانسان ، وخصص كلاما طويلا هاما لحياة الرسول صلى الله عليه وسلم قال فيه :

« حياة محمد التاريخية لا يمكن ان توصف باحسن مما وصفه الله نفسه بألفاظ قليلة بين فيها خلـق النبى حيث قال : « **وما أرسلناك الا رحمة للعالمين** » ان يتيم آمنة العظيم قد برهن بنفسه على انه أعظم الرحمات لكل ضعيف ولكل محتاج الى المساعدة •

كان محمد رحمة حقيقيــة لليتامى وأبناءالسبيل والمنكوبين والمدينين وجميع الفقراء والعمال ذوى الكد والعناء » ٠ هـ

وكتب المفكر الباحث « لورد هدلى » بمناسبة ذكرى مولد النبى صلى الله عليه وسلم سنة 1351 هـ رسالة قيمة نبعت من عقل حر ، وقلب نقى ، ونفس سامية، واحساس قوى صادق ٠

ملكه حب محمد صلى الله عليه وسلم والاعجاب به ، مما دفعه الى اعتنـــاق الاسلام بعد مدة قصيرة من كتابـــة الرسالة وقد جاء عند حديثه عن الرسول صلى الله عليه وسلم ما يلى :

« وقد كان محمد غيورا ومتحمسا ٠

وكلنا نعرف أن الغيرة والحماسة انما هما للعالم بمثابة الملح للارض ويحفظها من التعفن والفساد ٠

وقد يستاء استعمال الحماسة حيث يلجأ اليها بعض الناس لاغراض غـير شريفة ، وفى مواطن لا تكون فيهـــا الحماسة مقبولة ولا مرغوبا فيها ، ولكن غيرة محمد لم تكن من هذا النوع وانما كانت لغرض نبيل ومعنى سام ٠

فهو لم يتحمس الا عندما يكون ذلك واجبـا مفروضا لا مفـر منـه الالهـاب العالم ٠٠٠ فقد كان رسولا من اللـه ، وكان يريد ان يؤدى رسالته على أكمل وجه كما انه لم ينس فى يوم من الايام كيانه أو الغرض الذى بعث من أجله » ٠هـ

وكتب شاعر فرنسا الكبير (لامارتين) دراسة قيمة وافية عن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم حلل فيها شخصيته العظيمة ، وابعاد رسالته السماويـــة الخالدة ، وسجل اعجابه به ، وتقديره له ، وقال بالخصوص :

« اترون محمـــدا كان أخ خـــداع وكذب ٠٠؟ كلا ٠ لم يكن خادعا ولا كــاذبا بعد مـا عـرفنا تاريخه ودرسنا حياتهُ ، فالكذب والخـداع والتدليس صفات تُتولد من نفاق العقيدة ، وليس للنفاق قوة العقيدة ، وليس للكذب قوة الصدق » ٠ هـ

وتحدث فى موضع آخر يقول : « ان حيـاة محمـد ، وقـوة تأمله وتفكيره ، وجهاده،ووثبته على خرافات أمته،وجاهلية شعبه،وخزعبلات قبيلته،وشهامته،وجرأته، وبأسه ، وثباته ثلاثـة عشر عاما يـدعو دعوته فى وسط أعدائه ، وتقبله سخرية الساخرين وهزأه بهزء الهازئين ، وحميته فى نشر رسالته ، وتوافره على السعى فى اظهار دعوته ، ووثوقه بالنجـاح ، وايمانه بالفوز ، ورباطـــة جأشه فى الهزائم ، وتطلعه الى اعلان كلمة الله وتأسيس العقيدة الاسلامية ، ونجـــاح

دينه بعد موته ، كل ذلك أدلة على انه لم يكن يضمر خداعا أو يعيش على باطل • وهذا اليقين الذى ملأ روحه هو الذى وهبه القوة على أن يرد الى الحياة فكرة عظيمة ، وحجة قائمة ، ومبدأ مزدوجا ، وهو وحدانية الله ، وتجرد ذاته عن المادة • الاولى تدل على من هو الله ، والثانية تنفى ما الصقه الوثنيون به • الاولى حطمت آلهة كاذبة ، والاخرى فتحت طريقا الى الفكر والتأمل » • هـ

اما القس (لوزون) الفرنساوى الشهير فقد كتب يقول تحت عنوان « ليس محمد بنبى العرب وحدهم بل هو أفضل نبى قال بوحدانية الله » :

« وليس محمد نبى العرب وحدهم بل هو أيضا أفضل نبى قال بوحدانية الله تعالى ، فان دين موسى وان كان من الاديان التى أساسها الوحدانية الا انه كان قوميا محضا وخاصا ببنى اسرائيل ولم يكن التعبد عليه ممكنا الا فى بيت المقدس •

واما محمد فقد نشر دينه بقاعدتيه الاساسيتين : وهما الوحدانية والبعث وقد أعلنه لعموم البشر فى أنحاء المسكونة

وأنه لعمل عظيم يتعلق بالانسانية جملة وتفصيلا عند من يدرك غايته •

فالديانة المحمدية اذن مع كونها من بعض الوجوه خاصة بالعرب وبعصر ظهورها ـ هى للنوع الانسانى • الديانة العامة الخالدة » • هـ

☆ ☆ ☆

لقد تم لنبى الاسلام محمد صلى الله عليه وسلم فى أمد وجيز نجاح باهر مدهش لم يعهد له نظير فى تاريخ الانسانية • فقد كون خلال مدة قصيرة أمة صغيرة العدد ، ولكنها راسخة العقيدة قوية الايمان ، عظيمة الكفاح •

وكان يواجه بايمانها وأخلاقها وطاقاتها وعقولها وشريعتها ومبادئها وعددها ، ليعلن للعالم أن لا اله الا الله، وان محمدا رسول الله •

وبعد ليل مظلم طويل من الجهاد الحوارى والفكرى ، ومن بناء العقول والارواح، والضمائر والطباع، والنفوس والاخلاق ، تحققت لنبى الاسلام معجزة البعث والاحياء ، انه لم يحيى فردا كما فعل أخوه عيسى عليه السلام وانما أحيا أمة بل أحيا العالم أجمع •

وهذه المعجزة الباهرة قد ادهشت علماء الغرب وفلاسفته ولم يسعهم الا ان يشيدوا بها فى اعجاب بالغ ، ويقفوا على التغنى بها والتنويه ، افكارهم وألسنتهم واقلامهم ، فهذا العالم الشهير (سير وليم موير)

يقول فى كتابه عن سيرة الرسول عليه السلام :

« امتاز محمد بوضوح كلامه ، ويسر دينه ، وانه أتم من الاعمال ما يدهش الالباب ، فلم يشهد التاريخ مصلحا ايقظ النفوس ، واحيا الاخلاق ، ورفع شأن الفضيلة فى زمن قصير كما فعل محمد » . هـ

.وراع شاعر فرنسا الكبير لامارتين عظمة محمد صلى الله عليه وسلم وما حققه من تقدم ورقى فى المجال الدينى والدنيوى بكيفية عجيبة مدهشة فكتب يقول :

« لقد كان محمد فيلسوفا ، وخطيبا ، ومشرعا ، وقائدا ، وفاتح فكر ، وناشر عقائد تتفق مع الذهن ، (ومنشىء عشرين دولة فى الارض) وفاتح دولة فى السماء من الناحية الروحية .

أى رجل قيس بجميع هذه المقاييس التى وضعتها لوزن العظمة الانسانية كان أعظم منه ؟ » . هـ

واستمر الشاعر الفرنسى الكبير يصور عظمة الرسول على شواهق التاريخ وآفاق الانسانية ، وقمم المجد الصادق يقول :

لو كان مقياس العظمة هو اصلاح شعب متدهور فمن ذا يتطاول الى مكان محمد ؟

لقد سما بأمة متدهورة ورفعها الى قمة المجد .

وجعلها مشعلا للمدنية وموردا للعلم والعرفان .

لقد كان مقياس العظمة فى توحيد البشرية المفككة الاوصال فمن أجدر بهذه العظمة من محمد الذى جمع شمل العرب وجعلهم أمة عظيمة وأمبراطورية شائعة ؟ ولو كان مقياس العظمة هو اقامة حكم السماء على الارض فمن ذا الذى ينافس محمدا وقد محا مظاهر ألوثنية ليقيم عبادة الخالق وحده ؟ ولو قسنا العظمة بالنصر الحربى والنفوذ والسلطان ، فمن يدانيه من هذا المضمار ؟ لقد كان يتيما لا حول له ولا قوة فأصبح ملكا عظيما ومؤسسا لامبراطورية دامت ثلاثة عشر قرنا من الزمان .

ولو كان مقياس العظمة هو الاثر الذى يخلده فى النفوس على مر الاجيال فها هو محمد يمجده أربعمائة مليون من الناس فى مختلف البقاع ، مع تباين أوطانهم وألوانهم وطبقاتهم » . هـ

ويقول العالم الامريكى الكبير « ول دورانت » مؤلف موسوعة « تاريخ الحضارة الانسانية » بعد أن تحدث بتفصيل وتحليل عن تاريخ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم :

والحق أن هذا الحادث الجلل – يريد النبى وما حققه من معجزات على مستوى الدين والدنيا – الـــذى تمخضت عنــه جزيرة العرب ، والذى اعقبه استلاؤها على نصف عالم البحر الابيض المتوسط ونشر دينها الجديد فى ربوعه ، لهو اعجب الظواهـــر الاجتماعيــة في العصـــور الوسطى » • هـ

ثم قال (دول دورانت) أو اذا حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثـــر فى الناس ، قلنا ان محمدا من أعظـم عظماء التاريخ ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحى والاخلاقى لشعب ألقت به فى دياجير الهمجية حرارة الجو وجذب الصحراء وقد نجح فى تحقيـق هذا الغرض نجاحا لـــم يدانه فيه أى مصلح آخر فى التاريخ كله •

وقل أن نجد انسانا غيره حقق كـل ما كان يحلم به واستطاع فى جيل واحد ان ينشىء دولة عظيمـــة وأن يبقى الى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم فى نصف العالم » • هـ

اما الاستـــاذ الامريـــكى الكبـــير (ستودارد) صاحب الكتاب الشهـــير (حاضر العالم الاسلامى) فانه هو الآخر أبدى اعجابه الكبير من انتشار الاسلام فى مختلف انحاء الدنيا بصفة سريعــة ، ومن ظهوره فى أرض صحراوية جرداء جدباء ، وفى أمة متخلفة متدهورة • وقال بالخصوص :

« كاد يكون نبأ نشوء الاسلام ، النبأ الاعجب الذى دون فى تاريخ الانسان ، ظهر الاسلام فى أمة كانت من قبل ذلك العهد متضعضعة الكيان وبلاد منحطـــة الشأن ، فلم يمض على ظهـــوره عشرة عقود حتى انتشر فى نصف الارض ممزقا ممالك عالية الذرى ، مترامية الاطراف ، وهادما أديانا قديمة كرت عليها الحقب والاجيال ، ومغيرا ما بنفوس الامـــم والاقوام ، وبانيا عالما حديثا متراص الاركان هو عالم الاسلام ، وكلما زدنا استقصاء باحثين فى سر تقدم الاسلام وتعاليمه زادنا ذلك العجب العجاب بهذا• فارتددنا عنه باطراف حاسرة » • هـ

وبعد أن لاحظ (ستودارد) باهتمام بالغ واعجاب لا حد له ما كانت تلاقيه الاديان العظمى من تأييد ومؤازرة من قبل الملوك والسلاطين الذيـــن ينتحلون تلك الاديان ، قال فى روعة من ديـــن محمد صلى الله عليه وسلم :

« ••• انما الامر ليس كذلك بالنسبة الى الاسلام •

الاسلام الذى نشأ فى بلاد صحروية •

تجوب فيها شتى القبائل الرحالة ، التى لم تكن من قبل رفيعة المكانة والمنزلة فى التاريخ ، فسرعان ما شرع يتدفق وينتشر وتتسع رقعته فى جهات الارض مجتازا أفدح الخطوب وأصعب العقبات دون أن يكون له من الامم الاخرى عون يذكر ، ولا آزر مشدود .

وعلى شدة هذه المكاره فقد نعد الاسلام نصرا مبينا عجيبا ، اذ لم يكد يمضى على ظهوره أكثر من قرنين حتى باتت راية الاسلام خفاقة من (البراندى) حتى (هملايا) ومن صحارى أواسط آسيا حتى صحارى أواسط افريقيا » . هـ

وترددت بين الغربيين شبهة تحمس لها كثير من الباحثين وجندوا لها عقولهم واقلامهم وكتبوا عنها ابحاثا ومقالات ومؤلفات .

بعضهم أنصف الاسلام ونبيه ودافع عن الحق دفاعا بطوليا صادقا .

وبعضهم هاجم الاسلام ونبيه هجوما شديدا عنيفا بدافع من الحقد والبغض والكراهية .

وهذه الشبهة المغرضة السافرة هى أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان يضع السيف أمامه وهو ينشر الاسلام ، وأن الاسلام دين سيف وحرب وقتال ، ودين عنف وشدة وقساوة لم ينتشر الا بالسيف والعنف .

والحقيقة الناصعة التى يشهد لها التاريخ ، ويؤكدها الواقع ، هى أن الاسلام قام على الحجة والبرهان ، وانتشر بالاقناع والاقتناع .

وكانت الدعوة المحمدية قوية فى غير عنف ، ولينة فى غير ضعف .

ومن أجل ذلك كانت سريعة النفوذ الى القلوب، والتغلغل فى أعماق النفوس.

وما يقال من أن الاسلام دين ارهاب واكراه ، وتقتيل ، قول باطل لا يقول به ولا يركن اليه الا الجاهل بتاريخ الاسلام وطبيعة الاسلام وأهداف الاسلام ودستور الاسلام ، أو مغرض متعصب همه تشويه الحق واطفاء نوره .

وممن تشيعوا للحق ، ووقفوا ضد هذه المزاعم الكاذبة ، والافتراءات الباطلة ، الفيلسوف الانجليزى (توماس كارلايل) الذى كتب يقول : « لجأت شيعة محمد الى الفتح ، وهو سبب لا حرج فيه فنشر القرآن جناحيه خلف جيوشهم المظفرة التى سارت سير الصواعق الى الشام وشمال افريقيا ، وعبرت البحار ، الا أنهم مع ذلك لم يتركوا أثرا للظلم والتعسف في طريقهم ، فلم يقتلوا أمة أبت الاسلام ، وكانوا اذا

التقوا بامة خيروها بين واحدة من ثلاث : الاسلام ، أو الجزية ، أو تحكيم الحرب حتى تضع أوزارها » .

ويقول الكونت (هنرى دى كاسترى) : « لا حرج فى أن ينشر القرآن جناحيه خلف جيوشه المظفرة التى لم تترك وراءها أى اثر للعنف والظلم ، لقد زحف المسلمون فى كل اتجاه ولكنهم لم يقتلوا أمة ابت الاسلام» .

وكتب الفيلسوف الفرنسى الشهير : (فولتير) يرد على المتعصبين المغرضين الذين يشوهون الاسلام ونبيه عليه السلام ، ويؤكد لهم أن الدين الاسلامى أتى بعقيدة وحدانية الخالق فى صورة مقبولة للعقل البشرى ، خالية من كل غموض ، ومن أجل ذلك تفتحت له القلوب فى مختلف ارجاء العالم ورضخت لاوامره وحدوده .

ثم يقول : « وليس بصحيح ما يدعى من ان الاسلام استولى قهرا بالسيف على أكثر من نصف الكرة الارضية ، بل كان سبب انتشاره شدة رغبة الناس بعد أن اقنع عقولهم ، وأكبر سلاح استعمله المسلمون لبث الدعوة هو اتصافهم بالشيم العالية اتباعا للنبى محمد ، فانه لا يخفى ولوع المغلوب بتقليد الغالب ، وحتى انخرط فى الاسلام أقوام لم تبلغهم سلطة المسلمين ولم تعلهم » .

وفى ختام حديث الكاتب الفرنسى (فولتير) عن الاسلام ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم قال ما يلى :

« وهذا القول النزر (القليل) منى يكفى لتفنيد كل ما ذكره لنا مؤرخونا وخطباؤنا فارتكز فى ضمائرنا كثير من الاوهام الباطلة ، والاراجيف المتوارثة لان من الواجب أن تدحض الباطل بالحق ولنذكر دائما هذه الحقيقة التاريخية ألا وهى : ان المشرع الاسلامى محمدا كان ذا يقين راسخ وقوة عزم هائلة فأقام دينه ببسالة وثبات جنان ، ثم فيما بعد ظهر الدين الاسلامى بشفقة وسماحة لم تعهد من غيره ، ومن الغريب المشاهد أن مؤسس الدين النصرانى كانت حياته كلها خضوعا واستكانة ومسالمة ، وكان يأمر بالتجاوز عن الذلات ، والحال أن ديانته اللينة صارت لحماقتنا وبغينا ابعد الاديان عن السماحة ، واقربها للقساوة والطغيان » .

ونشرت صحيفة (الناقد) السورية فصلا قيما ممتعا لكاتبة انجليزية تتحدث عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتصف باسهاب شخصية الرسول القوية الفذة ، وما حققه من معجزة الانقلاب فى المجتمع العربى والمجتمع الانسانى بصفة عامة ، ثم قالت :

« ... ان الانسان يتساءل بدهشة غريبة عن تلك القوى الخفية التى ساعدت المسلمين على التغلب على شعوب تفوقهم حضارة واختبارا واستعدادا حربيا . وأعانتهم على توسيع بلادهم الصغيرة وتوطيد نفوذهم فى كل بلد احتلوه توطيدا لم يترك لاية جهود مبذولة مجالا لتقويضه ، ثم غرسهم فى نفوس الشعوب الغربية روحا شريفة ـ لا تعرفها الديانات الاخرى مضى عليها ثلاثة عشر قرنا ونيف لم تتحول بل ما زالت تشتد وتمتد وتزيد نفوس أنصارها رغبة اقتحام كل خطر فى سبيل الذود عن حياضها ، وأى انسان لا يقف مدهوشا أمام الديانة الاسلامية وهو يرى مصائر الديانات الاخرى ؟ » .

ومضت الكاتبة الانجليزية تحلل سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم واخلاقه السامية التى كان يغزو بها القلوب الصلبة ، والنفوس الجامحة والاكباد الغليظة ، فتلين وترق وتستنيم ويتحول أصحابها من اعداء الاسلام ونبى الاسلام ، الى انصار الاسلام ومؤيديه وناصريه ، ثم قالت :

« هذا هو الاسلام وتلك هى المعجزات التى انتشر على أساسها ، وان الانسان يشعر بالغبطة عندما يرى العداء الذى كان يظهر فى انتقادات الاوروبيين فى القرون الوسطى يتلاشى فى هذا القرن ، وعندما يرى الانصاف الكافى الذى يظهره كتاب اليوم نحو تلك الديانة السامية ، اسمى ديانات العالم ، الديانة التى قلبت العالم أجمع وانى أعتقد من جهتى أن عدم اهتمام علماء الاسلام بنشر الديانة الاسلامية وعرض آرائهم على الامم الغربية ، هو الذى حمل الاوروبيين على مثل هذه الاعتقادات السيئة . هـ

وقال العلامة النابغة (بارتلمى سنت هيلر) معجبا بتفوق محمد صلى الله عليه وسلم وخلقه النادر الذى بلغ به القمة : (لقد كان محمد اكثر عرب زمانه ذكاء وأشدهم تدينا واعظمهم رأفة ، وقد نال سلطانه الكبير بفضل تفوقه عليهم ، وقد كان دينه الذى دعا الناس الى اعتقاده جزيل النعم على جميع الشعوب التى اعتنقته » . هـ

☆ ☆ ☆

ما من مفكر باحث من غير المسلمين سواء أكان مؤرخا أو عالم دين أو رجل اجتماع الا راعه دين محمد صلى الله عليه وسلم وكتابه المبين ، وأذهله ما أحدثاه من الاثر العظيم فى الفرد والمجتمع والانسانية جمعاء ومازالا يحدثانه .

وقد تظافرت أقوال المفكرين الغربيين الذين كتبوا للحقيقة والتاريخ على أن

الاسلام انما غير وجه التاريخ فى حقبة قصيرة من الزمن ، واستطاع ان يبسط ظلاله على معظم العالم فى أمد وجيز ـ لما يكمن فى طبيعة عقيدته من سر ، وفى طبيعة نظامه من قوة وقدرة ٠

وفى طبيعة كتابه المعجز ، من مزايا وخصائص ٠

وفى طبيعة نبيه من رحمة وسماحة واخلاص ٠

ان اثر الاسلام على الفرد وبالتالى على المجتمع يفوق كل أثر وذلك لسلطانه على الفكر والروح والقلب ٠

فالاسلام ثورة على الفكر ليحرره من الوهم والخرافة والتقليد وجميع الاعتقادات الباطلة ، فيتجه فى قوة وحيوية وحكمة الى صنع الحياة وتنميتها، وثورة على الروح ليحرره من الانحطاط والهبوط والتردى ويطلقه من أغلال المادة يرتاد الآفاق العليا ٠

وثورة على القلب ليحرره من الحسد والهوى والغش ويطهره من سائر الامراض التى لا يأتى شقاء الانسان الا منها ٠

وهل الانسان الا فكره وروحه وقلبه ؟ فاذا ارتقت هذه ، ارتقى الانسان ، فاذا ارتقى الانسان ، ارتقت الحياة ٠

وهل جاء الاسلام وبعث محمد صلى الله عليه وسلم وأنزل القرآن الا لارتقاء الحياة ٠

وقد انطلق أعلام الفكر الغربى فى هذا الميدان وأبدعوا فى تصوير محاسن الاسلام وخصائصه ، والتحويلات الجذرية العميقة التى أحدثها القرآن وفضائل هذا النبى العظيم الذى يعد رحمة مهداة الى العالمين ٠

فكتب العالم الشهير ، والفيلسوف الكبير (برنارد شو) يقول :

« لقد وضعت دائما دين محمد موضع الاعتبار السامى بسبب حيويته العظيمة فهو الدين الوحيد ، الذى يلوح لى أنه حائز أهلية العيش لاطوار الحياة المختلفة بحيث يستطيع أن يكون جذابا لكل زمان ومكان » ٠ هـ

ثم استطرد (برنارد شو) يقول :

« لا مشاحة فى أن العالم يعلق أهمية كبيرة على نبوءات كبار الرجال ٠٠٠ لقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولا لدى أوروبا فى الغد القريب وقد بدأ يكون مقبولا لديها اليوم » ٠ هـ

وأضاف الفيلسوف (برنارد شو) يقول : « ولقد أدرك فى القرن التاسع عشر مفكرون مخلصون امثال (كارلايل) و (جوت Geute) و (جيبون) القيمة

الذاتيةلدين محمد . وهكذا أوجـد تحول حسن فى موقف أوروبا من الاسلام ولكن أوروبا فى القرن الراهن تقدمت فى هذا السبيل كثيرا .
فبدأت تعشق عقيدة محمد .

وفى القرون القادمة قد تذهب أوروبا الى أبعد من ذلك فتعترف بفائدة هـذه العقيدة فى حل مشاكلها .

وبهذه الـروح يجب ان تفهمـوا نبوءتى » . هـ

ودرس برنارد شو عظمة الاسـلام وعظمة محمد عليه الصـلاة والسـلام وعظمة القرآن من جهات مختلفة .

فهاله ما راى ، ولم يتمالك ان يقول فى صراحة وجرأة :

« اننى اعتقد أن رجلا كمحمد لو تسلم زمام الحكم فى العالم بأجمعه لتم النجاح فى حكمه ولقاده الى الخير وحل مشكلاته على وجه يكفل السـلام والطمانينة ، والسعادة المنشودة » . هـ

وقـال العـالم الانجليـزى المستـر (وينتروب كيهمبال) فى معرض حديثه عن محاسن الاسلام : « أعجبنى مـن الاسلام أنه دين بسيط معقول ليس فيه ما فى غيره من نظريات معقدة واعتقادات مخيفة ، وطقوس لا معنى لها ، وقديسين يكادون يبلغون فى أدعائهم الباطل درجة الالوهية » . هـ

ثم قال :

«وبالرغم من أننى انتسبت الى الكنيسة الانجليزية البروتستانتية الا أنـنى لم اكن عضوا حقيقيا فيها الى ان بلغـت العشرين من العمر ، ولا أزال أرى فى كنيستى فائدة عظيمة يجنيها اعضاؤها ولكنى لا اتفق معها فى الاعتقاد والايمان ولا أقرها على طقوسها الدينية ونظرياتها غير المعقولة » . هـ

وبعد ان تحدث (وينتروب) عـن صدق الاسلام وقوته وجاذبيته وملاءمته للفطرة البشرية ختم حديثه بقوله :

« واعتقد أن فى أوروبا كثيرين من الناس لا يعتقدون بالمسيحية ولا يـرون فيها ما يوافق روح المدنية .

ولو تباح لهم معرفة الاسلام ، لكنـا نراهم يدخلون فيه افواجا افواجا (. هـ

وقال أحد العظماء وهو (السير د.ب)
« الاسلام هو اعظم دين ديمقراطى فى العالم ، لان الاسلام يوحـد الخلـق ويجعلهم أمة واحدة ، لا فضل لعربيها على عجميها الا بالتقوى ، طالما يعتنـق الانسان دين الاسلام فيسقط كل الفروق بينه وبين أى مسلم آخر فيصبح مهمـا كان أصله فى درجة واحدة معه ، وان

الناس فى نظر الاسلام سواسية فانك ترى المسلمين فى الجوامع يصلون والفقير الى جانب الغنى ، والحقير الى جانب العظيم ، لا فرق بين مملوك وأمير ، أو ملك، وكلهم فى نظر الله اخوة، الاسلام.

لا يعرف فرقا بين قومية وأخرى ولا يفضل لونا على لون » . هـ

وتحدث (السير ك.ب) عن سبب انتشار الاسلام بالكيفية المعروفة من السرعة والعمق والاصالة فقال :

« ولم ينتشر الاسلام فى العالم أجمع هذا الانتشار ـ العجيب ـ من أقصى شواطىء المحيط الهادى الى أقصى شواطىء المحيط الاطلانتيكى ـ فى مدة قصيرة الا لانه امتاز بالمساواة والعدالة وفى المدة الاخيرة تراه يكتسح بلاد الملايا والصين واليابان والهند وأوروبا لا بالسيف ، ولكن بالعدالة والمساواة وحرية الفكر ونشر روح الاخاء » . هـ

ومضى يقول : « ومما يجدر بنا ان نلاحظ ان الاسلام ينتشر الآن فى بلاد لم يصلها الحكم الاسلامى ، ولم تعرف فتوحات العرب ، ولكن الاسلام ـ كما هو معروف عنه ـ انما ينتشر كانتشار النور لا يسد تياره شىء » . هـ

وقال السيد (بيرك) فى خطبة له بالبرلمان الانجليزى : « ان دين الاسلام هو أحكم واعقل وأرحم تشريع عرفه التاريخ البشرى » . هـ

وقال (شارل ميزمير) الفرنسى الشهير : « انى أظهر فكرى بكل صراحة واقول : لو وجد دين الاسلام المبلغين المقتدرين الذين يقدرون المذاكرة والتفاهم مع علماء النصارى فى هذه الازمنة التى تنتشر فيها مذاهب الضلالة المتفرقة وتنتصر ، لاسلم الناس طبعا فى أوروبا » . هـ

وقال العلامة النابغة (بوسورث سميث) فى كتابه (محمد والدين المحمدى) يعلن عن اعجابه الكبير بكتاب محمد صلى الله عليه وسلم : « كان محمد فى وقت واحد مؤسسا لامة ، ومقيما لامبراطورية ، وبانيا لدين ، وهو وان كان أميا فقد أتى بكتاب يحوى أدبا وقانونا وأخلاقا عامة ، وكتبا مقدسة فى كتاب واحد وهو كتاب يقدسه الى يومنا هذا سدس مجموع النوع البشرى ، لانه معجزة فى دقة الاسلوب وسمو الحكمة وجلال الحق » . هـ

اما المستشرق الفرنسى الكبير (اميل درمنغم) فقد أطلق العنان لفكره وقلمه، فى الحديث عن عظمة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعظمة المعجزة الخالدة القرآن الكريم وقال بالخصوص :

« والقرآن هو معجزة محمد الوحيدة ، فأسلوبه المعجز ، وقوة أبحاثه التى لا تزال لغزا الى يومنا هذا ، يثيران ساكن من يتلونه ولو لم يكونوا من الاتقياء العابدين .

وكان محمد يتحدى الانس والجن بان يأتوا بمثله ، وكان هذا التحدى أقوى دليل على صدق رسالته ، وهذا لا يعنى الاشارة الى قيمة أدبية خاصة فى القرآن، ما دام محمد كارها للشعراء ، وما دام هناك فرق بين وحى الله ونفث الجن ، ولا ريب فى ان كل آية منه، ولو أشارت الى أدق حادثة فى حياته الخاصة تأتيه بما يهز الروح بأسرها من المعجزة العقلية » . هـ

والكتاب الغربيون يعترفون بمكانة القرآن الفريدة سواء منهم المنصفون والمتعصبون ، فهذا المستشرق الفرنسى الكبير الاستاذ (جاستون كارمن) يكتب مسلسلة مقالات فى جريدة (فيجارو) سنة 1943 يقول فيها :

« ان القرآن وهو منبع هذا الدين العقلى ودستوره قد احتوى على أسس من امتزاج الاسس التى نشرها الاسلام ودعا اليها القرآن » . هـ

وهذا المؤرخ الانجليزى الكبير ا(ادورد جيبون) يقول عن القرآن الكريم : « ان موحدا ذا دماغ مفكر لن يتردد فى الاعتراف بفضل القرآن وعظمة نظريات الاسلام وانه لدين أعلى من تطورنا الفكرى اليوم » . هـ

وقال العالم الانجليزى الشهير (من ستنفاس) : « القرآن من أهم الكتب التى جاءت الى الناس ليفيدوا منها ، فهو سجل جامع لاسس الاخلاق والعقائد الكفيلة للناس بالتوفيق والهداية فى حياتهم » . هـ

وقال عظيم من عظماء الانجليز وهو (مانويل كنج) : « ان القرآن كتاب معجز وخليق بالاعجاب من حيث التنزيل والترتيب ، مع أن لسان القرآن مخالف للساننا وآراءه تخالف آراءنا ، ولا يمكن انكار قدره وقيمته وفضله وجماله من جهات كثيرة ، والا كان ذلك الانكار حرمانا من العقل والمنطق » . هـ

وقال المستشرق الكبير (سديو) وهو يتحدث عن العرب : « القرآن جامع لكل أسس الاخلاق والفلسفة ، فالفضيلة والرذيلة، والخير والشر، وماهية الاشياء الحقيقية كلها مهيمنة فى القرآن ، فقد أوحيت آياته الى النبى محمد بحسب احتياجات الزمان وحوادث العهد » . هـ

اما الفيلسوف الفرنسى المعروف (الكسى لوازون) فقد الف كتابا قيما

عن حياة محمد صلى الله عليه وسلم ، وحلل فيه عظمة دعوته ، واسباب نجاحه ، وقال عن القرآن الكريم : « خلف محمد للعالم كتابا هو آية البلاغة وسجل الاخلاق ، وكتاب مقدس ، وليس بين المسائل العلمية المكتشفة حديثا ، أو المكتشفات الحديثة ، مسألة تتعارض مع الاسس الاسلامية ، فالانسجام تام بين تعاليم القرآن والقوانين الطبيعية ، مع ما نبذله من المساعى للتأليف بين النصرانية وبين القوانين الطبيعية » ٠ هـ

وقال الفيلسوف الالمانى الشهير (يوحان يعقوب رايس) متعجبا من أولئك السطحيين الهامشيين الذين ينتقدون القرآن الكريم ويحاولون التنقيص منه والحط من قيمته :

« ما أن يتعلم بعض الناس قليلا من اللغة العربية حتى يقوموا بمحاولة الاستهزاء بالقرآن ، وكم استمعوا الى قدرة القرآن المثيرة ، الفصيحة المؤثرة ، واحسوا باللسان المعبر للالباب ، الذى استخدمه الرسول حين أفهم القرآن أصحابه ، لوقعوا فى الحضرة الالهية ساجدين صائحين : يا رسول الله أغثنا ولا تحرمنا من شرف الدخول فى أمتك » ٠ هـ

والحقيقة الناصعة التى يعترف بها كل مفكر متعصبا أو متجردا ، هى أن الاسلام دين الانسانية جمعاء يقوم بينها مقام الشمس فى عالم الطبيعة وأن فضله على الانسانية قاطبة لا ينكره الا من يتخبط فى ظلام الهوى وضلال السلوك وحماة الغرور والادعاء ، لان تعاليمه تتفق والفطرة البشرية فى كل زمان ومكان ٠

وقد اعترف المفكرون الغربيون بهذه الحقيقة ، وحاضروا فيها وكتبوا عنها مقالات وأبحاثا وألفوا كتبا ودراسات ضافية لا يتسع المقام هنا الا لنزر قليل جدا مما قالوه فى الموضوع :

يقول الكاتب المجرى الكبير (وامبرى) « انى أعتقد فى الحقيقة أن روح نظام المسلمين، دين الاسلام وهو الذى أحياهم والذى يتكفل لهم بالسلامة انما هو الاسلام فقط » ٠ هـ

ويقول الكاتب الكبير (برنارد شو) : « ان الرجل العالم يميل بطبعه الى الاسلام لانه دين وحيد ينظر الى أمور الدنيا والآخرة سواء » ٠ هـ

ويقول العالم اليهودى الكبير (عمانوئل دويسن) : « دخل الفنيقيون أوروبا تجارا ، واليهود قوميين ، ودخلها المسلمون حكاما وحملوا بفضل القرآن قبس العرفان الى أوروبا ، والحق ان المسلمين علموا الشرقيين والغربيين الفلسفة والطب والفلك ، وأحيوا تراث

اليونان وعلومهم الميتة . لقد كانت الدنيا محاطة ببحر من ظلمات الجهل ، فأغرقوا كل أرجائها فى النور فهم بهذا الاعتبار واضعو أساس العلوم الحديثة » ٠ هـ

ويقول البروفيسور الشهير (ارثر دروز) : « ان الاسلام هو الدين العظيم الوحيد الذى نعرف عنه باليقين ان مؤسسه محمدا ، كان شخصا عظيما له وجود تاريخى » ٠ هـ

ويقول المستر (ولز) الانجليزى : « كل دين لا يساير المدنية فى اطوارها المختلفة ، فاضرب به على الجدار ، فانه يؤدى بأصحابه الى الهلاك ، والديانة الحقة التى تساير روح المدنية انما هى الديانة الاسلامية » ٠ هـ

ولا تقل عن هذه الكلمة اهمية ووزنا كلمة العلامة (كولان) الاستاذ بجامعة السوربون اذ يقول : « وفى الحقيقة ان الاسلام دين الترقى والحضارة بدليل أن المسلمين عمروا كل موضع فتحوه ، وهم الذين نقلوا حضارة فارس الى اسبانيا » ٠ هـ

ويتعجب الكاتب الانجليزى الكبير المستر (ليونارد) من موقف الاوروبيين المعادى للاسلام والمسلمين ، وانكارهم لفضل الاسلام على العالم ويطلق صيحته تدوس فى أرجاء العالم منددا بهذا الموقف ، ومشيدا بالاسلام والمسلمين وفضلهم على أوروبا والعالم أجمع

ويقول : « لقد وصلت المدنية الاسلامية الى أعلى مستوى من العظمة ، عمرانية كانت أو علمية ، حتى ليرجع اليها الفضل فى بعث المجتمع الاوروبى وهدايته الى طريق الخلاص من الانحطاط والاندثار » ٠ هـ

ثم قال الكاتب العظيم (ليونارد) : « ألم يحق أن نعترف ــ نحن الذين بلغنا أعلى قمم الحضارة كما نزعم ــ بأنه لولا التهذيب الاسلامى ومدنية المسلمين وعلومهم وثقافتهم وعظمتهم وحسن نظام جامعاتهم لولا هذا كله لبقيت أوروبا تتخبط فى ظلام بهيم » ٠

☆ ☆ ☆

هكذا صور قادة الفكر الغربى عظمة الرجل الذى وحد العالم ، وأرسى فيه قواعد المحبة ، والوئام ، والعدل ، والسلام ، وجعل للحياة قيمة وشأنا وغاية

ويروعنا أن تنبعث هذه الصور الرائعة من أماكن متباعدة ، وتبدعها عقول متباينة وأقلام مختلفة ٠٠٠ انها لصيحات من لندن وباريس ونيويورك وموسكو وغيرها تعترف لشمس الاسلام بعلوها ونورها وفضلها على العالم أجمع ٠

وبقدر اعجابنا بهؤلاء العباقرة المنصفين ، واعتزازنا بآرائهم وأقوالهم

فى الاسلام ونبيه وقرآنه ، تتقطع قلوبنا آسى وألمـــا وحسرة مــن المنتسبين الى الاسلام ، والى محمد والقرآن ، وهم فى واقع الامر أعداء الاسلام وأعداء نبيه وقرآنه ، بسلوكهم وأخلاقهم ، وتصرفهم حتى قال الكاتب الكبير (برنارد شو) :

« ان الاسلام شىء والمسلمين شىء آخر، الاسلام حسن، ولكن أين المسلمون »٠ هـ

بل هناك ممن يحسبون مسلمون مــن يطعنون فى الاســـلام والقــرآن ونبى الاسلام محمـــد صلى الله عليه وسلم ، ويجاهرون بالتنكر للحضارة القرآنيـــة والمدنية المحمدية ، ويسعون جاهدين فى تشويه الاسلام ٠

فليخجل هؤلاء وليتواروا فى المغـاور والكهوف وأحراش الغاب ، الى أن يفيقوا من غفلتهم ، ويقلعوا عن غيهم ، ويدركوا الحق حقا ، والباطل باطلا فعندئذ فقط سوف يعيشون فى عــز الاسلام الــذى لا عز بدونه ولا حياة بغيره ، ولا رقى الا به ، ولا نجاح الا فى ظله ٠

والكلمة التى نود أن ننهى بها هذه الاحاديث هى ان الاسلام كحقيقة فخمة كبرى لا عيب عليه اذا تنكر له بعض المنتسبين اليه ، أو انصرف عنه الجاهلون بقيمته، وانما العيب فيمن تنكر له وفيمن انصرف عنه ٠

نظـرة محمد (صلى الله عليه وسلم) الى المـــرأة

عبد الرحمن الجيلالي

لم يكد يصدر قرار مجتمع (ماكون) المنعقد بارض فرانسا سنة 586 م للبحث فى شأن المرأة هل هي انسان أم شيء آخر ؟ أم هي ماذا ؟ ! حتى كان أن قـد دوى صوت محمد صلى الله عليه وسلم صارخا فى العالم أجمع : « انما النساء شقائق الرجال » ٠

وفى القرن السابع الميلادى ـ الاول الهجرى ـ عقد مؤتمر عام فى رومـا للبحث كذلك فى شؤون المرأة ٠٠٠ وبعد مناقشة طويلة وجدال عنيف قـــرر المؤتمر انهـا كائـن حي لا نفس له ! وعلى هذا الاساس قـرر المؤتـمـرون حرمانها من أكل اللحم وحتى عـــن الضحك والكلام ! وان ليس للمرأة الحق لان ترث الحياة الآخرة ٠٠٠ بل انهـــا رجس ! ٠٠٠ وبينما الامر كان على هذا فى أوروبا اذ كان صلى الله عليه وسلم ينظر الى المرأة كشيء مقدس تبلغ قدسيته الى حد التعوذ به من الشيطان الرجيم ٠

فانه عليه الصلاة والسلام لقى يومـا فتى من أصحابه فكان هو معاذ بن جبل ، فسأله ، ألك زوجة يا معاذ ؟ ٠٠ فأجابـه معاذ بقوله كلا يا رسول الله ، فقال لـه عليه السلام : انك اذن مـــن اخـــوان الشياطين ! ٠٠٠ وكأنه يعنى بذلك عليـه الصلاة والسلام : انه كان من الواجب عليك يا معاذ أن تتعوذ من الشيطـــان الرجيم بامرأة تتزوجها ، فـالمـرأة هي التعويذة من الشيطان ٠ ومن تزوج كما قال عليه الصلاة والسلام فقد امتلـــك شطر دينه ٠٠٠

ومعلوم ان محمدا نشأ صبيا وطفلا يتيما فتولت حضانته فتاة حبشية اسمها بركة وتكنى بأم أيمن ، فعكفت هـــذه الفتاة على تربيته وحضانته حتى بلـغ

الخامسة والعشرين من عمره فكان قرير العين بما كان يشعر به فى حال حضانتها له من العطف والحنان والعناية بشؤون الطفولة ، فشعر من ذلك الحين بأول وظيفة من وظائف المرأة فى هذا الوجود · ثم شاءت العناية الربانية أن تنقل محمدا صلى الله عليه وسلم الى العيش بالقرب من أشرف امرأة فى قريش ، فتزوج خديجة بنت خويلد ، وهنا طبعا لم يبق ذلك الشاب الذى هو فى حضانة فتاة مكرمة عنده بل أصبح ذلك الرجل الشاب الذى تحبه امرأة ويحبها · ثم ماتت خديجة رضي الله عنها فشاء أبو بكر أكبر صحابة محمد أن يتشرف بمصاهرته فزوجه ابنته عائشة رضي الله عنها ، ولم تكن عائشة زوجة فقط ، بل وتلميذة أيضا تحفظ وتنقل عنه تعاليم دينه الكريم ، وهذا هو الطور الثالث من أطوار حياة محمد مع المرأة :

بركة الحبشية كحاضنة تسهر عليه فى طفولته ، وخديجة الكبرى كزوجة تحوطه وتشجعه فى شبيبته ، وعائشة الصديقة بنت الصديق تسره زوجة وتكون تلميذة له فى كهولته ومساعدة له فى غزواته وجهاده ·

قال أنس : اننى فى وقعة احد رايت زوجة النبى صلى الله عليه وسلم عائشة ومعها ام سليم مشمرتين أرى خلاخيلهما وهما تقفزان قفزا وعلى ظهورهما قرب الماء تفرغانها فى افواه العطاش ثم ترجعان فتملآنها ثم تجيئان فتفرغانها فى أفواههم ·

فهذا محمد كما نرى قد اختبر المرأة فى جميع أطوار حياته وامتزجت عاطفته بعاطفتها طفلا وشابا وكهلا ··· وكان لها من التاثير فى حياته كلها ما جعله يرفع من شأنها ويعلى منزلتها ويعلن حريتها الى أن جعلها أو كاد يجعلها فى رتبة أو نقول فى صفوف الابرار المقدسين ، أليس هو القائل : « الجنة تحت أقدام الامهات » ؟ ·· والمرأة من حيث هي امرأة ، فهي بالقوة أو بالفعل أم أو فى حكم الام · فهي على كل حال مصدر للامومة ، ومن كان حريصا على دخول الجنة فليعلم وان الجنة هي تحت قدم هذه المرأة ــ الام ــ ·

وكأن محمدا صلى الله عليه وسلم أراد بتكريم المرأة ورفع شأنها فى عيون الرجال على هذه الصورة افهامهم ان النهضة الصحيحة انما تقوم على سواعد الجنسين : الرجل والمرأة ، وذلك هو شأن ما شاهده التاريخ عبر العصور وشاهدناه نحن بانفسنا لا سيما فى حرب التحرير هذه (1954 ــ 1962) ·

ولما رأى النساء العربيات هذه النهضة التى نهضها محمد ، وهذه المنزلة التى رفع المرأة اليها محمد اغتبطن بها وسررن به ونشطن الى الاستزادة من التطلع الى معرفة تعاليمه ومبادئه التى هي نبراس خطته فى الحياة، فكن يعقدن لذلك اجتماعات ويبعثن من

ينوب عنهن من النساء لرفع مطالبهن الى النبى صلى الله عليه وسلم ٠

فرفعنها يوما بواسطة امرأة منتخبة من بينهن وكانت تلك المرأة يومئذ هي أسماء بنت يزيد الانصارية ، وكان يقال لها : خطيبة النساء ٠ فجاءت الى الرسول صلى الله عليه وسلم فقالت : انى رسول من ورائى من جماعة النساء وكلهن يقلن بقولى وعلى مثل رأيى ، ثم عرضت عليه مطالب النساء اللواتى ارسلنها ، فأجابها عليه السلام بما اقر عينها ويرضيهن ، وأعلن سروره بحديثها واعجابه بجراءتها والتفت الى من كان حوله من الصحابة رضي الله تعالى عنهم قائلا : هل سمعتم مقالة امرأة احسن سؤالا عن دينها من هذه المرأة ؟ ٠٠٠

وكان محمد يحب أن لا يستبد أحد على امرأة فى أمر زواجها ، فهو يعطى الحق فى أن تتزوج المرأة من تختاره ويطيب لها العيش معه ، بشرط أن لا يحط هذا الزواج من كرامتها وكرامة أسرتها وعشيرتها ٠ وهذا ما يعبر عنه الفقه الاسلامى فى اختيار الزوج باسم الكفاءة وذلك حرصا منه على سلامة الاسرة وحفظ كيانها ٠ فقال عليه الصلاة والسلام : الايم أحق بنفسها من وليها ، والبكر تستأذن فى نفسها ، ولما كان الخفر والحياء يغلبان على الابكار بالخصوص قال فى شأن البكر : واذنها صماتها ، وذلك اتماما لصونها وإبقاء لاستحيائها رواه مالك فى الموطأ ومسلم وأخرجه الشافعى وأحمد واصحاب السنن كلهم من طريق مالك ٠

وهذا الحديث يدل على شدة تأثر عواطفه وشعوره صلى الله عليه وسلم بحساسية المرأة ٠ ولقد رد زواج الخنساء بنت خذام الانصارية حين زوجها ابوها برجل لا رغبة لها فى التزوج به ، وكانت ثيبا ، فأمر عليه السلام اباهـا بأن يلحقها بهواها ففعل ، وتزوجت بأبى لبابة بن عبد المنذر فأنجبت ولده السائب ٠ فانظر يا هذا نظرة محمد الى المرأة فى القرن السابع الميلادى فى حال ان هذا الحق لم تنله المرأة فى أوروبا الا فى القرن السادس عشر ! ٠

وهذه بريرة وهي جارية حبشية تزوجت بعبد من عبيد المغيرة ــ مرغمة ــ فاشفقت عليها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فاشترتها وأعتقتها فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم اذن « ملكت فاختارى » فرفضت زواجها بالعبد وأعرضت عنه وقد تمكن حبها من قلبه ، فصار يطوف بسكك المدينة يمشى وراء بريرة ودموعه تنحدر على وجنتيه والناس ينظرون اليه وهي منصرفة عنه كل الانصراف ٠٠٠ فكلمها النبى صلى الله عليه وسلم فى شأن زوجها فقالت : أتأمرنى أمرا يا رسول الله ؟ ٠٠ فقال لا ٠ وانما انا شفيع فقالت : اذن لا حاجة لى فيه ٠ فلم يعارضها عليه السلام فى استعمال

حريتها ولم يرغمها علي الرضى بزوجها بعد تحررها من الرق على يد عائشة ٠

كما انه كان عليه الصلاة والسلام يرى أحقية مشاركة المرأة فى الاشتغال بتسيير شؤونها ومصالحها الخاصة بها فأعطاها حق القيام على ثروتها وتعهدها فى استثمارها فلها الحق فى التمتع بالالتزامات المالية مثل التجارة والاقالة والخيار والصرف والشفعة والاجارة والرهن والقسمة والوكالة والكفالة والصلح والشركة والمضاربة والوديعة والوقف وغير ذلك مما هو مبسوط فى كتب الشريعة ٠٠٠

كما أعطاها حق المشاركة للرجال فى المصالح العامة ـ داخل اطارها الطبيعى الخاص ـ وكان أهم تلك المصالح يومئذ تأييد الدعوة الاسلامية ومقاومة المعارضين للدعوة والتسابق للخير ، فكان للمرأة المساعى الحسنة فى هذا السبيل ٠

وقد توفرت طائفة من نساء الصحابة رضي الله عنهم على مرافقة الجيش لمعالجة الجرحى ومداواة المرضى وخدمة المحاربين ، وكانت من بين هذا الرعيل ليلى الغفارية وأم عطية ، وأم سنان ، وكعيبة بنت سعد الاسلمية ، وأم سليم، وأم المؤمنين عائشة ، ورفيدة الاسلمية التى كانت خيمتها ملجأ للعجزة والبائسين ومستشفى عسكريا فى أيام الحرب ، وقد بوب البخارى فى كتاب المغازى بابا ذكر فيه مداواة النساء للجرحى فى الغزو ٠٠٠ هكذا كان أمر المرأة فى صدر الاسلام بينما كانت أول طبيبة أمريكية فِي العالم هي اليزابيت بلاكول (1821 ـ 1910 م) ٠

وأيضا كان فيما نظر فيه عليه السلام من الحقوق الثابتة للمرأة ان أعطاها حق حرمة استجارة المحاربين من المشركين والكفار وهو حق سياسى محض كما نرى فقبل اجارة أم هانى بنت عمه أبى طالب حين استجار بها مشركان محاربان كانا حموين لها ، فاستجارا بها فأجارتهما فغضب لذلك أخوها على بن أبى طالب وعزم على قتلهما وقال لها : أتجيرين المشركين ؟! ٠ فبلغ الامر الى النبى صلى الله عليه وسلم فأجاز استجارتها وقال لها : قد أجرنا من أجرت وأمنا من أمنت يا أم هانىء ٠ وأصبح بذلك تأمين المحارب الكافر حقا للمرأة كما هو حق للرجل ، ووقع على ذلك الاجماع ، ولم يكن ليعد صلى الله عيه وسلم ذلك من المرأة تدخلا منها فى السياسة أو فضولا خارجا عن اللياقة ، ولم يقل لها ان هذا ليس من شأنك وانما عليك بالطبخ أو الزينة وتربية الاطفال فقط ، لم يقل هذا ٠

قالت أم سنان لما أراد النبى صلى الله عليه وسلم الذهاب الى خيبر جئته فقلت له : أأخرج معك فى سفرك هذا أخرز السقاء وأداوى المريض والجريح وأحافظ على الرجال ؟ ٠ فقال لها : اخرجى على بركة الله فان لك صواحب

سألنني الخروج معى فاذنت لهن فكونى مع زوجتى أم سلمة ٠

ومع ذلك فانه صلى الله عليه وسلم كان فى الوقت نفسه يعجبه من المرأة ان لا تنسى أنوثتها وان لا تهجر وظيفتها التى خلقت لها وان لا تغفل عما خصتها الطبيعة والخلقة الالهية به وما خص به الرجل كذلك من الفوارق الكثيرة العديدة ٠٠٠ فلا تنسى أولا وبالذات تربية البنين والبنات وادارة المنزل وان لا تعطل أمومتها وزينتها لزوجها ، حتى انه كان يكره أن لا يرى أثر الخضاب فى كفى امرأة ، وكان الخضاب أجمل زينة النساء فى العصور الماضية ٠

يروى أنه نظر يوما الى يدي أم سنان فرآها عاطلتين عن الخضاب فقال : ما على احداكن أن تغير أظفارها وتعصب يدها ولو بسير ٠ فهنا نراه عليه السلام يحض المرأة على الخضاب وأن يكون فى معصمها سوار ولو من جلد ٠

وعرف محمد نفسية المرأة وغرائزها الخاصة بجنسها اللطيف ، فكان يعاملها بمقتضى ما عرفه منها ، فيكثر من تأنيسها والرفق بها والانة القول لها فكثيرا ما كان يخرج معه نساءه عليه السلام فيسافرن معه ، وكن اذا أرادت احداهن الركوب بسط لها ركبته تدوس عليها وتصعد الى هودجها ، واذا كان معها فى فلاة سابقها أشواطا للرياضة ولادخال السرور عليها ٠ وادخل الحبشة يوم العيد الى المسجد لترى زوجته لعبهم بالسيف والترس والحراب ٠

وكان صلى الله عليه وسلم يكرم حاضنته بركة الحبشية ويمازحها أحيانا، فطلبت منه يوما جملا تركبه فقال لها : انا أحملك على ولد الناقة ، فصاحت ! ٠٠ ويلك ما أصنع بولد الناقة ؟ ! ٠٠ وهل يطيق أن يحملنى ؟ ٠٠ أريد جملا ٠ فضحك الصحابة رضوان الله عليهم وقالوا لها : ويحك بركة ! ٠٠ وهل الجمل الا ابن الناقة ؟ ! ٠٠

ورأى فى صبيحة يوم نساء مقبلات من عرس ومعهن صبانهن فوقف عليهن وهتف قائلا : اللهم انتم من أحب الناس الي ، قالها مرتين ٠ وهو القائل عليه السلام : « حبب الي من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة» ٠ هكذا قال حبب الي ولم يقل أحببت وفى هذا دليل على أنه مجبور على حب ما ذكر من أصل الخلقة ، فهو بالنسبة له أمر طبيعى وغريزى لا يد له فيه ، وصدق الله العظيم اذ يقول فى شأنه : « **وانك لعلى خلق عظيم** » ٠

أخى القارىء ! نعم محمد يحب النساء ، يحبهن بما يترتب على حبهن من كثرة التناسل ، ويحبهن لانهن يساعدن الرجال فى النهضات الكبرى كما ساعدته خديجة فى نهضته ضد الظلم والطغيان والكفران والشرك وعبادة الاصنام والاوثان ، ويحبهن لمشاركتهن

فى المعارك الحربية كما شاركته فى ذلك عائشة ورفيدة وأم عطية وأم سليم وأم سنان وغيرهن فى تأييد الدعوة الاسلامية، ويحبهن لينشرن الثقافة والعلم بين عالم النسوة وعالم الرجال ان اقتضى الحال كما فعلت عائشة وغيرها من الصحابيات منذ حملن ثقافته العالية وبلغن عنه شريعته ٠

وهكذا ينبغى أن تكون المرأة المسلمة اذا ارادت أن تكون حقا محبة محبوبة حبا طاهرا شريفا فلتقم بواجب الامومة الذى خلقت له أولا وبالذات وبمساعدة النهضات القومية والمشاركة الفعالة فى رد العدوان اذا ما ظهر الخطر على الوطن ، وذلك دائما فى دائرة حدودها الطبيعية والشرعية وتسعى فى نشر الاخلاق الفاضلة والتعاليم السامية الطاهرة بين أبنائها وجميع أفراد أسرتها محافظة على وقارها وعفافها مرتدية بلباس الحشمة والحياء فلا تبرج ولا تفرنج ٠٠٠ وهذا النوع من النساء هو الذى أحبه النبى صلى الله عليه وسلم وحبب اليه وأوصى به فى خطبته الاخيرة فى حجة الوداع اذ قال : فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيرا ٠

هكذا كان نظره صلى الله عليه وسلم الى المرأة ، وهكذا كان يحبها أن تكون ، وذلك منذ أربعة عشر قرنا بينما كانت المرأة عند مدعى التقدم والرقى بأوروبا الى حدود سنة 1882 م محرم من حقها الكامل فى ملك العقار وحرية المقاضاة ، بل بلغت الفطنة ولطافة الحس والذكاء عند نابليون ــ وهو مشرع القانون ــ فروى عنه انه قال : « لا قيمة للنساء » !! ٠٠٠

وقد اعترف المستشرق الفرنسى « أندرى سرفى » بفضل محمد على المرأة فى التاريخ ، فقال فى كتابه (الاسلام ونفسية المسلمين) : لا يتحدث هذا النبى عن المرأة الا فى لطف وأدب ٠٠٠ كان يجتهد دائما فى تحسين حالها ورفع مستوى حياتها ٠٠٠ لقد كان النساء قبله لا يرثون ، بل كانوا متاعا يورث لاقرب الرجال ، وكأنهم مال أو رقيق ، وعندما جاء الرسول قلب هذه الاوضاع فحرر المرأة وأعطاها حق الارث ٠٠٠ ثم ختم كلمته قائلا :

« لقد حرر محمد المرأة ، ومن أراد التحقيق بعناية هذا النبى بها فليقرأ خطبته فى مكة التى أوصى فيها بالنساء خيرا ، وليقرأ أحاديثه المختلفة ٠٠٠ ما أصدق هذا القول ! ٠٠ وما أكثر دفاع النبى عن المرأة وحقوقها ٠٠٠

ويقول (م٠ ريفيل) : « اننا لو رجعنا الى زمن هذا النبى لما وجدنا عملا أفاد النساء أكثر مما فعله هذا الرسول ، فالنساء مدينات لنبيهن بأمور كثيرة رفعت مكانتهن بين الناس » ٠

مميـزات التربيـة الاسلاميـة

الاستاذ محمد ناصر بوحجام

بسم اللـه الرحمـن الرحيـم

يقول الشيخ أبو الحسن الندوى :
« التربية وسيلة مهذبة راقية لدعـم العقيدة ، ونقلها سليمة الى الاجيـال القادمة ، وأفضل تفسير لنظام التربية : انها السعي الحثيث المتواصـل مـن قبل الآباء والمربين لتنشئة أبنائهم على الايمان والعقيدة التى يؤمنون بها ، والنظرة التى ينظرون الى الحياة والكون من خلالها ، ليكونوا ورثة صالحيـن للتراث الذى ورثه هؤلاء الآباء عـن الاجداد مع الصلاحية الكافية للنهوض والتطور والتقدم » (1) ٠

ويقول الاستاذ سليمان الشواشى :
« ان النظام التربوى لأي أمة من الامـم مـرآة عاكسـة للاهـداف التى تسعى لتحقيقها ، والقيم التى تؤمن بها ، والمثل العليا التى تصبو اليها ، وبالتالى فمناهج التربية فى أي بلد من البلـدان تعطينا فكرة واضحة عن حياة الامة ، وأسلوب عيشها ٠ وهي فى النهاية تبرز لنـا بوضوح مقومات حضارتنا وخصائصها التى انفردت بها » (2) ٠

ان التربية هي وسيلة راقية لغـرس العقيدة فى النفوس وتثبيت الايمـان فى القلوب ، وامتلاك زمام الامور ، وهي

---

(1) مجلة منار الاسلام العدد الثانى ، السنة الثالثة ، ص 93 ٠

(2) مجلة العلم والتعليم العدد 23 ، السنة 3 ، ص 24 ٠

السبيل الوحيد لفرض الوجود ، وانتقال التجارب وضمان الاستمرارية ٠

والتربية ووسائلها هي المفاتيح التى تفتح بها القلوب والنفوس ، من امتلك هذه المفاتيح استطاع أن ينتصر ، وتمكن من نشر افكاره وبث وعيه ٠

وان النظام التربوى لاي أمة هو الذى يعكس آمالها والاهداف التى تبغى الوصول اليها ، والتربية تجعل الفرد ينظر الى الكون والاشياء من حوله النظرة التى تتفق والمبادىء التى يصدر عنها ٠

اذا كانت التربية تحمل هذه المفاهيم وتعنى هذه الدلالات التى اشار اليها بعض المفكرين ، فلنحاول أن نتعرف على خصائص ومميزات التربية الاسلامية ٠ هذه التربية التى انتجت رجالا ، وانشأت حضارة ، وانارت الدروب للسالكين ، وبينت النهج القويم الذى يضمن النجاة والسلامة بعد ما ساد العالم ظلم واستعباد وفوضى ٠

هذه التربية التى استطاعت أن تكون الانسان الصالح بدل المواطن الصالح ـ كما يقول الاستاذ محمد قطب ـ بعد ما ثبتت فيه دعائم الايمان ، وأوجدت فيه ارادة صلبة متماسكة بها يستطيع الصمود أمام الاعاصير المهلكة والتيارات الجارفة ٠ وبعد ما حملته على التحلى بالاخلاق الفاضلة هذه التربية التى انشأت مجتمعا متضامنا متعاونا متآزرا، يسود فيه العدل والانصاف ، وتغشاه الفضيلة وحب الخير ٠

نحاول أن نتعرف على ميزات التربية الاسلامية حتى نعرف ما اذا كانت التربية التى نمارسها فى مدارسنا وبيوتنا وفى المؤسسات ، وعلى مستوى أجهزة الاعلام ، ودور النشر وغيرها ، تتطابق مع هذه الخصائص أم تخالفها، حتى تضمن السير فى النهج الذى يوصلنا الى الهدف المنشود ٠٠٠

وأريد أن أشير منذ البداية الى أن هذه الخصائص التى سأذكرها ، ليست هي كل الخصائص التى تمتاز بها التربية الاسلامية ، وهذه المميزات هي ما أشار اليها بعض المفكرين ، وليس لنا فيها سوى فضل الجمع والتنسيق فقط ٠

مميزات التربية الاسلامية :

1) عنيت بطاقة الانسان الروحية ، ففجرتها ، فمنحت بذلك الفرصة للانسان المسلم ، كي يتصل بربه خالق الكون ويتعرف على حقيقة الخلود الابدى فى الآخرة ، ويعى حقيقة الوجود الازلى، وجعلته يسيطر على نفسه ، وعلى ما خلق الله ، وساعدته على التحرر من قيود المادة ٠ هذه الطاقة المتفجرة أثبتت وجوده الانسانى فى هذه الحياة رغم كل الضغوط ، وكما قال أحد المربين ، لقد استطاعت التربية الاسلامية أن

تفجر طاقة الانسان الروحية ، وهذا أهم وأخطر من تفجير الطاقة المادية (3) ·

2) عنيت بطاقة الانسان العقليـــة ، فحررت عقل الانسان المسلم من السحر والخرافة والشعوذة ، وهذا ما لمسناه فى بداية الدعوة الاسلامية من تحريـم عبادة الاصنام والاوثـان والاستقسام بالازلام ، وزجر الطير ، والاستماع الى هراء السحرة وتعاويذهم ·

ذهبت التربية الاسلامية الى أبعـد من ذلك حين أطلقت العنان للعقل البشرى كي يتدبر فى آيات اللـه ومخلوقاتـه ليستخرج مكنونات أسرار الخلق ، ويقف على حكم الله الكثيرة فى خلقه ، وتردد مثل هذا فى القرآن كثيرا ، لعلكـم تعقلون ، لعلكم تفقهون ، لعلكم تتفكرون، **« ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الالباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا ، وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات الارض ربنا ما خلقت هذا باطلا ··· » (4) ·**

3) عنيت بالتربية الجسمية ، فالمسلـم القوي خير وأحب الى الله من المسلـــم الضعيـف ·

هكذا أقبل المسلمـون منـذ أول عهد على تدريب أولادهم على السباحـــة والرماية ، وركوب الخيل ورفع الاثقال، وعلى تحمل المشـاق والتعـود عـلى خشونة العيش ، كما كانت التربيـــة الاسلامية تلزم المسلمين باتباع قواعـد النظافة والنظام فى الطعام والملبـس والمنام الخ ···

بهذا التوجيـه السديـد اسـتطاع المسلمون أن يبزوا غيرهم فى صناعـة الاجسام ، واستطاعوا بعدها أن يقهروا العتاة ، وينتصروا على أعدائهـم فى اغلب المعارك التى خاضوها مع قلـة عددهم وعدتهم حتى وقف أعداؤهـم مندهشين متسائلين عن مصدر هـذه القوة وهذا البأس ، لكن سرعان ما زالت حيرتهم ودهشتهم حين عرفوا أنهـا التربية الاسلامية أحسنت وأكملت بنـاء وتنشئة الانسان السوي والانسان الصالح كما يقول الاستاذ عدنان سعد الدين ·

4) عنيت التربية الاسلامية بالتوازن فى تكوين الانسان المسلم ، هادفة الى تربية متكاملة ، لا يطغى فيها جانب على آخر · حاولت تربية الجسم والروح معـا ·

وازنـت بيـن متطلبـات الانسـان الدنيوية والاخروية فى آن واحد « **وابتغ**

---

(3) مجلة منار الاسلام ، العدد الثانى ، السنة الثالثة ، ص 94 ·

(4) سورة آل عمران ، آية 191 ·

(5) سورة القصص ، آية 77 ·

فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا » (5) .

وازنت بين خوفه ورجائه « **يرجون رحمته ويخافون عذابه » (6) .**

وازنت بين حبه وغضبه « أحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغضك يوما ما ، وابغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما » .

وازنت بين فرحه وحزنه : « **لكيلا لا تاسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » (7) .**

يقول الاستاذ عدنان سعد الدين : « هذا التوازن الدقيق الذى تهدف التربية الاسلامية الى ملاحظته ومراعاته فى التعليم والتوجيه ، وتكوين الشخصية المسلمة السوية ، بحيث ينتفى هذا الخلل الذى ينتاب كثيرا من الناس فى طغيان جانب فى حياتهم على حساب الجانب الآخر » (8) .

5) عنيت التربية الاسلامية بتنمية الملكات والفضائل ، يقول الشيخ البشير الابراهيمى : « يعتبر المسلم تلميذا ملازما فى مدرسة الحياة ، دائما فيها ، دائبا عليها ، يتلقى ما تقتضيه طبيعته من نقص وكمال ، وما تقتضيه طبيعتها من خير وشر ، ومن ثم فان الاسلام يأخذه أخذ المربى فى مزيج من الرفق والعنف بامتحانات دورية متكررة ، لا يخرج من امتحان فيها الا ليدخل فى امتحان آخر وفى هذه الامتحانات من الفوائد ما لا يوجد فى الامتحانات المعروفة ... » (9) .

هذه الامتحانات تظهر فى الشعائر التى فرضها الله على عباده ، وفى التكاليف التى يظنها الجاهل لحكمة الخلق ضروبا من التعبد الفارغ الذى لا طائل وراءه ، ولكنها فى حقيقة أمرها وسائل لتنمية ملكة الاقدام على الخير والرحمة والاقلاع عن الشر وترويض النفس على الفضائل الشاقة لتتعود على الصبر والثبات والعزم والنظام والتحرر من استعباد الشهوات الحيوانية . ولناخذ كمثال على ذلك فريضة الصيام .

يقول الشيخ البشير الابراهيمى : « صوم رمضان محك للارادات النفسية، وقمع للشهوات الجسمية ورمز للتعبد فى صورته العليا ، ورياضة شاقة على هجر اللذائذ والطيبات ، وتدريب منظم على حمل المكروه من جوع وعطش وسكوت ، ودرس مفيد فى سياسة المرء لنفسه ، وتحكمه فى أهوائها وضبطه بالجهد لنوازع الهزل ، والعبث فيها ، وتربية عملية لخلق الرحمة بالعاجز المعدم ، فلولا الصوم لما ذاق الاغنياء

---

(7) سورة الحديد ، آية 22 .
(8) مجلة منار الاسلام ، العدد الثانى ، السنة الثالثة ، ص 97 .
(9) جريدة الشعب ، عدد 4591 .

الواجدون ألم الجوع ، ولما تصـــوروا ما يفعله الجوع بالجائعين ··· فلو أن جائعا ظل وبات على الطوى خمسا ووقف خمسا أخرى يصور للاغنيـــــاء ما فعل الجوع بأمعائه وأعصابه ، وكانت حاله أبلغ فى التعبير من مقاله ، ما بلغ فى التاثير ما تبلغه جوعة واحـــدة فى نفس غني مترف ، لذلك كان نبينا امام الانبياء وسيد الحكماء أجود ما يكـــون فى رمضـــان » (I5) ·

(I5) جريدة الشعب ، عدد 459I

الاسس الدينيـة للبيعـة
فى الاســلام

د٠ عبد اللطيف عبـادة

بسـم اللـه الرحمـن الرحيـم

مقدمة : لعل البعض يستغربون هذا العنوان لانه يتكلم عن الاسس الدينية للبيعة فى الاسلام ولم يتكلم عن أسس البيعة على الاطلاق ٠ وكان مرادنا بهذا العنوان أن نبرز أن للبيعة أسسا دينية فى الكتاب والسنة والاجماع وهى كما نعلم جميعا المصادر الرئيسية للتشريع فى الاسـلام ، ونـرمى فى النهـاية الى التأكيد على كون العقد الذى يربط الحاكم بالمحكوم فى الاسلام هو فعل تعبدى قبل أن يكون اجتماعيا ٠ لذلك كان جديرا بأن يحظى برضى الله كما هو الحـال بالنسبة لبيعة الرضوان مثلا وكان جديرا بأن يحظى بدعمه وتأييده ٠ وهذا ان دل على شىء فانما يدل على أن الدولـة الاسلامية ليست دولة لائكية كما يذهب الى ذلـك عـلى عبد الـرزاق وبعض المستشرقين ٠

تعريف البيعة وأنواعها :

ان القرآن وان نص عـلى البيعة أو المبايعة فى منطوق آياته وان السنة وان طبقت عمليا عملية البيعة فى عهـد الرسول (ص) فهما لم يعطيا الحق للامة فى اختيار حاكمها الاعلى المشرف عـلى جميع سلطات التنفيذ وهو الخليفـة أو الامام بنص الزامى صريح ، بل يتبين هذا الحق مما استقر عليه الاجماع فى عهد الخلفاء الاربعة الراشدين. ولا يخفى على أحد أن الشريعة الاسلامية لا تستمد من الكتاب والسنة فحسب ، بل تستمد كذلك من مصادر أخرى نذكر من بينها الاجماع ٠

فما هى البيعة يا ترى ؟ :

البيعة هى العهد على الطاعة طبقا لامر الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز **« يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الامر منكم ، فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول، ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تاويلا » .**

ان المبايع يعاهد اميره على حد تعبير ابن خلدون على أن يسلم له النظر فى أمر نفسه وأمور المسلمين ، لا ينازعه فى شىء من ذلك ، ويطيعه فيما يكلفه به من الامر على المنشط والمكره .

وكان المسلمون اذا بايعوا اميرهم او خليفتهم وعقدوا عهده وضعوا أيديهم فى يده كما يفعل المصافح تاكيدا للعهد وتوثيقا لعقد البيعة كما يفعل البائع والمشترى . ونظرا لعلاقة الشبه هاته سمى العقد أو العهد بيعة ، مصدر باع وصارت البيعة مصافحة بالايدى (1) ، ويمكن تلخيص عناصر هذا التعريف فى الآتى :

1 البيعة عقد أو عهد ولكل عقد شروط وأركان .

2 ـ للبيعة طرفان يقابلان البائع والمشترى فى عملية البيع وهما الامير والمبايع .

3 ـ فى البيعة مضمونان : أحدهما يتعهد به الامير والآخر يتعهد به المبايع .

4 ـ الشكل الذى تتم به المبايعة وهو المصافحة التى ترمز الى توثيق العهد .

5 ـ من يبايع ؟ هل هم أهل الحل والعقد كلهم أم بعضهم أم جمهور الناس ؟

ومهما يكن أسلوب تعيين او ترشيح الامام فانه يرتبط بالامة بمبايعة مزدوجة والمبايعة عقد ويمكن تعريفها بغايتها الا وهى الارادة المشتركة فى طاعة الله ورسوله . ومثل كل عقد فانها تفترض وجود طرفين : الامام وأهل الحل والعقد وهم الفقهاء وأهل العلم والسيادة فى القوم وأصحاب الشوكة والتجربة والحنكة ويضيف اليهم هنرى لاوست على خطا أهل الثراء (2) .

---

(1) عبد الرحمن ابن خلدون ، المقدمة ، ط 2 دار الكتاب اللبنانى ـ بيروت 1961 ص : 370 .

(2) Henri Laoust : *Les Schismes dans l'Islam*. SNED, Alger 1979, p. 435.

ان المبايعة كغيرها من العقود يجب أن تترجم لدى الطرفين بفوائد مشتركة• ذلك أنها تعطى الامام قوة فعلية بدونها ستكون سلطته عديمة المفعول وتعطى بقية افراد الامة السلم وسائر الضمانات القانونية (3) •

ان الخلافة أو الامامة العظمى هي عقد أو عهد ـ عقد التزام ـ عقد ارتباط مبنى لا على القانون الطبيعي بل على القانون الشرعي الالهي ، يستلهم مثله الاعلى من بيعة العقبة الثانية التي تمت بين الرسول (ص) و 73 رجلا وامرأتين من الانصار ، نواة الامة الاسلامية المقبلة •

وان الطرفين المتعاقدين هما الامة الاسلامية من جهة التي يمثلها أهل الحل والعقد ومن جهة أخرى الخليفة المقبل ممثل الرسول (ص) الذى أرسل من عند الله ، وكل عقد في الفقه الاسلامي مبنى على شروط وأركان • أما الشرط فيتمثل بالنسبة للبيعة في قدرة الطرفين المتعاقدين وأما الركن فينبني عبر ثلاث مراحل : تعيين الخليفة المقبل أو ترشيحه ـ العرض والقبول ـ انجاز العقد والمبايعة ، أما الشروط التي ينبغي أن تتوفر في الخليفة وفي أهل الحل والعقد الذين يختارونه فسنشير اليها باختصار فيما بعد (4) •

ومن أنواع البيعة بيعة النبي (ص) وبيعة الخلفاء الراشدين ومنه أيمان البيعة • كان الخلفاء يستحلفون على العهد ويستوعبون الايمان كلها لذلك ، فسمى هذا الاستيعاب أيمان البيعة ، وكان الاكراه فيها أكثر وأغلب كما يصرح بذلك ابن خلدون • ولهذا لما أفتى مالك (ض) بسقوط يمين الاكراه أنكرها الولاة عليه لانهم رأوها قادمة في ايمان البيعة ، ووقع ما وقع من محنة الامام مالك (5) مع أبي جعفر المنصور (6) •

ذكر البيعة في القرآن :

كانت بيعة الرضوان جديرة بأن تفوز برضى الله وتأييده • لذلك قال المولى عز وجل فيها وفي حق المؤمنين الصادقين

(3) Ibid., p. 435.

(4) Louis Gardef : *La cité musulmane : vie sociale et politique.* 4e édition, Vrin, Paris 1979, p. 167.

(5) عبد الرحمن بن خلدون • المرجع السابق • ص 370 •

(6) Henri Laoust, op. cit., p. 88.

الذين بايعوا الرسول(ص) تحت الشجرة : **« لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فانزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا » (7).**

وقال سبحانه وتعالى : **« ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن اوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما » (8) .**

وهكذا يتضح لنا الاهمية الدينية التى أعطاها المولى عز وجل للبيعة ، فهو يجعل من البيعة التى تمت تحت الشجرة أكثر من مجرد عقد بين المسلمين ورسول الله (ص) فهى عقد بين المسلمين وبين الله عز وجل لذلك كانوا جديرين بأن يفوزوا برضاه وبنصره .

كذلك كل بيعة مخلصة فى نيتها ومضمونها ستحظى من غير شك برضى الله وتأييده . لان العقد الحقيقى فى الاسلام هو فعل تعبدى .

البيعة فى عهد الرسول (ص) :

تروى لنا كتب السيرة نبأ أربع بيعات تمت فى عهد الرسول (ص) وهى :

- بيعة العقبة الاولى ،
- بيعة العقبة الثانية ،
- بيعة الرضوان ،
- بيعة الفتح .

1 ـ بيعة العقبة الاولى :

وقعت هذه البيعة فى السنة 12 (الثانية عشرة) من البعثة . وقد وافى فى هذه السنة موسم الحج أثنا عشر رجلا من الانصار فلقوا الرسول (ص) بالعقبة، وهى العقبة الاولى فبايعوه على نمط بيعة النساء وكان من ضمنهم أسعد بن زرارة ، ورافع بن مالك ، وعبادة بن الصامت ، وابو الهيثم ين التيهان .

وقد روى عبادة بن الصامت خبر هذه المبايعة ، فقال : كنا أثنى عشر رجلا ، فقال لنا رسول الله (ص) : « تعالوا بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تاتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصونى فى معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فى الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من

---

(7) سورة الفتح . الآية 18 .

(8) سورة الفتح ـ الآية 10 .

ذلك شيئا فستره الله فأمره الى الله ان شاء عاقبه ، وان شاء عفا عنه »

رواه البخاری ومسلم ، قال عبادة بن الصامت فبايعناه على ذلك (9) ٠

واذا حللنا مضمون عقد البيعة وجدناه شبيها بمضمون بيعة النساء التىسنتحدث عنها أدناه ، وقد نص العقد على طاعة المسلمين لله والتزام حدوده وعلى طاعة الرسول فى المعروف ٠ غير أنه لم ترد الاشارة الى الجهاد لانه لم يفرض بعد على المسلمين فى حين أشير الى الجزاء ٠

2 ـ بيعة العقبة الثانية :

وقعت هذه البيعة فى السنة 13 من البعثة ، ويروى أن 73 رجلا وامراتين من الانصار اجتمعوا فى الشعب حتى جاءهم رسول الله (ص) ومعه عمه العباس فتلا القرآن ودعا الى الله ورغب فى الاسلام ثم قال : « أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم » ٠

فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : « نعم ، والذى بعثك بالحق نبيا لنمنعنك مما نمنع منه أذرنا ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة (أى السلاح كله) ورثناها كابرا عن كابر) ٠

فاعترض البراء أبو الهيثم بن التيهان قائلا : « يا رسول الله ، ان بيننا وبين الرجال حبالا وانا قاطعوها ـ يعنى اليهود ـ فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا » ٠ فتبسم رسول الله (ص) ثم قال : « بل الدم الدم والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » ٠

وقد كان قال رسول الله (ص) : « أخرجوا الى منكم أثنى عشر نقيبا ليكونوا على قومكم بما فيهم ، فأخرجوا منهم 12 نقيبا ، 9 من الخزرج و 3 من الاوس ، فلما تخيرهم قال للنقباء : أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم ، وأنا كفيل على قومى » ٠ وكان أول من ضرب على يد رسول الله (ص) البراء بن معرور ثم بايع القوم كلهم بعد ذلك ٠

قال عبادة بن الصامت : « بايعنا رسول الله (ص) بيعة الحرب ، على السمع والطاعة فى عسرنا ويسرنا ومنشطنا

---

(9) الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى ٠ فقه السيرة ، ط 5 ، دار الفكر بيروت 1973 ٠ ص : 157 ـ 158 ٠

ومكرهنا وأثرة علينا ، وألا ننازع الامر أهله ، وأن نقول بالحق أينما كنا ، لا نخاف فى الله لومة لائم » (10) ·

هذا ولم تقع بيعة العقبة الثانية الا بعد أن نزلت أول آية فى الاذن بالحرب وهى قوله تبارك وتعالى : **« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز » (11) ·**

ومما يستنتج من بيعة العقبة الثانية :

1 ـ اذا كانت بيعة العقبة الاولى بيعة مؤقتة لانها لم ينص فيها على الجهاد ولان بنودها شبيهة ببنود بيعة النساء فان ورد النص على الجهاد بالقوة والدفاع عن رسول الله (ص) ودعوته بكل وسيلة فى بيعة العقبة الثانية ·

2 ـ ان بيعة العقبة الثانية هى مبايعة لرسول الله (ص) على الطاعة فى العسر واليسر وفى المنشط والمكره وعلى عدم منازعة الامر أهله ·

3 ـ ونصت كذلك على الجهر بالحق دون خشية أحد الا الله ·

4 ـ وقد وقع أثناء هذه البيعة اختيار كفلاء القوم ونقبائهم ليكونوا شهداء على نص البيعة التى تمت ·

3 ـ بيعة الرضوان :

تمت فى شهر ذى القعدة آخر سنة (6) ست للهجرة · وسببها أن الرسول (ص) كان قد أرسل عثمان بن عفان (ض) الى قريش قبل كتابة صلح الحديبية ليكلمهم فى الامر ، فاحتبسته قريش عندها مدة ، وبلغ رسول الله (ص) اذ ذاك أن عثمان بن عفان قد قتل ، فقال لا نبرح حتى نناجز القوم ، فدعا رسول الله (ص) الى البيعة ، فكانت بيعة الرضون تحت شجرة هنالك · فكان (ص) يأخذ بيد أصحابه الواحد منهم تلو الآخر يبايعونه على ألا يفروا ، وأخذ رسول الله (ص) بيد نفسه وقال : هذه عن عثمان ·

ولما تمت البيعة انتهى الى رسول الله (ص) أن الذى بلغه من مقتل عثمان باطل » (12) ·

---

(10) نفس المرجع ، ص : 168 ـ 169 ـ 170 ·

(11) سورة الحج ، الآية 37 ـ 38 ·

(12) البوطى ـ المرجع نفسه ـ ص 346 ·

وفي هذا السياق نزلت الآيتان السالفتان الذكر من سورة الفتح وهما الآيتان 10 و 18 ٠

ويمكن أن نقول عن هذه البيعة أنها بيعة حرب وقد نالت رضى الله سبحانه وتعالى كما أسلفنا٠ وان هذه البيعة هي النموذج لكل بيعة حقيقية في الاسلام خصوصا البيعة التي وقعت في عهد الخلفاء الراشدين ٠

4 ـ بيعة الفتح :

ان الناس في اليوم الثاني من بعد الفتح اجتمعوا بمكة قصد مبايعة الرسول (ص) على السمع والطاعة لله ورسوله في المنشط والمكره ، فلما فرغ الرسول (ص) من بيعة الرجال بايع النساء ٠

٠ بيعة النساء :

قال رسول الله (ص) لنساء قريش وفيهن هند بنت عتبة متنكرة : تبايعنني على ألا تشركن بالله شيئا ، فقالت هند ، والله انك لتاخذ علينا أمرا ما أخذته على الرجال وسنؤتيكه ، قال : « ولا تسرقن قالت : والله ان كنت لاصيب من مال أبي سفيان الهنة والهنة ، وما أدري أكان ذلك حلا لي أم لا ؟ فقال أبو سفيان ، وكان شاهدا لما تقول : أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه في حل ٠

فقال (ص) : «وانك لهند بنت عتبة ؟» فقالت : «أنا هند بنت عتبة ، فاعف عما سلف عفا الله عنك ٠ قال : ولا تزنين ، قالت : وهل تزني الحرة ! قال : ولا تقتلن أولادكن ٠ قالت : ربيناهم صغارا وقتلتهم يوم بدر كبارا ، فأنت وهم أعلم ٠ فضحك عمر من قولها حتى استغرب ٠ قال : ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن ، فقالت : والله ان اتيان البهتان لقبيح ولبعض التجاوز أمثل قال : ولا تعصينني في معروف ٠ فقال رسول الله (ص) لعمر : بايعهن واستغفر لهن رسول الله ٠ فبايعهن عمر ٠ وكان رسول الله (ص) لا يصافح النساء ولا يمس امرأة ولا تمسه الا امرأة أحلها الله له (13) ٠

والشيء الذي نستنتجه من هذه البيعة هو أن هناك صيغتين للبيعة أو نمطين : نمط للرجال ونمط للنساء ، وتختلف بيعة الرجال عن بيعة النساء باضافة البيعة على الحرب في بيعة الرجال ٠ ذلك أن البيعة مرتبطة بالقدرة ٠ وقد روى عن عبد الله ابن عمر (ض) قال : كنا اذا بايعنا رسول

(13) نفس المرجع ـ ص : 396 ـ 397 ٠

الله (ص) على السمع والطاعة يقول لنا : « فيما استطعتم » رواه البخارى ومسلم .

والنتيجة العامة التى نخرج بها هى أن البيعة فى عهد الرسول (ص) كانت بيعة على الطاعة فى المنشط والمكره وكانت خالصة لوجه الله فحظيت برضاه • وكان حريا بهذا النوع من البيعة أن يصبح مثالا يحتذى من قبل المسلمين فى مبايعة خلفائهم • ذلك أن الاقتداء برسول الله (ص) أمر دأب عليه المسلمون فى جميع أمورهم • وقد ذكر ابن خلدون بيعة العقبة وبيعة الرضوان فى مقدمة وفى طليعة أنواع البيعة : « وهو المراد فى الحديث فى بيعة النبى (ص) ليلة العقبة وعند الشجرة الخ ••• » (14) • ويقول فؤاد محمد شبل : « وعلى هذا المنهاج كانت الصحابة ـ وقد أخذوه عن النبى (ص) فقد بايعوه (ص) تحت الشجرة ـ وبايع أهل المدينة النبى (ص) عندما هم بأن يهاجر اليهم ، وبايعه أهل مكة عندما فتحها ، ودخل أهلها فى طاعته ومنهم النساء » (15) •

مضمون عقد البيعة :

ان مناط البيعة أن يعاهد المبايع الخليفة أو الامير على أن يسلم له النظر فى أمر نفسه وفى أمور المسلمين لا ينازعه فى شىء من ذلك ويطيعه فيما يكلفه به من الامر على ما ينشط له الانسان ويحبه وما يكرهه ويبغضه ، ما لم تكن معصية لانه «لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق» (16) • ولقد سبق لنا أن رأينا أن الرسول (ص) نفسه لم يعاهد الا على الطاعة فى المعروف • وفى هذا يقول ابن خلدون فى مقدمته : « اعلم أن البيعة هى العهد على الطاعة ، كأن المبايع يعاهد أميره على أنه يسلم له النظر فى أمر نفسه وأمور المسلمين ، لا ينازعه فى شىء من ذلك ، ويطيعه فيما يكلفه به من الامر على المنشط والمكره » (17) •

---

(14) ابن خلدون ـ نفس المرجع ـ ص 371 •

(15) فؤاد محمد شبل ـ الفكر السياسى ـ دراسات مقارنة للمذاهب السياسية والاجتماعية • مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر 1974 ـ الجزء الاول ـ ص 235 •

(16) نفس المرجع ـ ص : 234 ـ 235 •

(17) ابن خلدون ـ نفس المرجع ـ ص 370 •

ويتعهد الخليفة بالمقابل بأن يقيم الحدود والفرائض ويسير على سنة العدل وعلى مقتضى كتاب الله وسنة رسوله (ص) وفى هذا يقول القاضى أبو يعلى الفراء فى « كتاب الامامة » : وصفة العقد أن يقال له قد بايعناك على بيعة رضى على اقامة العدل والانصاف والقيام بفروض الامامة ونحو ذلك » (18) · وقال الماوردى « والذى يلزمه من الامور العامة عشر اشياء : أحدهما حفظ الدين على أصوله المستقرة وما أجمع عليه سلف الامة ، فان نجم مبتدع أو وازع ذو شبهة عنه أوضح له الحجة وبين له الصواب واخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود ، ليكون الدين محروسا من خلل والامة ممنوعة من زلل ؛ الثانى تنفيذ الاحكام بين المتشاجرين وقطع الخصام بين المتنازعين حتى تعم النصفة ، فلا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم ؛ الثالث حماية البيضة والذب عن الحريم ليتصرف الناس فى المعايش وينتشروا فى الاسفار آمنين من تغرير بنفس أو مال ؛ والرابع اقامة الحدود لتصان محارم الله تعالى عن الانتهاك وتحفظ حقوق عباده من اتلاف واستهلاك ؛ والخامس تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة حتى لا يظهر الاعداء بغرة ينتهكون فيها محرما أو يسفكون فيها لمسلم أو معاهد دما ؛ والسادس جهاد من عاند الاسلام بعد الدعوة حتى يسلم أو يدخل فى الذمة ليقام بحق الله تعالى فى اظهاره على الدين كله ؛ والسابع جباية الفىء والصدقات على ما أوجبه الشرع نصا واجتهادا من غير خوف ولا عسف ؛ والثامن تقدير العطايا وما يستحق فى بيت المال من غير عسف ولا تقتير ودفعه فى وقت لا تقديم فيه ولا تأخير ؛ التاسع استكفاء الامناء وتقليد النصحاء فيما يفوضه اليهم من الاعمال ويكله اليهم من الاموال لتكون الاعمال بالكفاءة مضبوطة والاموال بالامناء محفوظة ؛ العاشر ان يباشر بنفسه مشارفة الامور وتصفح الاحوال لينهض بسياسة الامة وحراسة الملة ولا يعول على التفويض تشاغلا بلذة أو عبادة فقد يخون الامين ويغش الناصح » (19) .

---

(18) نقلا عن نصوص الفكر السياسى الاسلامى ـ الامامة عند السنة لصحابه يوسف أيبش ، دار الطليعة ـ بيروت ـ ص 224 ·

(19) نقلا عن المرجع نفسه ـ ص : 160 ـ 161 وقد يحصها الحسن البصرى فى أربعة وهى : « الحكم والفىء والجمعة والجهاد » ·

وهكذا فالبيعة بمثابة عقد دينى اجتماعى بين الخليفة والامة · وبمقتضاه يتعهد الخليفة بالحفاظ على مصالح الرعية ، وتبذل له ـ مقابل ذلك ـ الولاء والالتزام (20) ·

أطراف البيعة :

يقول العلامة المرحوم الشيخ محمد بخيت مفتى الديار المصرية الاسبق فى كتابه عن «حقيقة الاسلام وأصول الحكم» « ان منصب الخليفة انما يكون بمبايعة أهل الحل والعقد ، وان الامام انما هو وكيل الامة ، وان أفرادها هم الذين يولونه السلطة ··· فمصدر قوة الخليفة هو الامة ، وهو انما يستمد سلطانه منها والمسلمون هم أول أمة قالت بأن الامة مصدر السلطات » (21) ·

وقوله غير بعيد عن قول شيخ الاسلام ابن تيمية : « ومذهب أهل السنة أن الامامة تنعقد عندهم بموافقه أهل الشوكة ··· الذين يحصل بهم مقصود الامامة وهو القدرة والتمكن · فلا يشترط فى صحة الخلافة الا اتفاق أهل الشوكة والمجهود ··· ولا ريب أن الاجماع المعتبر فى الامامة لا يضر فيه تخلف الواحد والاثنين ، ولو اعتبر ذلك لم تنفذ امامة ·· فلا يقدح فى اتفاق أهل الحل والعقد شذوذ من خالف» (22) وقال : « ان الامامة عندهم تثبت بموافقة أهل الشوكة عليها ، ولا يصير الرجل اماما حتى يوافقه أهل الشوكة الذين يحصل بطاعتهم له مقصود الامامة ، فان المقصود من الامامة انما يحصل بالقدرة والسلطان ، فاذا بويع بيعة حصلت بها القدرة والسلطان صار اماما » (23) ·

وهكذا يتبين أن الاسلام يعهد باختيار الخليفة الى اهل الحل والعقد ، وهم أئمة المسلمين وفقهاؤهم ورؤساء عشائرهم وأمراء أجنادهم وذوو الشوكة والمكانة

---

(20) فؤاد محمد شبل ، نفس المرجع ص 235 ·

(21) الدكتور على عبد الواحد وافى ـ حقوق الانسان فى الاسلام ـ ط4 دار نهضة مصر للطبع والنشر بالفجالة 1967 ، ص 241 ·

(22) أبو العباس تقى الدين أحمد بن تيمية ـ منهاج السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة القدرية · تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم ـ مكتبة دار العروبة · القاهرة 1962 · الجزء الاول ص 367 و 368 ·

(23) نفس المرجع ، ص 365 ·

والرأي فيهم • وهؤلاء هم الممثلون الحقيقيون ـ في نظر الدكتور عبد الواحد وافي للامه والمعبرون تعبيرا صادقا عن اهدافها وتطلعاتها ومطامحها (24) وهو الرأي الاصوب في نظرنا ذلك لان ما ينتهي اليه أهل الحل والعقد بالاجماع أو بالاغلبية هو ما يمكن أن ينتهي اليه رأي الامة عن طريق الاستفتاء العام •

غير أن البعض وفي مقدمتهم رشيد رضا في كتابه الخلافة يرى أن أهل الحل والعقد يعني بهم الامة (25) •

وقد طبقت هذه الفكرة الواسعة عند الاعلان عن الجمهورية المصرية في ماي وجويلية 1953 ، ففي ماي وقع حفل عمومي للبيعة الجمهورية وتمت باسم الله وطبقا للقرآن.وكرر نجيب بعض العبارات الشهيرة التي وردت في خطاب ابي بكر عند بيعة السقيفة • وتمت البيعة بنصها مع ترديد الجمهور •

وفي جويلية وقع حفل البيعة من طرف العلماء لاهل (الحل والعقد) في المسجد الجامع الازهر وتمت البيعة من طرف ممثلي الامة •

والملاحظ أن نجيبا قد قدم البيعة العامة على بيعة أهل الحل والعقد وأولاها أهمية كبرى كما هو الحال في الانظمة الانتخابية (26) غير أن المسلمين والاوائل يولون أهمية كبرى لمبايعة أهل الحل والعقد كما رأينا ذلك عند ابن تيمية •

وهكذا يتبين أن أطراف البيعة هم : الخليفة من جهة وأهل الحل والعقد من جهة أخرى وهم ممثلو الامة وقد يضاف الى ذلك بيعة الامة بأسرها •

شروط البيعة وأركانها :

من ضمن الشروط قدرة الطرفين المتعاقدين وأهليتهما :

ما هي مؤهلات أهل الحل والعقد ؟ :

كي يتمكن أهل الحل والعقد من تعيين الخليفة يجب أن يحوزوا بصفة خاصة على المؤهلات الآتية : العدالة والعلم بشروط منصب الخلافة والذكاء والحكمة اللذان يسمحان لهم بتمييز الشخص الاكثر أهلية لهذا المنصب • كما يجب عليهم أن يكونوا أساسا قادرين على الاجتهاد باطلاعهم الواسع على أحكام القرآن والسنة والفقه (27) •

(24) الدكتور على عبد الواحد وافي ، نفس المرجع ، ص 240 •
(25) Louis Gardet. Op. cit. p. 165.
(26) Ibid. pp. 368 et 367.
(27) Ibid. p. 167.

ولا يبايع أهل الحل والعقد وسائر أفراد الامه الا على ما يستطيعون كما ورد في الحديث الشريف ، ذلك أنه روى عن عبد الله بن عمر (ض) أنه قال : « كنا اذا بايعنا رسول الله (ص) على السمع والطاعة يقول لنا : فيما استطعتم » .

أما العدد الذى تنعقد به البيعة فيتمثل في الاغلبية من أهل الحل والعقد « ولا ريب أن الاجماع المعتبر - على حد تعبير ابن تيمية - في الامامة لا يضر فيه تخلف الواحد والاثنين ، ولو اعتبر ذلك لم تنفذ امامة .... فلا يقدح في اتفاق أهل الحل والعقد شذوذ من خالف » (28) .

هذا وان الماوردى يرى أن الامامة تنعقد من وجهين : أحدهما باختيار أهل الحل والعقد ، والثاني بعهد الامام من قبل . فأما انعقادها باختيار أهل الحل والعقد فقد اختلف العلماء في عددهم . فقالت طائفة : لا تنعقد الا بجمهور أهل الحل والعقد من كل بلد . وهو مذهب مدفوع في رأى الماوردى ببيعة أبى بكر . وقالت طائفة ثانية : أقل من تنعقد به منهم الامامة خمسة يجتمعون على عقدها أو يعقدها أحدهم برضى الاربعة. وقالت طائفة ثالثة تنعقد بثلاثة يتولاها أحدهم برضا الاثنين وقالت طائفة رابعة تنعقد بواحد (29) ، والاشاعرة هم الطائفة الاخيرة واختلفوا هل يفتقر العقد لشهادة اثنين أم لا ؟ فمنهم من قال يفتقر ، ومنهم من قال لا يفتقر . والاصح في نظرنا أن الامامة تنعقد باجماع أهل الحل والعقد « لان الامام يجب الرجوع اليه ولا يسوغ خلافة والعدول عنه كالاجماع ، ثم ثبت أن الاجماع يعتبر في انعقاده جميع أهل الحل والعقد ، كذلك عقد الامامة له » (30) .

أما شروط منصب الخليفة فهي خمسة :

1 - العلم ،

2 - العدالة ،

3 - الكفاية ،

4 - سلامة الحواس والاعضاء ،

5 - القرشية (31) .

---

(28) نقلا عن كتاب الدكتور على عبد الواحد وافى السابق الذكر ، ص 241 .

(29) نقلا عن نصوص الفكر السياسى الاسلامى المذكور أعلاه ، ص 150 .

(30) فؤاد محمد شبل ، المرجع السابق ، ص ص 231 و 232 .

(31) نقلا عن نصوص الفكر السياسى الاسلامى المذكور أعلاه ، ص ص 316 و 317 .

أما الغزالى فيعتقد أن شروط منصب الخليفة نوعان : فطرى ومكتسب ·

أما الشروط الفطرية فهى : البلوغ والعقل والحرية والذكورية والقرشية وسلامة حاسة السمع والبصر ·

أما الشروط المكتسبة فهى النجدة والكفاية والعلم والورع (32) ، والواقع أن دراسة هذه الشروط دراسة موضوعية يمكن أن يفرد له بحث بعينه ، غير أننا نريد من وراء سردنا لهذه الشروط أن تبين أنه يشترط فى المرشح للخليفة شروط بدونها لا تنعقد امامته ·

مستلزمات البيعة :

يقول أحمد بن حنبل : « من خرج على امام من أئمة المسلمين ـ وقد كان الناس قد اجتمعوا عليه وأقروا له بالخلافة ··· فقد شق هذا الخارج عصا الطاعة وخالف الآثار عن رسول الله (ص) فان مات الخارج عليه مات ميتة جاهلية » (32) · وفى الصحيحين عن عبادة بن الصامت قال : دعانا رسول الله (ص) فبايعناه ، فكان فيما أخذ علينا أن بايعنا على : السمع والطاعة ، فى منشطنا ومكرهنا ، وعسرنا ويسرنا ، وأثرة علينا ، وأن لا ننازع الامر أهله الا أن تروا كفرا بواحا عندكم فيه من الله برهان » (33) ·

وقد قال المولى عز وجل فى محكم تنزيله فى الآية 59 من سورة النساء : « **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله · وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم ، فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ، ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا** » ·

وهذا ان دل على شىء فانما يدل على وجوب الطاعة فى المعروف وحرمة الخروج على أئمة المسلمين · هذا دون أن ننسى بأن الشرع يفسح أمام المسلمين مجال فسخ عقد البيعة · وهذه النقطة وحدها تحتاج الى بحث مطول ·

بيعة الاكره :

يقوء ابن خلدون فى مقدمته : « كان الخلفاء يستحلفون على العهد ويستوعبون الأيمان كلها لذلك،فسمى هذا الاستيعاب أيمان البيعة ، وكان الاكراه فيها أكثر وأغلب · ولهذا لما أفتى مالك رضى الله عنه بسقوط يمين الاكراه أنكرها الولاة عليه ، ورأوها قادحة فى أيمان البيعة ،

(32) فؤاد محمد شبل ، المرجع السابق ، ص 236 ·
(33) ابن تيمية ، المرجع السابق ، ص 390 ·

ووقع ما وقع من محنة الامام (ض) »(34) وقد وقعت محنته فى عهد أبى جعفر المنصور • يقول الدكتور صحيحى الصالح : « وظل الامام مالك منقطعا عن الخلفاء العباسيين حتى عام 146 هـ ، ولقى منهم ضروب التعذيب ، ويعتقد بعض المؤرخين أن فتوى مالك كان لها علاقة بثورة محمد بن عبد الله بن الحسن بن على بالمدينة المنورة وهو الملقب بالنفس الزكية •

وكان للنفس الزكية سمعة حسنة بين المسلمين وكان له فى أعناق الكثيرين بيعة تمت بالشورى والاختيار •

وقد عمل أبو جعفر المنصور على استدراجه للاسراع بالخروج بخطة جهنمية ذات ثلاث شعب :

– بدس العيون فى صفوفه كي يختبر المواقف والاشخاص •

– ضيق عليه وعلى أتباعه الخناق وأرهقهم من أمرهم عسرا بتجنيد العيون والجواسيس •

– العمل على التعجيل بخروجه قبل أن يكتمل له التمكن والاستعداد •

أجبرت خطة المنصور النفس الزكية على اعلان الخروج فى أول رجب سنة 145 هـ، أو لليلتين من جمادى الآخرة •

وأفتى بالخروج معه وتأييده مالك ابن أنس على ما يروى الطبرى • ولما سأله الناس : ان فى أعناقنا بيعة لابى جعفر ؟ قال : انما بايعتم كارهين ، وليس على كل مكره يمين » !

فأسرع الناس الى بيعة النفس الزكية من علويين وأبناء المهاجرين وأبناء الانصار وسائر قريش • وهزموا يوم الاثنين 14 من رمضان سنة 145هـ، وقتل النفس الزكية •

وهكذا اختفت هذه الحركة التى قادها محمد بن عبد الله كى يعيد بها الخلافة شورى (35) •

فقد ضربه حاكم المدينة جعفر ابن سليمان بالسياط حتى انخلعت كتفه ، فكان يستعين على حمل يده اليمنى

---

(34) ابن خلدون ، المرجع السابق ، ص 370 •

(35) دكتور محمد عمارة ، المعتزلة والثورة • المؤسسة العربية للدراسات والنشر • بيروت 1977 • ص ص من 99 الى 104 •

باليسرى ، لانه أفتى بفساد بيعة الخلفاء بالقهر والاكراه » (36) ·

وانه من المعلوم أن البيعة التي كانت في عصر الصحابة تقوم على الرأى الحر والتزام الطاعة اختيارا وعن رضى · أما في العهد الاموى فقد صارت لغرض الحكم والاجبار على الطاعة · وكذلك الامر في العصر العباسي · ولقد اخترع الحجاج وأشباهه صيغا مختلفة يتبرأ منها الدين الاسلامي · فكان يجبر الناس أن يقولوا في بيعتهم : « عبيدى أحرار ونسائى طوالق ان خرجت عن طاعة الخليفة » (37) ·

وان بيعة الاكراه انحراف واضح عما أجمع عليه المسلمون في عهد الخلفاء الراشدين ·

تطبيق البيعة في المجال التاريخي :

1 ـ بيعة ابى بكر الصديق :

لقد ثبتت صحة امامته بالاختيار لا بالنص الخفى ، ولم يتخلف عن بيعته الا نفر قليل كان على رأسهم سعد ابن عبادة وفي هذا يقول شيخ الاسلام ابن تيمية والصديق « صار اماما ··· بمبايعة أهل القدرة له » « ولو قدر أن عمر وطائفة معه بايعوه ، وامتنع سائر الصحابة عن البيعة، لم يصر اماما بذلك» « كما أن من ظن أن تخلف الواحد أو الاثنين أو العشرة يضر فقد غلط » (38). « فجمهور الذين بايعوا رسول الله (ص) هم الذين بايعوا أبا بكر » (39) ·

وهكذا صحت بيعة أبى بكر بمبايعة أغلبية أهل الحل والعقد له ·

بيعة عمر بن الخطاب :

واما عمر فان أبا بكر عهد اليه وبايعه المسلمون بعد وفاة أبى بكر (ض) ، فصار اماما وأميرا للمؤمنين لما حصلت له القدرة والسلطان بمبايعتهم له »(40).

بيعة عثمان بن عفان :

أما عثمان (ض) فلم يصر اماما باختيار الستة من الصحابة أو بعضهم ورضا

---

(36) الدكتور صبحى الصالح · النظم الاسلامية نشأتها وتطورها ، ط 2 دار العلم للملايين · بيروت 1976 ، ص 214 ·

(37) فؤاد محمد شبل ، المرجع السابق ، ص 235 ·

(38) ابن تيمية ، المرجع السابق ، ص ص 367 و 368 ·

(39) نفس المرجع ، ص 368 ·

(40) نفس المرجع ، ص 369 ·

البعض الآخر ، بل بمبايعة الناس له ، وجميع المسلمين بايعوه ولم يتخلف عن مبايعته أحد (41) ٠

بيعة علي بن أبي طالب :

ان اتفاق المسلمين ومبايعتهم لابى بكر وعمر وعثمان ، أعظم من اتفاقهم على بيعة علي (كرم الله وجهه) وقد حصلت له البيعة باتفاق اغلبية المسلمين (42) ٠ وهذا لا يقدح فى خلافة علي ، لان الخلافة تنعقد بمبايعة الاغلبية من أهل الحل والعقد (43) ٠

اما بيعة بنى امية وبنى العباس ومن بعدهم فيغلب عليها الاكراه ٠

الخلاف بين الفرق الاسلامية :

اذا كان **الشيعة** يقولون أن أبا بكر اغتصب الخلافة بالقهر والغلبة ويعتقدون أن الاجماع لم يتم على امامته لان عليا وبنى هاشم وسعد بن عبادة زعيم الخزرج واتباعه والزبير والمقداد لم يبايعوا وكذلك غيرهم من خيار الصحابة ، بايعوا بالقهر والغلبة ، كأبى ذر وسلمان الفارسى وعمار وحذيفة وبريرة وغيرهم ٠ ويستشهدون على فساد بيعة أبى بكر بقول عمر : « كانت بيعة أبى بكر فلتة وقى الله المسلمين شرها فمن عاد الى مثلها فاقتلوه » ٠ وكونها فلتة يدل على أنها لم تقع - فى اعتقاد الشيعة - عن رأى صحيح ثم سأل وقاية شرها ثم أمر بقتل من يعود الى مثلها وكل ذلك يوجب الطعن فيها ٠

ويعتقد الشيعة أن امامة علي ثابتة بالنص وكذلك امامة بنيه من بعده وهى كذلك ثابتة بادلة عقلية ونقلية (44) ٠

أما أهل **السنة** فيعتقدون أن الخلافة واجبة بالاجماع وأنها انما تنعقد بالاختيار والبيعة ٠ وقليل من أهل السنة هم الذين يقولون بثبوت خلافة أبى بكر بالنص ٠ وانما صحت خلافة أبى بكر باجماع أهل الحل والعقد ٠ ولا يضر تخلف سعد بن عبادة عن بيعته لانهم كانوا قد عينوه للامارة فبقى فى

---

(41) نفس المرجع ، ص 369 ٠

(42) نفس المرجع ، ص 370 ٠

(43) د٠ علي عبد الواحد وافى ، المرجع السابق ، ص 245 ٠

(44) محمد جواد مغنية ٠ معالم الفلسفة الاسلامية ٠ دار العلم للملايين ، بيروت 1960 ، ص ص 197 الى 204 ٠

نفسه ما يبقى فى نفوس البشر · وهو مع ذلك لم يعارض · ولا يضر تخلف الواحد أو الاثنين أو العشرة ومن ظـن ذلك فقد غلط لان الامامة انما تنعقـد باغلبية اهل الحل والعقد · وجمهـور الذين بايعوا رسول الله (ص) بايعوا أبا بكر ·

ويعتقدون أن صحة خلافـة عمـر بترشيح أبى بكر ومبايعة الناس لـه وخلافة عثمان بنص عمر على ستة هـو أحدهم ومبايعة الناس له · وصحـة خلافة على بمبايعة اهل الحل والعقـد له (45) ·

واذا كان عمر قد سبق الى بيعـة أبى بكر (ض) · ولكن سبقه اليها لا يعنى أنها تمت على كره من المسلمين ، بل قد تمت بالمشورة والرضى والاتفـاق وان سماها عمر نفسه « فلتة » وقعت بغتة من غير روية : فانه لما عاد الى المدينـة من آخر حجة له بمكة قبيل وفاته خطب يقول : « ··· ثم انه قد بلغنى أن فلانا قال : والله لو قد مات عمر بن الخطاب لقد بايعت فلانا ··· فلا يغرن امرءا أن يقول : ان بيعة أبى بكر كانت فلتـة فتمت أو انها قد كانت كذلك ، الا أن الله قد وقى شرها ، وليس فيكم من تنقطع اليه الاعناق مثل أبى بكر ! فمن بايع رجلا من غير مشورة من المسلمين فانه لا بيعة له ، هو ولا الذى بايعه : تغرة أن يقتلا ! » (46) ·

الخلاف بين المفكرين المسلمين :

فساد النص وضرورة الاختيار :

ان الشيعة يعتقدون أن الرسول (ص) نص على امامة على ويعتقد الرواندية أنه نص على امامة عمه العباس ويعتقد بعض أهل السنة أنه نص على امامة أبى بكر · غير أن الرأى الاصوب فى نظر الاشعرى وفى نظرنا هو قول من « قال هو أبو بكر هو باجماع المسلمين والشهادة له بذلك ثم رأينا عليا والعباس قد بايعاه واجمعا على امامته وجب ان يكون اماما بعـد النبى (ص) باجماع المسلمين » ولا يجوز الاجتماع بأن باطـن عـلى والعباس كان خلاف ظاهرهما والا بطل بذلك كـل اجماع (47) ·

---

(45) ابن تيمية ، نفس المرجع ، ص ص 340 الى 378 ·

(46) الدكتور صبحى الصالح ، نفس المرجع ، ص 283 ·

(47) نقلا عن نصوص الفكر السياسى الاسلامى المذكور أعلاه ، ص 22 ·

ويقول الغزالى : « فاما دعوى النص الصريح المتواتر ، فمحال من وجوه ··· أحدهما أنه لو كان كذلك متواترا لما شككنا فيه ، كما لم يشك فى وجود على (كرم الله وجهه) ولا فى انتصابه للخلافة بعد رسول الله (ص) ولا فى أمر رسول الله (ص) بالصلاة والصيام والزكاة والحج ··· وعلى هذه الجملة فلا تتميز دعواهم عن دعوى البكرية ··· ولا عن دعوة الروندية (48) ·

وأبو بكر وعلى وغيرهما من الخلفاء الراشدين لم يصيروا أئمة الا بمبايعة الناس لهم ·

انعقـــاد البيعـــة :

اذا كان الاشاعرة يعتقدون أن الامامة تنعقد بواحد واختلفوا فى شهادة الاثنين هل تجب أم لا ؟ فان ابن تيمية ومـــن بعده رشيد رضا لا يرضيان بذلـك · يقول ابن تيمية : « فمن قال انه يصير اماما بموافقة واحد أو أثنين أو أربعة وليسوا من ذوى القدرة والشوكة فقد غلط كما أن من ظن أن تخلف الواحد أو الاثنين أو العشرة يضر ، فقـــد غلط » (59) ·

ولايـــة العهـــد :

يقول الماوردى : « وأما انعقاد الامامة بعهد من قبله ، فهو مما انعقد الاجماع على جوازه ووقع الاتفاق على صحتـــه لامرين ، عمـــل المسلمون بهما ولـــم يتناكروهما : أحدهما أن أبا بكر (ض) عهد بها الى عمر (ض) فاثبت المسلمون امامته بعهده والثانى أن عمر (ض) عهد بها الى أهل الشورى فقبلت الجماعـــة دخولهم فيها ، وهـم أعيـــان العصر ، اعتقادا لصحة العهد بها ، وخرج باقى الصحابة منها » (50) ·

واستنادا الى نفس الحجج يقول ابن خلدون : « اعلم أنا قدمنا الكلام فى الامامة ومشروعيتها لما فيها من المصلحة، وأن حقيقتها النظر فى مصالح الامـــة لدينهم ودنياهم ، فهو وليهم والامـين عليهم ينظر لهم ذلك فى حياته ، ويتبع ذلك أن ينظر لهم بعد مماته ، ويقيـــم لهم من يتولى أمورهم كما كان هو يتولاها،

(48) نقلا عن نفس المرجع ، ص ص 296 و 297 ·

(49) ابن تيمية ، نفس المرجع ، ص 368 ·

(50) نقلا عن نصوص الفكر السياسى الاسلامى المذكور أعلاه ، ص ص 153 و 154 .

ويثقون بنظره لهم فى ذلك كما وثقوا به فيما قبل » (51) .

والرد على ذلك يكون بنقض هـــذا الاجماع المزعوم ، ذلك أن أبا بكر (ض) لم يعهد الى عمر الا بعد أن استشار أهل الحل والعقد « وبايعه المسلمون بعد موت أبى بكر ، فصار اماما لما حصلت له القدرة والسلطان بمبايعتهم له» (52).

وعثمان لم يصر اماما باختيـــار عبد الرحمن بن عـــوف وبعض الصحابـــة الآخرين : « بل بمبايعة الناس له» (53). يقول الامام أحمد : « ما كان فى القوم أوكـــد بيعـــة من عثمـــان كانـــت باجماعهم » (54) .

ومن هنا يتضح لنا مبلغ الخطا فيما ذهب اليه الماوردى وابن خلدون وغيرهما اذ قررا : أن للامام الحق فى أن يولى على المسلمين من يخلفه وأن ينصب ولى عهد له . واستنادهم الى وصيتى أبى بكر وعمر (ض) فى غير محلـــه . ذلك أن وصيتيهما هما من قبيل ابداء الرأى الشخصى ومن قبيل الترشيح فحسب . ولم يصر عمر وعثمان امامين الا بعد أن بايعهما أهل الحل والعقد (55) .

وخلاصـــة القـــول فى هذا البـــاب نستخرجها من الجزء الثانى من الفتنة الكبرى . يقول طه حسين بصدد الحديث عن تولية معاوية لابنه يزيد عهده « ولم يكره المسلمون شيئا فى الصدر الاول من أيامهم كما كرهوا وراثة الخلافة » . فابو بكر لم يعهد الى ذويه بل عهد الى عمر بعد مشاورة أهل الحل والعقد وترك للمسلمين أمر مبايعته . « وزجر عمر من طلب اليه أن يعهد لعبد الله ابنه ... ولم يخطر لعثمان أن يعهد الى أحد ... وأبى على أن يستخلف وقال لاصحابه حين سالوه ذلك أتركـكم كما تركـكـــم رسول الله . وساله الناس : أيبايعون الحسن ابنه ؟ فقـــال : لا آمركـــم ولا أنهاكم » . وقد استكره معاويـــة الحسين بن على وعبـــد الله بن عمـــر وعبد الله بن الزبير وعبـــد الرحمـــن

---

(51) ابن خلدون ، نفس المرجع ، ص ص 371 و 372 .

(52) ابن تيمية ، نفس المرجع ، ص 369 .

(53) نفس المرجع ، ص 369 .

(54) نفس المرجع ، ص 369 .

(55) د. على عبد الواحد وافى ، نفس المرجع ، ص 245 .

ابن أبى بكر على الصمت عند توليتـــه العهد لابنه : « فالشيء المحقق هو أن معاوية قد استكره هؤلاء النفر عـــلى الصمت بعد أن لم يستطع أن يستكرههم على البيعـــة ... وكذلك استقر فـى الاسلام لاول مرة هذا الملك الذى يقوم على البأس والبطش والخوف ، والـذى يرثه الانباء عن الآباء » . ورحم الله الحسن البصرى الذى عد هذا الامر من أكبر الموبقات فى قوله « واستخلافه ابنه بعده سكيرا خميرا يلبس الحرير ويضرب بالطنابير » (*) .

بين البيعة والانتخاب :

ويعتقد الدكتور عبد الواحد وافى أن مقارنة بسيطة مع ما يجرى فى عالمنـا اليوم تبين لنا جوهر البيعة أى انتخاب رئيس الدولة فى الاسلام :

1 ـ الجمهوريات الرياسية : ينتخـب الرئيس من طرف جميع الافراد المكلفين الراشدين .

2 ـ الجمهوريات البرلمانية : يختـار رئيس الدولة من طرف البرلمان الذى هو السلطة التشريعية .

3 ـ أما الاسلام فيعهد بهذه المهمـة لاهل الحل والعقد وهم أئمة المسلمـين وفقهاؤهم ورؤساء عشائرهم وأمـــراء أجنادهم وذوو الشوكة والمكانة والرأى فيهم (57) .

فى حين يعتقد أبو الاعلى المودودى أن انتخاب الرئيس فى الدولة الاسلاميـة

---

(56) طـــه حسـين ، اسلاميات ، ط 1 دار الآداب ، بيروت 1967 ، ص ص 1012 و 1013 و 1014 .

(*) يقول الجاحظ فى رسائله : « فعندما استوى معاوية على الملك ، واستبد عـلى بقية الشورى ، وعلى جماعة المسلمين من الانصار والمهاجرين فى العالم الذى سموه عام الجماعة ، وما كان عام جماعة ، بل كان عام فرقة وقهر وجبرية وغلبة ، والعـام الذى تحولت فيه الامامة ملكاكسرويا ، والخلافة غصبا قيصريا ، ولم يعد ذلك أجمع : الضلال والفسق ـ ! » « نقلا عن المعتزلة والثورة المذكور أعلاه ص 48 » .

(57) د. على عبد الواحد وافى ، نفس المرجع ، ص 240 .

متوقف على رضاء عامة المسلمين ولا حق لاحد أن يسلط نفسه عـــلى رؤوسهـم بالقسر والاكراه (58) ٠

أما عن الكيفية التي يتضح بها رضا عامة المسلمين ، فان الاسلام لم يضع لهذا الغرض طريقــا ٠ يقول محمــد أســد : «ان الشريعة لا تضع نظاما خاصا لانتخابه ولا تحدد هيئة الناخبين » (59) ٠ ويعتقد محمد أسد من جهة اخرى انه يجـــوز تحديد المدة الرئاسيـــة كما يجـــوز التنصيص عــلى الحـــق فى اعـــادة الترشيح » (60) ٠

أما الدكتور على عبد الواحـد وافى فيعتقد : « أن الخليفة يتولى منصبه طول حياته الا اذا عزله المسلمون أما رياسة الجمهورية فمحددة بأجل » (61) ٠

ومن المسلم به أن المسلمين سواسية فى حق التصويت وابـــداء الـرأى وان انتخاب الامير لا يكون الا على أساس من الشروط المذكورة آنفا وأنه لا ينتخـب للامارة الا من كان المسلمون يثقون به وبسيرته وبطباعه وخلقه وأنه لا ينتخب من يرشح نفسه للامارة (62) ٠

ولا شك أن المبايعة أطهر من الانتخابات فى أيامنا هذه وذلك لانها تخلص النية لوجه الله ولانها خالية مـن التدليس والغش ٠

النتيجـــة : لقد وصلنا الى نهايـة المطاف لذلك يجدر بنا ان نؤكد على بعض الافكار الرئيسية وهى :

1 ـ ان الحكومة الاسلامية ليســت مفصولة عن الدين وبالتالى فهى ليســت لائكية ٠

2 ـ البيعة هى الانتخاب مطهرا من جميع طرق الغش والتدليس ٠

3 ـ لا مجال لبعض الآراء المتطرفـة القائلة بجواز ولاية العهد ٠

4 ـ عقد البيعة عقد اجتماعى ـ دينى يرمى الى تطهير المجتمع ٠

والله ولى التوفيق بمنه ولطفه ٠

---

(58) أبو الاعلى المودودى ، نظرية الاسلام وهديه فى السياسة والقانون والدستور ٠ ترجمة الاصلاحى وراجعه الندوى والحداد ٠ مؤسسة الرسالة ، بـيروت 1969 ، ص ص 278 الى 284 ٠

(59) و (60) محمد أسد ، منهاج الاسلام فى الحكم ، ترجمة ماضى ، ط 3 ، دار العلم للملايين ، بيروت 1967 ص ص 85 و 86 ٠

(61) على عبد الواحد وافى ، نفس المرجع ، ص 241 (انظر الهامش) ٠

(62) أبو الاعلى المودودى ، نفس المرجع ، ص ص 57 و 58 و 59 ٠

مساهمة بعض الشخصيات السودانية في نشر الاسلام في غرب افريقيا السوداء

عمار هلال
جامعة وهران

قبل أن نتطرق الى فحوى هذا الموضوع ، يجدر بنا أن نعطى ولو صورة بسيطة عن انتشار الاسلام فى غرب افريقيا السوداء ، وعن النتائج التى ترتبت عن هذا الانتشار بالنسبة للقارة السمراء من جهة ، وبالنسبة للاسلام كديانة سماوية سمحة ذات أعراف وقوانين اجتماعية واقتصادية وسياسية عادلة ، تسوى بين كل الفئات الاجتماعية ، بل تسوى بين الرئيس والمرؤوس نفسهما من جهة أخرى ·

انتشار الاسلام فى غرب افريقيا السوداء :

يؤكد كثير من المؤرخين الفرنسيين على أن الاسلام هو الذى فتح باب التاريخ لافريقيا السوداء · أما قبل الفتح الاسلامى فتاريخ القارة لم يبتعد قط عن ضفاف البحر الابيض المتوسط والاحداث التى تعرضت لها القارة على مختلف أنواعها وأهميتها ، لم يصل صداها الى العالم الخارجى الا بعد الفتح الاسلامى (1) ·

ويرجع تاريخ انتشار الاسلام فى افريقيا السوداء الى القرن الاول الهجرى ، أي السابع الميلادى · وفى هذه الحقبة التاريخية المتقدمة للاسلام حمل التاجر المسلم دينه معه عبر رحلاته التجارية الى ربوع مناطق افريقيا السوداء ·

وقد استطاع الاسلام فى أول عهده، وفى فترة وجيزة أن يستحوذ على قلوب الزنوج الافارقة · وتركت كثير من الاقطار الزنجية المتاخمة لكل من مصر وللمغرب العربى الديانة المسيحية وانقلبت الى الاسلام (2) ·

ـ علاقة افريقيا السوداء بالاسلام :

ويرجع تاريخ علاقة الاسلام بالقارة السوداء الى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، اذ تدفقت الجيوش الاسلامية آنذاك فاتحة عبر برزخ السويس نحو مصر . وفى سنة 641 للميلاد غزى عقبة بن نافع بلاد النوبة الشمالية . ويبدو أنه لم يتوغل كثيرا فى البلاد . وأبرمت اثر غزواته هاته هدنة تعتبر من الناحية العملية انتصارا باهضا للاسلام فى شرق القارة السمراء .

وفى عهد تولى عبد الله بن أبى السرح ولاية مصر نقض النوبيون هذه الهدنة فجهز هذا الاخير حملة عسكرية أوكل لها تاديب النوبيين . وتوغلت هذه الحملة فى مملكة المقرة حتى عاصمتها « نقلا العجوز » وذلك سنة 652 للميلاد . وحاصر المسلمون عاصمة النوبة حتى طلب ملكها الصلح . واضطر الى عقد معاهدة معهم ، دارت محاورها الرئيسية خاصة على المحافظة على مكتسبات الاسلام فى المنطقة وعلى عدم مضايقة الاسلام والمسلمين هناك من قبل السلطات الحاكمة للبلاد (3) .

ومما لا ريب فيه أن الاسلام بلغ أوج انتشاره فى شرق القارة السمراء، وذلك فى عهد الدولة الطولونية ، حيث قاد عبد الرحمان عبد الله بن عبد الحميد العمرى حملة حربية نحو بلاد النوبة فى سنة 868 للميلاد . وكان هذا الاخير شخصية دينية فذة . **واستطاع بغزواته هاته أن ينشر الدين** الاسلامي والثقافة العربية فى أرض النوبة ، ومن ثمة زاد استقرار العرب بشكل ملحوظ فى هذه المنطقة .

وهكذا كان هناك اتصال وثيق بين افريقيا السوداء والحضارة العربية الاسلامية ، وذلك منذ القرن الاول للهجرة النبوية كما ذكرنا سابقا .

وقد سارت حضارة العرب غرب النيل وجنوبه عبر الفيافى والقفار (4) وبعد فتح شمال افريقيا اخترق الاسلام صحراءها نحو الجنوب ووصل قلب افريقيا السوداء ، وذلك حتى خط الاستواء واستقر العرب عند سواحلها الشرقية والغربية وانتظمت القوافل التجارية بين الطرفين .

واذا كان الاسلام قد انتشر بدون أي صعوبة فى السودان الشرقى ، وكرس وجوده فى سواحل القارة السمراء الشرقية ، فانه شاهد انتشارا باهضا فى غربها أكثر من أي منطقة أخرى .

وقد كانت العلاقات تربط منذ اقدم العصور المغرب الاقصى بالسودان الغربى . وبعد الفتح الاسلامى لافريقيا الشمالية اتخذ الاسلام طريقه نحو غرب القارة عبر الصحارى .

وقد وقفت الغابات الكثيفة أمام توغل الاسلام فى المنطقة ردحا من الزمن • وشكلت هذه الاخيرة حصنا منيعا للوثنية • ولكن سرعان ما زال هذا العائق أمام انتشار الاسلام ، بانشاء طرق المواصلات وتطويرها عبر الحشائش العالية والغابات الكثيفة •

وقام المرابطون خلال القرن الحادى عشر الميلادى بدور هام ، فى نشر الاسلام فى افريقيا الغربية • واستطاعوا أن يدخلوا الاسلام الى المناطق الممتدة من الاطلنطى حتى غاو عاصمة مملكة سنغاي ، الذى اعتنق سلطانها الاسلام دينا حوالى 1075 للميلاد • وقد قلدته حاشيته واسلمت باسلامه (5) • وخلال القرون التى تلت انتشر الاسلام انتشارا كبيرا فى الجزء الغربى من القارة السمراء •

وكان المرابطون قد حملوا على عاتقهم مهمة نشر الدين الاسلامى فى المنطقة عن طريق بعض الفتوحات وارسال الدعاة بقيادة عبد الله بن ياسين ، الذى ركز نشاطه فى أول الامر على القبائل الافريقية التى تقطن حوض السنغال • والتف حوله كثير من الانصار وبذلك وجد الاسلام طريقه الى السودان الغربى •

– دور القبائل الافريقية فى نشر الاسلام :

وقد حملت القبائل الافريقية التى كانت تقيم فى حوض السنغال راية الدعوة الاسلامية كقبيلتى التكرور وسارا كولى ، وذلك حتى وادى النيجر ثم خلفتها فى مهمتها هذه قبائل الفلانى خلال القرن السابع عشر الميلادى •

ولعل قيام السلطات الاسلامية فى غرب افريقيا هو أقطع دليل عن انتشار الاسلام فى المنطقة ، بحيث أسلم ملك التكرور حوالى 1048 م • وأسلم ملك سنغاي حوالى 1075 م • وفى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى أسلم سلطان مالى كنكن موسى • وحج حجته المشهورة سنة 1324 م • وقد صاحبه عند عودته من الحج أربعة رجال أتقياء من قبيلة قريش ومهندس أندلسى يدعى الساحلى • ويقال ان كنكن موسى قد قرر تأسيس مسجد فى كل مكان وقف فيه لصلاة الجمعة ، وهو ذاهب الى الحجاز ، وذلك فى المناطق الواقعة ما بين السودان الغربى ومصر •

وعلى ما يبدو فهو الذى أسس مسجد غاو ومسجد تمبوكتو الكبير ، وهو مسجد السنكرى الشهير الذى يعتبر من أهم مراكز الاشعاع الثقافى العربى فى غرب افريقيا خلال القرون الوسطى • كما أسس السلطان كنكن موسى مسجد دكرى أو دكر وغودام وديبرى ، ومسجد ونك أو باكو (7) •

ومنذ القرن التاسع عشر الميلادى انتشر الاسلام بصورة مكثفة لم يسبق لها مثيل ، خاصة بواسطة الفتوحات التى قام بها السورانيون انفسهم •

وتوغلوا فى الغابات والحشائش العالية الكثيفة · وذلك لمعرفتهم الكافية لهـذه المسالك الوعرة واطلاعهم على ما تخفيه من أسرار واخطار · واسلمت بواسطتهم القبائل الوثنية التى كانت متحصنـــة هنـــاك ·

- مساهمـة بعض الشخصيـــات السودانية فى نشر الاسلام :

ومن هؤلاء الشخصيات السودانيـة التى اتخذت على عاتقها نشر الاســلام فى غرب افريقيا السوداء عثمان دان فوديو ، الذى ولد حوالى 1745 م · وقد تتلمذ على الشيخ جبريل المالكى المذهب، فى مدينة اغدامس · وتمكن دان فوديو من اللغة العربية تمكنا صحيحا · وقد وجد فى الطريقة القادرية ظالته فانقلب اليها · وأعلن الجهـاد ضـد الـزنوج الوثنيين فى السودان الغربى سنة 1804 للميـــلاد ·

واعتبر دان فوديو قبائل الحوصـــا وثنيين وأخضعهم لسنـة الاســـلام · ويعتبر هذا الاخيـر مـن المصلحيـــن المسلمين ، واحدى المجددة الاسلامية ، ذلك لان ما جاء به من افكار اسلامية مصلحة تتطابق شكلا ومضمونا مـع الوهابية أو السنوسية اذا قورنـــت بهذين المذهبين الاخيرين ·

والى جانب الدور الهام الذى لعبـه عثمان دان فوديو فى بعث الاسلام فى السودان فهناك شخصية أخرى سودانية لعبت دورا لا يقل أهمية عن الدور الذى لعبه هذا الاخير · وهذه الشخصيـــة تتمثل فى شخص الشيـخ أحـمـدو ، الذى نشر الاسلام بين قبائل الغلانى واستطاع بعزيمته الفذة وايمانه الراسخ أن يبلغ ذروة من التمكن من نشر الدين الاسلامى فى غرب افريقيا ·

وقد ولد الشيخ أحمدو سنة 1755 · وهو أصلا من الفلانيين · وكان أبـوه قادريا · واعتنق هو الآخر المذهـــب الصوفى القادرى تأثرا بأبيه ·

وقد أعلن الشيخ أحمدو الجهاد فى المناطـق الوثنيـــة المتاخمـة لحـوض السنغال · وحرض الفلانيين ضد قبيلة البامبار وهزمها وتحدى المغاربة الذين كانوا يحتلون مدينة جنى · وأسس فى شرق حوض السنغال عاصمة لملكته سماها « حمد الله » ، والتى يطلق عليها أحيانا اسم « دينا » ·

وتوفى الشيخ أحمـدو سنـة 1845 وبقيت « حمد الله » تؤدى فى دورهـــا الدينى والسياسى من بعده ، وذلـــك حتى سنة 1862 السنة التى احتلها فيها الحاج عمر ، الذى لعب هو ايضا دورا حاسما فى توطيد ركائز الاسلام فى السودان الغربى ·

والحاج عمر هذا ، اسمه الحقيـقى عمار بن السعيد تال ، ولد بين سنتى 1794 - 1795 · وتوفى فى مغارة جمبرى بتاريخ 12 فيفرى 1865 م ·

عاشــوراء وزكــاة النقــد والتجــارة

الشيخ أحمد حمانى

اعتاد المسلمون فى بلادنا أن يتخذوا من مستهل السنة الهجرية ميقاتــا لزكاة نقودهم وتجارتهم ، فيقوّم التاجر عروضه ، ثم يضم الى قيمتها ما نضّ عنده من نقد ، ويؤتى الـزكاة يـوم عاشوراء (العاشر من المحرم) ٠ هذه عادة حسنة ، تنبه الغافل ، وتذكـر الناسى وتحفز الناشىء الى التـأسى بأهل الفضل والديانة فى ايتاء الزكاة ، والمحافظة على هذا الركن العظيم من اركان الاسلام ، وأما الميقات الحقيقى لزكاة التجارة والعين فهو يوم أن يمر على ملك النصاب من العين حول كامل، أو على أصل التجارة ورأسمالها عام، ولا ينتظر يوم عاشوراء ٠

والزكاة هي حق المال ، ومن أهـم أركان الاسلام ، ثبت وجوبها بالكتاب والسنة والاجماع ، فمن انكر وجوبها فهو كافر لا يعامل معاملة المسلمين لانه أنكر معلوما من الدين بالضرورة ، ومن أقر بوجوبها وامتنع من أدائها أخذت منه قهرا وان بقتال ٠ جاء الامر بالزكاة مقرونا باقام الصلاة فى كثيـر من الآيات والاحاديث ، قـال تعـالى : « **واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة** » وقال سبحانه : « **وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيمـوا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك ديـن القيمة** » ٠ وقال عز وجل : « **خذ مـن اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم** » ، وفى الحديث الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بني الاسلام على خمس : شهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان » ٠ متفق عليه ٠

وروى مسلم فى صحيحه انه صلى الله عليه وسلم قال : « والصدقـة برهان » ٠ فمن أداها فقد أقام البرهان على صدق ايمانه ، ومن منعها دخـل فى الوعيد الشديد بالعذاب المهين ، كما شـهدت بذلك الآيـات ، والاحاديـث

الصحيحة ، قال تعالى : « **وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة** » وقال : « **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم** » · وهؤلاء هم الذين يمنعون الزكاة ، وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة رضي الله عنه ما يؤكد انها فى مانعى الزكاة لان ما ذكره فى عذابهم هو نفس ما جاء فى هذه الآية قال صلى الله عليه وسلم : « ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدى منها حقها الا اذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فأحمى عليها فى نار جهنم فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره ، كلما بردت أعيدت له فى يوم كان مقداره خمسين الف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله اما الى الجنة واما الى النار » الحديث ، وكفى بمثل هذا عذابا يلقاه جزاء شحه ·

وتؤخذ الزكاة من مانعيها قهرا ولو بقتال ، أجمع على ذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول خلافة أبى بكر ، فقد منعت الزكاة قبائل عربية واعترفوا بالصلاة ، فعزم أبو بكر على قتالهم حتى يؤتوا الزكاة ، وتبعه الاصحاب جميعهم بعد اعتراض من بعضهم ، وقاتلوهم حتى أرغموهم على أدائها وقهروهم على ايتائها ، ثم كفوا عنهم واعتبروهم اخوانا لقوله تعالى : « **فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم فى الدين** » ، وفى آية : « **فخلوا سبيلهم** » ·

وأهمية الزكاة اكتسبتها من انها حق المال ، وهو ضرورى لاقامة الدين، ودولة المسلمين ، واصلاح مجتمعهم ، وبناء أسس التعاون بينهم ، وتطهير نفوسهم وتزكيتها وتطهير أموالهم باخراج حق الله منها ، ومن تأمل فى مصارفها ألتى عينها الله فى القرآن ، ولم يكلها الى نبىء ولا الى غيره ، أدرك عظمة الاسلام فى نظامه المالى والاجتماعى والاخلاقى والتعاونى ·

نصاب الزكاة :

انما تجب الزكاة على الاغنياء فتؤخذ منهم وترد على فقرائهم والحد الفاصل بين الغني والفقير حدده الشرع وسماه الفقهاء (النصاب) وعرفوه بقولهم (والنصاب هو القدر الذى اذا بلغه المال وجبت فيه الزكاة) وذلك مختلف حسب نوع المال المزكى وهو : العين ، والتجارة ، والحرث ، والانعام ، (الحيوان) والمعادن فلكل نوع نصابه، وذلك مبسوط فى كتب الفقه ومرادنا هنا الكلام على زكاة العين والتجارة ·

زكاة العين والنصاب فى النقدين :

المراد بالعين وبالنقدين : الذهب والفضة ، وكانا أساس التعامل قديما وحديثا ففى عهد النبىء صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح والدول الاسلامية كان وسيلة التعامل الدينار (العملة الذهبية) أ والدرهم (العملة الفضية) فلهذا قدر النصاب فى الزكاة بهما ، ونصاب الفضة خمسة أواق

لقوله صلى الله عليه وسلم ـ فيما رواه فى الموطا ـ (وليس فيهما دون خمس أواق صدقة) والاواق جمع اوقية ، والاوقية اربعون درهما من وزن الفضة النقية ، فالنصاب فيها مائتا درهم · أما نصاب الذهب فهو عشرون دينار ـ والدينار المثقال ـ ورد بذلك حديث عن علي بن ابى طالب كرم الله وجهه ، رواه ابو داود · ولم تكن الموازين العشرية معلومة ، فقدر الفقهاء وزن الاوقية والدينار بثقل عدد مخصوص من حبات الشعير عند المالكية عددها 72 حبة كما نصوا عليه فى الكتب المتعددة وزنها نحو 4،67 غ × 20 دينارا = 93،40 غ، وعند غيرهم أقل من ذلك ، اذ قدر النصاب بعض علماء مصر كأبى زهرة فى محاضرة له ، والدكتور القرضاوى فى كتابه : « الزكاة » بـ 82 غراما فقط ، ولعل السبب فى اختلافنا معهم فى هذا التقدير ، الاختلاف فى عدد حبات الشعير التى يقدر بها المثقال ، فقد وجدت بعض المعلقين المعاصرين على شرح أقرب المسالك قدر الحبات بعدد 65 فقط فيكون مثقالهم أقل وزنا من مثقالنا بمقدار زنة 7 حبات من الشعير 20 مثقال = 140 حبة شعير ، نبهت بهذا الطلاب حتى تزول حيرتهم ، ولئلا يبادر بعضهم بالاتهام !

النصاب بنقودنا :

اذا عرفنا هذا سهل علينا أن نعرف النصاب بنقودنا ، ولما كان سعر الذهب متغيرا فان النصاب يتغير بها من عام الى آخر ، والزكاة فى أوراقنا واجبة وجوبها فى أصلها ، ذلك ان الدينار والدرهم المعدنيين النفيسين قد اختفيا من سوق التعامل ، وطبعت الامم على أساسهما أو أساس الذهب ـ أوراقا نقدية ليس لها قيمة ذاتية ، وانما قيمتها اعتبارية حسب الاتفاقات الدولية ، وقامت مقام الذهب فتجب فيها الزكاة ·

النصاب تسعة آلاف دينار (9٫000 د ج)

ولما كان السعر الرسمي الذى به يشرى التجار الذهب من مصادره الرسمية فى بلادنا أثناء هذه الايام يقارب مائة دينار جزائرى للغرام الواحد ـ كما علمنا من عدد من تجار العاصمة الموثوق بهم ، وكما علمنا من بعض موظفى البنك الوطنى ولما كان سعره فى السوق الحرة بباريس حسبما نشرته جريدة (لومند) فى اعدادها الاخيرة يقارب ذلك ـ فاننا نرى تقدير النصاب فى هذا العام ـ 1401 هـ بتسعة آلاف دينار جزائرى (تسعمائة الف سنتيم) ، وانما قدرنا بحسب وزن السبائك وسعرها ـ لا بحسب المضروب، ولا بحسب المحلى ـ لان المعتبر فى النصاب بالوزن ـ لا بالعد ـ اذا نقص الدينار أو زاد ، كما نص عليه الامام مالك فى الموطا ، ونص عليه الفقهاء ، ولان سبائك الذهب هي رصيد النقد الورقى ·

زكاة التجـارة :

زكاة التجارة تابعة لزكاة العين ، ومقدرة بها ، والتجارة ـ كما هـو معـلـوم ـ ادارة واحتكـار فالمحتكـر يترصد بعروضه الاسواق وينتظر ارتفاع الاثمان وزكاته تجب عليه اذا بـاع عروضه ، وكان قد حال على رأسماله الحول ، واما المدير فلا ينتظر بل يبيـع بالسعر الحاضر ، فاذا مر على رأسماله الحول قوم عروضه ، ثم ضم القيمة الى ما تحت يده ، وما فى خزائنه من مال ناض ، كما يضم الى ذلك ديونه الـتى له على الناس وقد حل أجلها ورجـا قبضها ، وأسقط ما عليه للناس مـن ديون فى ذمته ثم نظر فان وجد مالـه قد بلغ النصاب وجب عليه ايتاء الزكاة، وان وجده دون ذلك فلا زكاة عليه ٠

التقويم حسب السعر الحالى :

ويقوم التاجر عروضه قيمـة عـدل حسب قيمة البضائع يوم التقويـم ، لا يوم الشراء ، كما فهم بعض التجار وجادلوا فيه ، وهذا مفهوم من لفـظ (التقويم) ولو كان المعتبر سعر الشراء لما سمى (تقويما) وهذا بديهى ، وقـد نص عليه علمائـنـا ، قال البـاجى فى كتابه المنتقى ـ شرح الموطأ ـ ما نصه :

« مسألة ، والمدير يقوم عروضه قيمة عدل بما تساوى حين تقويمه لا ينظر الى شرائه وانما ينظر الى قيمته عـلـى البيع المعروف دون بيع الضرورة لان ذلك هو الذى يملكه فى ذلـك الوقت ، والمراعى فى الاموال والنصب حين الزكاة دون ما قبل ذلك وما بعده » اهـ (ج 2 صفحـة 125) ٠

المقـدار الواجب :

وأما المقدار الواجب فى زكاة العين فهو ربع العشر ، أو واحد على أربعين أو هو 2ر50 ٪ فالواجب فى عشـرة الآف دينار هو : 250 دينار ، وفى مائة الف دينار هو : 2500 د ج ، وفى مليون دينار هو 25٠000 د ج ، وهكذا ٠

المستحقون للزكاة :

ثمانية أصناف يستحقـون الزكـاة عينهم الله بصفاتهم فى قوله تعـالى : « **انما الصدقات للفقـراء والمساكيـن والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهـم وفى الرقاب والغارمين ، وفى سبيل الله ، وابن السبيـل فريضـة من الله** ٠٠٠ » فهذه الآية عينـت مصـارف الزكـاة وأهلها ، ولا يجوز أن تصـرف الى غيرهم ، دل عـلـى ذلـك مـا جـاء فى الحديث :

ان رجلا سأل الرسول صلى اللـه عليه وسلم أن يعطيه منها فقال : « ان الله لم يرض فى الصدقات بحكم نبى ولا غيره حتى جزأها ثمانية أجزاء ، فان كنت من أهل تلك الاجزاء أعطيتك حقك » رواه أبـو داود والـدارقطنى ـ واللفظ له ـ ٠ ولفظ الصدقة ان أطلق فى القرآن انصرف الى صدقة الفرض كما نص عليه القرطبى والفقير هـو الذى له بعض ما يكفيه ويقيمه والمسكين

لا شيء له فهو أسوأ حالا من الفقير ، وقيل بالعكس وكلاهما مستحق ٠

والعاملون عليها السعاة والجباة الذين يكلفهم الامام بقبضها وتوزيعها على مستحقيها يأخذون منها أجرتهم ولو كانوا أغنياء ٠

أما الغارمون فهم الذين ركبهم الدين ولا وفاء عندهم به ، ويدخل في هذا الصنف من أصابته جائحة ونزلت عليه كارثة كما يدخل من تحمل حمالة (ضمن في دفع دية للصلح بين الناس) وكذلك من أصابته فاقة ، دل على ذلك ما رواه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبيصة بن مخارق الذى تحمل حمالة وجاء بلطب من رسول الله أن يعينه عليها ، فأجابه الى ما طلب ، ثم قال : « يا قبيضة ان المسألة لا تحل الا لاحد ثلاثة : (رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك ، ورجل اصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى تصيب قواما من عيش ـ أو قال سداد من عيش ـ ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوى الحجا من قومه لقد أصابت فلانا فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش ـ أو قال سداد من عيش» اهـ ٠ فهذا الحديث نص فى أن من أصابته جائحة أو فاقة أو تحمل دية استحق أن يأخذ من الزكاة وحل له ذلك ٠

واما سبيل الله فانه اذا أطلق انصرف غالبا الى الجهاد حتى صار كأنه مقصور عليه فى الاستعمال ، قال مالك : « لا أعلم خلافا فى أن المراد بسبيل الله هنا هو الغزو ٠٠٠ » اهـ ٠ ومن الفقهاء من وسع فى معنى (سبيل الله) ففسروه بما يشمل سائر المصالح والقربات وأعمال الخير والبر ، نقله الرازى فى تفسيره عن القفال عن بعض الفقهاء انهم أجازوا صرف الصدقات الى جميع وجوه الخير من تكفين الموتى وبناء الحصون وعمارة المساجد لان قوله «وفى سبيل الله عام فى الكل» اهـ ٠

وحقق الاستاذ محمد رشيد رضا فى تفسير المنار ان سبيل الله هنا هو مصالح المسلمين العامة التى بها قوام أمر الدين والدولة ، يشمل سائر المصالح الشرعية العامة وأولها وأولاها بالتقديم الاستعداد للحرب ٠

ثم ان صرف الزكاة فى عمارة المساجد وفى المشاريع الخيرية كالمدارس والمستشفيات ومصانع الحديد والذخيرة مما صدرت به الفتوى من أهلها وشيوخها بمصر ، وبغيرها استنادا الى ما نقله القفال عن العلماء المجتهدين ٠

واما ابن السبيل فهو المسافر الذى انقطعت به الاسباب فى سفره عن بلده ومستقره وماله ، يعطى من الزكاة ولو كان فى بلده غنيا ولا يلزمه أن يشغل ذمته بالسلف ، وفسره الامام ابن شهاب الزهرى فى رسالته الى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بأنه يعطى (لكل

رجل راحل من ابن السبيل ، ليس له مأوى ولا أهل يأوى اليهم فيطعم حتى يجد منزلا أو يقضى حاجته) اهـ ٠ وذكر الشيخ محمد رشيد رضا فى تفسير المنار (ان اللقيط يوشك أن يدخل فى معنى ابن السبيل) وهذا بين واضح من القائه فى الطريق ، وذكر الدكتور يوسف القرضاوى فى كتابه (الزكاة) انه يشمل أيضا اللاجئين والمشردين من الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم وأصبحوا لا مأوى لهم ولا مال ، يريد بهؤلاء من أخرجهم الاعداء من بلادهم أ ومن طاردهم الحكام الظالمون ٠

استحقاق ضحايا الزلزال :

مما تقدم يتبين لنا ان ضحايا الزلزال، الذين أصبحوا فى حالة تفتت الاكباد ويكاد يبكى من هولها الجماد أحق الناس بزكواتنا فى هذا العام وغيره حتى ينجلى عنهم الكرب ، وهم يستحقونها بعدة صفات : بصفة الفقر والمسكنة لمن أصبح كذلك ، وبصفة الغارمين كما تقدم ونص عليه الحديث فيمن أصابته جائحة أو فاقة شهد له بها ثلاثة ، ولا جائحة أعظم من الزلزال ، ومن الخسف بالديار وابتلاع الارض لها ولاهلها ، وبصفة (سبيل الله) كما تقدم تحقيقه ، وبصفة ابن السبيل اذ أصبحوا بدون مأوى ولا مال مشردين فى فضاء الله ٠ ان الواجب على كل المواطنين والمواطنات أن يسخوا بأموالهم من الصدقات الواجبة ومن صدقات التطوع والتبرعات، وعلى أولى الامر أن يقبضوا ذلك وينظموه ويعطوه أهله من المستحقين المنكوبين ، وهم المسؤولون بالدرجة الاولى أمام الله ٠

هل تنقل الزكاة من موضعها ؟

لا حرج فى نقل الزكاة من موضعها عند الضرورة لهذا النقل كما هي نصوص العلماء المالكية وامامهم ، قال القرطبى : « قال ابن القاسم ـ أيضا ـ وان نقل بعضها لضرورة رأيته صوابا ـ وروى عن سحنون انه قال : « ان بلغ الامام ان ببعض البلاد حاجة شديدة جاز له نقل بعض الصدقة ـ المستحقة لغيره ـ اليه ، فان الحاجة اذا نزلت **وجب تقديمها على من ليس بمحتاج ، والمسلم اخو المسلم لا يسلمه ولا يظلمه » اهـ ٠ ونقل القرطبى أيضا عن بعض العلماء ان الذى لا ينقل انما هو حظ الفقراء والمساكين ، وأما باقى الاجزاء فانها تنقل ٠ وأقوى دليل على جواز نقلها ـ عند الحاجة ـ فعل عمر** ابن الخطاب رضي الله عنه ، واقرار الصحابة له ففى المدونة عن مالك ان عمر كتب الى عمرو بن العاص عام الرمادة (عام المجاعة) وهو عامله بمصر يقول : يا غوثاه ، يا غوثاه للعرب ، جهز لى عيرا يكون أولها عندى وآخرها عندك ، فأجابه عمرو ، وأغاث المسلمين فكان عمر يقسمها بينهم ويوكل على ذلك رجالا ٠ فالادلة على جواز تنقل الزكاة من موضعها ـ عند

الحاجة ـ متضافرة فى كتب المالكيـة المعتمدة وقول فقهائهم وامامهم ٠

يقول الدكتور يوسف القرضاوى فى هذا الموضوع :

« وهكذا تتكافل الاقاليـم والاقطـار الاسلامية فى ساعة العسرة ويلم بعضها بعضا ٠ ان أي بلد أو اقليم فى الدولـة الاسلامية الواسعة ليس جزءا مستقلا كل الاستقلال ولا ولاية منفصلة عـن سائر الولايات ، ولكنها ترتبط بالحكومة المركزية وبسائر المسلمين ارتباط الجزء بالكل والفرد بالاسرة والعضو بسائـر الجسد وهذه الوحدة والترابط والتكافل يفرضه الاسلام فاذا نزلت نازلة كمجاعة أو حريق أ ووباء ببلد كان أهله أحـوج الى العون ، واسعافهم الزم مـن ذوى الحاجات فى بلد الزكاة ٠٠٠ اهـ

يا غوثاه لمنكوبى الزلزال :

نقدم هذا بين أيدى المسلمين ايمانا منا بأن مصارف الزكاة تشمل هـؤلاء الضحايا لعدة صفات ، ويجوز أن تنقل اليهـم مـن أقصى الشـرق والغرب بنصوص فقهائنا وبعمل الصحابة وعلى رأسهم عمر بن الخطاب رضوان اللـه عليهم ، وبتحقيق العلماء الراسخين ، وانى أردد ما قاله أمير المؤمنين عمر :

يا غوثاه يا غوثاه ، لمنكوبى الزلزال وضحايـــاه ٠

الجزائر 9 من المحرم 1401 هـ



ثــــورة
1881 ـ 1883

د جيــلالى صــارى

بمناسبة الذكرى المائويــة الاولى للاحتفال بهذه الثورة التى تكاد تبقــى مجهولة من طرف الجمهور والتى تعــد خاصة آخر كفاح مسلح ضــد الجيوش الفرنسية بعد مقاومة استغرقت نصف قرن كامل ، يجدر بنا أن نتطرق الى أهم الجوانب للحركــة التى قادها محمــد ابن العربى المسمى بأبى عمامــة وهى تلك الشخصية الدينية التى استطاعــت أن تجند آخر الطاقات الشعبية لمحاربة جيوش كانت تستعد للاستيلاء على قسم كبير من القارة السمراء ...

وما ميدان هذه الثورة ـ الجنــوب الوهرانى بالتحديد ـ الا احدى أهــم القواعد للتوغــل الاستعمارى الفرنسى والسيطرة على الاراضى الافريقية وبهــذا التحديد الجغرافى تتجلى لنا أهمية ومغزى هذه الثورة بعد اخضاع شمال الجزائر وفرض النفوذ الفرنسى على القطر التونسى فى نفس السنة ... وكل هذا حينما كان العالم الاسلامى يحتفل بحلول القرن الرابع عشر ويحاول أو يحلم أن يقوم بانتفاضة كما تشير الى ذلك ثورة عربى باشا بمصر أو الاضطرابات المختلفــة داخل الامبراطورية العثمانية ...

كل هذا يحتاج الى تفكير وتحليل جديد بمناسبة حلول قرن هجرى جديد . وفيما يلى نود أن نبين فى هذا المقال الاول

الاسباب الرئيسية لثورة الجنوب الوهراني التي استطاعت أن تفاجئ المستعمر والتي كادت أن تكبده خسائر فادحة حينما اندلعت في ربيع 1881 (1) ·

ان تحليل الوثائق المتوفرة يبين بالاقل ثلاثة أسباب رئيسية وهي الاسباب السياسية والاسباب الاقتصادية والاسباب الادارية ·

1 ـ الاسباب السياسية :

تتمثل الاسباب السياسية في الدور البارز الذي قام به أولاد سيدي الشيخ واتباعهم في الاقليم وقسم كبير من الشمال الصحراوي داخل القطر الجزائري **قبل وبعد الاحتلال الفرنسي** ·

ففي الحالة الاولى استطاع أولاد سيدي الشيخ أن يفرضوا نفوذهم على المستوى السياسي بفضل وظيفتهم الدينية اذ انهم أسسوا زاوية بضريح سيدي عبد القادر ابن محمد المسمى بسيدي الشيخ والمدفون بالابيض (سيدي الشيخ) بجنوب الشاطئ الشرقي بالسهول العليا الغربية الوهرانية ، وهكذا ظل يتوافد على الضريح والزاوية معا بانتظام عبر السنين عدد كبير من سكان الاقليم والمناطق المجاورة شرقا وغربا ، فتعززت بذلك سلطتهم خاصة بعد تدعيم علاقتهم الشخصية بالمملكة المغربية في منتصف القرن التاسع عشر (تزوج احدى فتاة أولاد سيدي الشيخ بملك المغرب) ·

وعامل هذه السلطة المتزايدة لا يرتبط فقط بهذا الاشعاع الروحي بل يعتمد أيضا على أسس اقتصادية وثيقة فمقر الضريح والزاوية يشرف على الممر التجاري وكذلك على الاقتصادي الصحراوي وهو المصدر الرئيسي للثورة الاقليمية زيادة عن التبادلات المختلفة الموجودة بين القطرين الشقيقين من جهة، وبين الشمال والجنوب من جهة أخرى ·

وهكذا ندرك الاهمية الاقتصادية والدينية التي نجمت عن وجود مقر الضريح والزاوية في مثل هذا الاقليم الذي يمثل همزة وصل بين اقاليم واقطار تراقب علاقات تجارية لعبت منذ القدم دورا بارزا في تجارة قارتين ، القارة الافريقية والقارة الاوروبية ·

---

(1) مصادر ووثائق هذه الدراسة التي قمنا بها في اطار الابحاث التابعة للمركز الوطني للدراسات التاريخية ، هي معظمها من الارشيف الفرنسية الموجودة حاليا بمركز Aix-En-Provence.

وأملنا أن يقوم المركز الوطني للدراسات التاريخية بنشر الدراسة في اقرب وقت ممكن حتى يتيح المجال لوضع معلومات لدى جمهور وافر ·

واما بعد الاحتلال الفرنسي وبعد مناصرة الامير عبد القادر فان أحد ممثل أولاد سيدى الشيخ ، وهو سى عمزة بن ابى بكر قد تعاون مع السلطات الفرنسية ابتداء من سنة 1850 الى وفاته بالجزائر العاصمة . وهى وفاة مشبوه فيها فعزم بذلك ابناؤه على أخذ ثار أبيهم واستعدوا لشن مقاومة ضد المحتل وقد تجسم ذلك بالفعل باندلاع ثورة ابتداء من 1864 ، وهى الثورة التى سرعان ما شملت الاقليم وامتدت الى شمال القطاع الوهرانى والجنوب (2) . وسطا وشرقا الى اقليم الحضنى ، وكذلك بلاد القبائل الصغرى .

ولولا النجدات المتوافدة من فرنسا لكادت أن تعم هذه الثورة كافة القطر الجزائرى بالرغم من التخريبات الناتجة عن المقاومات الشعبية السابقة ، وان استطاعت النجدات أن تسيطر على الشمال وجزء كبير من الشمال الصحراوى فانها لم تتوصل بعد الاستيلاء على زعماء الثورة وقواتهم بالرغم من الكارثة الديموغرافية التى اصابت السكان من صيف 1867 الى ربيع 1868 (3) .

ان كل هذا لم يمنع زعماء الثورة من مواصلة الكفاح فى ظروف اقتصادية واجتماعية جد صعبة بحيث انهم تمكنوا من توحيد صفوفهم مع جمع التجانيين وشن معركة فى عين ماضى بالقرب من الاغواط وذلك فى غرة فيفرى 1869 وقد استطاع أن يجمع فى هذه المعركة ذلك السنديد سيدى الاعلى بن ابى بكر حوالى 6000 فارس و 3000 مشاة ، ان كل الظروف كانت تقريبا فى صالح المكافحين لولا تدخل سلاح فتاك يعد من أحدث الاسلحة بأوروبا الا وهو سلاح Chassepot الذى جرب لاول مرة فى هذه المعركة ، ولذلك لم يستمر القتال أكثر من ساعتين حتى انسحب سيدى الاعلى وجيوشه من ساحة المعركة ولكن استطاع أثناء الانسحاب أن يفر للكولونيل Sonis

وبالرغم من هذه النتيجة فان أولاد سيدى الشيخ لم يستسلموا وواصلوا

---

(2) انظر البحث القيم :

Rey-Goldzeiguer : *Le Royaume Arabe.* Alger, 1977, p. 276 - 310. *Le désastre démographique.* Alger, 1980.

(3) انظر بحثنا

L'Insurrection de 1864 *et ses rapport avec la dépression démographique de* 1867, Madjellat Et-Tarikh, Alger 1977, n° 1977, n° 4, p. 25 - 41.

المقاومة بعدة وسائل واستمروا فى التمرد طويلا بالرغم من اشتداد رد فعل المحتلين.

وهكذا يمكننا ان نقول أن ثورة 1881 ـ 1883 انما هى مواصلة كفاح قديم استغرق سنوات طويلة عبر الجنوب الوهرانى تحت قيادة أولاد سيدى الشيخ اذ ان محمد بن العربى من الفرع الغربى لاولاد سيدى الشيخ أى الفرع الذى حاولت السلطات الاستعمارية أن تضمه الى المملكة المغربية بمقتضى معاهدة لالا مغنية (1845) الخاصة برسم الحدود الجزائرية المغربية الشمالية .

2) **الاسباب الاقتصادية :**

تعود الاسباب الاقتصادية الى التوغل المفاجىء الى داخل الاقليم للاقتصاد الاستعمارى بعدما كان محدودا فى الجزء الشمالى فقط .

وكل هذا يرجع الى التوسع الذى ساهمت فيه الجمهورية الثالثة الفرنسية بعد اخماد ثورة 1871 ومخلفاتها فابتداء من ذلك التاريخ شهدت اراضى الشمال استطانة سريعة من طرف الاوروبيين تمثلت فى انشاء عدد هام من مراكز الاستطانة والاستلاء على مساحة واسعة من اخصب الاراضى كما أن استغلال الثروات الطبيعية الاخرى اجتاز مرحلة حاسمة ، بينما أن النظام السابق أى الامبراطورية الثانية تحت قيادة نابليون الثالث كانت تسعى الى بعض التوازن بين المستوطنين والعرب ، وكان نابليون الثالث يعارض توسع الاستطانة خارج التل عملا بسياسته : « الامبراطورية العربية » (4) .

وهكذا ندرك الفرق البارز الموجود بعد 1871 اذ أن التوسع الاستعمارى قد جاوز بسهولة التل وشرع ينتشر فى السهول العليا شيئا فشيئا وما هى العوامل التى ستجد به اذن خاصة وأن الظروف الطبيعية فى مثل هذه السهول العليا الوهرانية لا تتماشى والزراعة الجيدة ؟

---

(4) علينا الا ننسى وان هذه السياسة كانت تندرج فى مخطط واسع يشمل البحر الابيض المتوسط والشرق العربى كله اذ أن نابليون الثالث أراد أن يؤسس فيها دولة واحدة تحت قيادة الامير عبد القادر وذلك لمنافسة النفوذ الوطنى ، لكن الامير عبد القادر قد رفض ذلك ، انظر من أجل ذلك بحث المؤرخ

Ageron : *L'évolution politique de l'Algérie sous le Second Empire*. Information Historiquc, Paris, 1969, p. 165 - 172 - 211 - 216, 1970, p. 11 - 20.

ان هذه السهول العليا لا تخلو من أهمية فى الوقت الذى أصبح فيه الاقتصاد الاوروبى فى حاجة ماسة الى استغلال مواد أولية لتنمية صناعة الورق بعدما أصبح سعر المواد التى كانت تخصص لاجل ذلك وهى الاقمشة القديمة قد ارتفع فجأة ، وبما أنها أصبحت تعوض بالحلفاء فان هذه الثورة الموجودة بالسهول العليا الوهرانية مثلت أهمية كبرى فى ذلك الزمن لا سيما وأن سعرها اخفض من جهة ، ومزاياها من حيث الجودة لا مثيل لها من جهة أخرى ، وكل هذا دفع البلد الصناعى المتفوق أى بريطانيا العظمى الى استرادة متزايدة (5) .

لكن الشروع فى استغلال حلفاء السهول العليا يتوقف على شروط لابد من توفرها اذ ان تلك الاراضى ليست خالية من السكان ومن المستفيدين شرعا وزيادة على ذلك لابد من شق طريق لنقل الانتاج بثمن معقول ، ومن أجل ذلك شرعت السلطات فى العمل ابتداء من سنة 1873 ، ففى هذه السنة وبموجب اتفاقية 20 ديسمبر 1873 (6) منحت « الشركة الفرنسية الجزائرية » Compagnie Franco-Algérienne حق استغلال الحلفاء فى مساحة قدرت بـ 300 000 هـ بجنوب سعيدة (7) ومقابل هذا تتعهد الشركة بتحقيق الخط الحديدى الرابط ميناء أرزيو بمدينة سعيدة فى مدة تزيد عن ست سنوات .

وبالفعل فان المدة المحددة قد احترمت ووصل الخط الحديدى المقرر والبالغ 171 كلم الى سعيدة يوم 28 سبتمبر 1879 (الجدول التالى) ونظرا الى أهميته فان الاشغال تواصلت ولم تتوقف وهكذا أصبح الخط ينطلق بسرعة من سعيدة الى خلف الله وهو يبلغ 43 كلم فى فاتح جوان 1881 أى أثناء بداية اندلاع الثورة

---

(5) ففى سنة 1885 قد بلغت الاسترادة فى العالم 225000 هـ. واسترادة بريطانيا العظمى وحده 200000 ط.

(6) ونفس الشركة كانت تستغل 25000 هـ . بحوض وادى المقطع ، بين سيق ومحمدية .

(7) من المعلوم انه شرع فى التصدير ابتداء من سنة 1862 بالساحل الوهرانى وقد بلغ فى تلك السنة 450 ط. ثم 9000 ط. فى 1869 و54000 ط. فى 1875 حسب الارشيف الفرنسية 1788 ـ F 80.

مراحل انشاء الخط الحديدى

ارزيو ـ سعيدة	171 كلم	28 سبتمبر 1879	:	171 كلم
سعيدة ـ خلف الله	43 كلم	1 جــوان 1881	:	214 كلم
خلف الله ـ مصباح	24 كلم	1 جــوان 1881	:	238 كلم
مصباح ـ الخيثر	34 كلم	1 جـويلية 1881	:	278 كلم
الخيثر ـ الابيض	52 كلم	31 ديسمبــر 1881	:	324 كلم
الابيض ـ مشرية	29 كلم	1 ابــريل 1882	:	353 كلم
مصباح ـ مرهون	31 كلم	1 أ و ت 1882	:	381 كلم
مشرية ـ عين الصفراء	102 كلم	23 أ و ت 1887	:	483 كلم

وبذلك فــان هذا الخط الحديدى الذى كان لا يمثل فى أول الامــر الا غايـــة اقتصادية صــار يلعب دورا استراتيجيا بالغ الاهمية ولذلك واثناء صيف 1881 تولت الوزارة الحربية الفرنسية نفسها العملية وتمكنت فى أسرع وقـــت وفى ظروف طبيعية جد صعبة فى شق **115 كلم الرابطة مصباح بمشرية فى ظـرف 239 يـوما بينما أن المرحلة الموجودة بـين مصباح والخيثر والتى تبلغ 34 كلم تمتد فى ظرف 52 يوما فقط** وهو رقم قياسى (8) اذ ان المدة المحددة لذلك كانت 100 يوما ، وقد تطلبت هذه الاشغال نقل الماء من أماكن تبعد أحيانا 80 كلم اثناء حرارة الصيف ...

وعلينا ان نلح على أهمية هذا الخط فى تلك الاونة الحرجة أى أثناء العمليات الحربية اذ بفضله تم نقل النجدات ، والاسلحة والماء وغير ذلك ... كمـا سنراه فى المقال المقبل .

وقبل التعرض الى نص ذلك ندرك هكذا الاسبـــاب الاقتصاديـة لثـــورة 1881 ـ 1883 فان الاستيلاء على ثروات السهول العليا لم يتم بدون رد فعل من طرف المعنيين بالامر بالدرجة الاولى أى السكان الذين كانوا يستفدون دائما بها والتى كانت أهم مصدر اقتصادهـــم

---

(8) حسب أرشيف ولاية وهران ، وثيقة 2 أكتوبر 1881 لمدير الشركة الفرنسية الجزائريـة .

ووجودهم فانهم لم يقبلـــوا المعاهـــدة السابقة الذكر ورافضوا ما تعهد بـــه الوالى العام من الشركـــة الفرنسيـــة الجزائرية باسمهم جميعا ··· ولذلك حينما وصل المكافحين الى الورشات فى أوائل شهر جوان 1881 اضرموا النيران فى الانتاج وباقى المنشآت التابعة للشركة ··· وكل هذا يبين بوضوح العلاقـة الوثيقة بين تسلسل هذه الاحداث ابتداء من وصول الخط الحديدى والشروع فى قطف الحلفاء من طرف اليد العاملـــة الاسبانية ·

3 ـ الاسبـاب الاداريـة :

زيادة عن الاسباب المذكورة يستطيع كل ملاحظ ان يكشف أسبابا أخـــرى خاصة اذا امعن النظر طويلا فى الوثائق القديمة الموجودة بمقر ولاية وهـــران وبالتحديد الملف الذى احضره احـــد الضباط المشرف على مصلحة المكاتـــب العربية بمدينة تيارت (9) ·

فهذا الملف المخطوط يعطى لنا نظرة وجيزة ولكنها دقيقـة فى نفس الـوقت عن تصرفات احد المتعاملين مع الادارة وهو آغا قبيلة الاحرار (10) ، وهـو النموذج للاضطهاد فى شتى الاشكـال لا نستطيع أن نلخص مـا جاء فى هـذه الوثيقة التى اعتمد صاحبها على أدلـــة قاطعة تبين كلها بوضوح الحدود الاقصى التى بلغها الآغا أثناء مدة 15 سنة كاملة فعلينا ان نكتفى بالاشارة التالية ·

فقد حكم عليه الضابط كما يلى :

« كان يعتقد أن الاحرار قد وضعـوا تحت قيادة من أجل هدف واحد وهو تعظيم ثرواته ، وكان يظـن أن دخلـهم واملاكهم واحيانا حتى حياتهم هى ملك له وقد ترعرع ابناؤه تحت ظل هـــذه المبادىء » ·

وما هذه الخلاصة الا تعبير للظواهر التالية فالبنسبة لادارة الضرائب كان لا يصرح سنويا الا امتلاك 161 جمـلا و 2081 كبشا وثلاثة أحصنة بينما كان يملك 3000 جمـل و 8000 كبس ··· وأما كمية الحبوب فقد قدرت تقريبـا بحوالى 1600 قنطار اى ما يمثل انتاج ألف هـ ، فلنتخيـــل اذن المساحـات

---

(9) Empérauger : *Etudes sur les causes, les effets et les conséquences de l'insurrection de* 1881, manuscrit, *Archives de la Wilaya d'Oran, Oran* 1883.

(10) لا داعى الا ذكر اسمه ولقبه فغاية الدراسة هى تحليل موضوعى وليس الحكم على شخص معين بعد مضى قرن ·

الواسعة التى اغتصبها للسكان الضعاف والعرق الذى تطلبه المجهود لاخضاع العدد الكبير من الفلاحين لحرث وحصد المساحة المذكورة تقريبا بدون عوض وانما بالاجبار والقمع والسجن وغير ذلك اذ أن الآغا كانت له مطلق الحرية فى تصرفاته أثناء المدة المذكورة وبالضبط من سنة 1864 الى 1883 أى الى سنة توقفه عن الحكم ٠

« السرقة والاضطهاد » ذلك هو شعار هذا القائد حسب ما جاء فى قرار الضابط الفرنسى الذى ذكر عدة أدلة عن ذلك فمن جملة ما ذكر استشهد بما يلى ، فكان فى كل مناسبة وأثناء كل تنقلاته يأمر ويطالب بدفع الهدايا والتبرعات ، وأما استقباله خارج أراضه فكان لا يتم الا حسب قوانين معينة تكلف العائلات أموالا باهضة فعلى سبيل المثال علينا أن نذكر استقباله فى شهر جوان 1882 فى احدى العائلات المتواضعة حيث احضر له 8 أكباش ، والطعام ، و8 خيام مجهزة بأرفع الزربيات ، وكمية من الشعير لتغذية 40 حصانا بينما أن انتاج هذا الموسم كان ضئيلا جدا ويكاد أن ينعدم تقريبا ٠٠٠

هذا بما أن الآغا كان يزعم أنه من الصالحين أفرض على جميع الفرق والقبائل التابعة له مبلغا من النقود سنويا قدر بـ 500 ف٠ لكل قبيلة ، وبهذا الصدد علينا أن نتخيل كم بلغت تكاليف ذهابه الى مكة المكرمة من أجل « أداء فريضة الحج » فكم كان يبلغ العدد من الاشخاص الذين رافقه ، وكم بلغت قيمة الهدايا التى تبرع بها أثناء السفر وغير ذلك ٠٠٠ أهل كل ذلك كان من عرق الآغا ورفاقه ؟

وعلى مستوى آخر كان يلقى القبض على عدد كبير من السكان بدون سبب وانما من أجل هدف واحد وهو ٠٠٠ التفاوض مع عائلتهم لفرض ضرائب من أجل الافراج عنهم رحمة وشفقة منه ٠٠٠ ومن المعلوم أن السجن المعنى بالامر كان يوجد بالقرب من السوقر فى أراضى اغتصبت من أصحابها ٠

ولتعزيز ثرواته كان لا يخشى شيئا وكان يلتجىء الى عدة طرق فاذا كان الاشتراك الى الصحيفة الرسمية وهى « المبشر » لا يتطلب الا 10 ف٠ فانه كان يفرض على الجميع 60 و 65 ف٠ وأكثر من ذلك وكان يخصص لاغراضه الشخصية عددا لا بأس به من الحيوانات (من أحصنة وبغال) التى كانت السلطات الفرنسية تنزعها من أصحابها أثناء التجند العام لقمع ثورة 1881 ـ 1883 ،

وفي مناسبات أخرى كان يسرق عمدا السكان وكان يتم ذلك اما بسجن ... اصاحب الحيوانات المسروقة ... وما بدفع عوض لفائدة الآغا أي انهم يرغمون لشراء ما كانوا يمتلكونه من قبل وبثمن معقول ...

ذلك هو مختصر تصرف هذا المضطهد ومثل هذا التصرف لم يبق مجهولا لا من طرف الادارة ولا من طرف السكان ففي الحجة الاولى سكتت السلطات وذلك أن مثل هذا التصرف كان يتماشى وأهداف المستعمرة فقبلته ولم تحاربه ، ولم توقف الآغا الى في سنة 1883 أي بعد اخماد الثورة وبعد ما تأكد لها أن الآغا قد قام ببعض الاخطاء في بداية اندلاع الثورة وبعد ما اشتكى منه باشاغا فرندة ، وكان هذا الاخير أكثر نفوذا وصلاحية للسلطة نظرا الى تعاونه الطويل (أكثر من نصف قرن بدون انقطاع) ولا مشروط ...

ان مثل هذه التصرفات تبين في الاخير اقدام عدد كبير من السكان المظلومين للانخراط في صفوف ابن عمامة وبالفعل قد لوحظ ذلك في كل الحالات التي سمحت للافراد أن ينضموا الى القوات الشعبية حينما تخلصوا من قبضة المتعاملين مع الادارة ومن الجيش الفرنسي .

الخلاصة :

وهكذا فان هذا التحليل الوجيز يبرز لنا أهم الاسباب التي تفسر اندلاع الثورة التي تزعمتها شخصية متواضعة لم تلعب دورا سياسيا من قبل وانما قد خصصت حياتها الى العبادة قبل كل شيء وهل في ذلك تناقض وانفصال بين النشاط الروح والنشاط السياسي ؟ كلا ، فمحمد بن العربي كان يعيش في محيط معين وكان ينتمي الى قبيلة معينة كذلك ، وكان ينتبه جيدا الى مقومات هذا المحيط العام والخاص وكان كباقي رفاقه وكافة السكان يشعر باضرار الحكم البائد والتوغل المفاجيء للاستغلال الاقتصادي من طرف المعمرين وشركتهم التي غزت أراضيهم وتأهبت للاستيلاء على ثرواتهم .

اذن كانت هناك شروط موضوعية لهذه الثورة التي لم ينتبه اليه قط الوالي العام للجزائر اذ أنه في أحد تصريحاته القديمة أكد أن « عهد الثورات قد انتهى » (11) ...

---

(11) وذلك في أكتوبر 1879 .
نعالج في المقالتين التابعتين :
ـ أهم مظاهر ثورة 1881 ـ 1883 .
ـ نتائج ثورة 1881 ـ 1883 .

تطـور ولايـة باتنـة مـا بـين
1962 ـ 1978م

الاستاذ جلول مكى

ينتصب الاوراس كحصن بارز فوق المنخفضات الصحراوية لناحية بسكرة والزاب الشرقى ، وبين منخفض باتنة غربا ومنخفض وادى العرب وسهل العامرة شرقا ، فهو يشكل حاجزا طويلا يغلق على السهول العليا القسنطينية من الجنوب ، وهذا الحاجز الاخضر وسكانه الجبليون يضفيان على المنطقة طابعا خاصا ٠

فالاوراس هو امتداد لسلسلة الاطلس الصحراوى ولهذا فجباله متباعدة وقليلة الارتفاع ، فالكتلة تتجه برؤوسها نحو الشمال حيث توجد أعلى قمة بشمال الجزائر بجبل الشلية (2٠328 م) وجبل محمل (2٠321 م) وهذه القمم هي خط تقسيم المياه بين شمال وجنوب الكتلة الاوراسية ، فالسفوح الشمالية تنحدر بمقدار 1٠300 م على السهول العليا القسنطينية كما تنحدر السفوح الجنوبية رأسيا بمقدار 1٠800 م على حوض الشطوط الكبرى ٠

المنـاخ والنبـات :

الحرارة بالمنطقة مختلفة جدا ، فالفوارق الحرارية واسعة جدا بين فصلي الشتاء والصيف ، وبين الليل والنهار ، وتتسع هذه الفوارق كلما زاد الارتفاع ، فالثلوج تسقط أكثر من 20 يوما على ارتفاع أكثر من 1٠300 م بالسفح الشمالى وتبقى حوالى 3 أشهر بقمم جبل الشيلية ، وهذا لان السفوح الشمالية تخضع للمؤثرات البحرية كما تستفيد من عامل الارتفاع ، ولهذا فهي باردة ورطبة ، وأكبر كمية من التساقط

تنزل بالقمم التى يتراوح ارتفاعها ما بين 800 ـ 900 م وهذا بخـلاف السفـوح الجنوبية التى تخضع لمؤثرات المنـاخ الصحراوى الجاف الذى يصعد بعيـدا مع كل واد بالكتلة ، الامر الذى مكـن من ايجاد فلاحة النخيل ·

وبينمـا سكــان شمـال الاوراس « الجماعة » يتخذون الاجراءات اللازمة لمواجهة ما قد يترتب عن نزول الثلوج ، فاذا بسكان بلديات السفوح الجنوبية ، يعلنون عن نقص المياه ، وهذا التناقض هو نتيجة لوقوع الاوراس فى منطقـة التل بالصحراء ، ولا تشبهه فى وضعه هذا اية منطقة أخرى من مناطق المغرب العربى (1) ·

ومحطات الارصاد الجوية بالاوراس قلية جدا ، فتوجد محطة واحدة فقـط بأريس على ارتفاع 1100 م وقد سجلت المحطة هذه الارقام الحرارية :

متوسـط جانفى	جوليت	الدنيـا متوسط جانفى	القصوى متوسط جوليـت
5°,02	24°,6	8 – 0	(2) 32° – I

ونتيجة لاختلاف المناخ وتنوعـه ، فالنبات بالاوراس متنوع أيضا ، كمـا هو الشأن فى كامل القطر الجزائرى ، ورغم ان الاوراس يقع بعيدا عن البحر، فانه يبدو بمظهر كتلة خضراء وهـذا الامر يدعو للدهشة لعلمنا ان الكتلـة تقع بدائرة العرض الجنوبية وعـلى مشارف الصحراء وهذا الموقع عـادة قليل التساقط ·

فغابات البلوط تكسـو السفـوح الشمالية للاوراس ، وفى الاعلى منهـا توجد غابات الارز الجميلة التى تمتـد حتى تغطى القمم ، وامداد الغابات هذا على السفوح الشمالية يدل على صعوبتها على الانسان ، اما السفوح الجنوبيـة فتنمو فيها أشجار الغابات التى تفـره فى المناخ الجاف مثل العرعر والصنوبر الحلـبى ·

وغابات الاوراس اليـوم قليـلـة ، وتتالف من غابة الماكى (أشجار قديمة) ومن جنـبـات واحـــراج ، وذلـك لان الاوراس اخذت منه أشجاره منذ زمن بعيد ، وخاصة اشجار الارز الـــذى استغله الرومان ، واكلته القطعان ، كما

(1) *Géographie de l'Algérie.* Institut Pédagogique National, Alger 1967, p. 205.

(2) Jean Despois et René Raunal : *Géographie de l'Afrique du Nord-Ouest,* Paris 1967, p. 191.

استغلته حديثا الشركات الاستعمارية كثيرا ، واتى عليه الحريق اثناء حرب الاستقلال ، فتناقصت اشجاره كثيرا ، وما نبت منه نما فى غير انتظام ، اما غابات البلوط الخضراء فقد تناقصت هي ايضا كثيرا منذ زمن قديم لاستغلال الفحامين لها •

والمساحة الاجمالية للغابات فى الاوراس تقدر نظريا بـ 50٪ من المساحة الكلية للكتلة الاوراسية البالغة حوالى 110·000 هـ (3) وفى الحقيقة ان المساحة الفعلية للغابات بالاوراس هي اقل من 20٪ من المساحة • (4)

وأجمل غابة اليوم بكتلة الاوراس هي التى توجد على ارتفاع ما بين 1600 م الى 2000 م بالسفح الشمالى لجبال : عيدل ، والشيلية ، ومحمل ، حيث توجد غابات الارز الجميلة على مساحة تقدر بـ 400 هـ من المساحة الكلية لاشجار الارز بالاوراس البالغة 17000 هـ (5) •

والباقى من مساحة غابات الاوراس، تشغلها غابات البلوط الخضراء ، بالسفح الشمالى ، وبالمرات الجبلية، أما أشجار غابات الصنوبر الحلبى بالاوراس فتقدر مساحتها بحوالى 100·000 هـ (6) وتوجد على ارتفاع يتراوح ما بين 1000 م و 1400 م بغابة بنى وجنانة شرق جبل الشيلية ، وبغابة بنى ملول بالمنطقة الشرقية من الاوراس، وبغابة أولاد يعقوب بأقصى جنوب جبل أحمر خد بالمنطقة الجنوبية من الاوراس وهذه الغابات هي أجمل غابات الصنوبر الحلبى الموجود بالجزائر ، وفى الاعلى من هذه الاشجار تظهر الحلفاء •

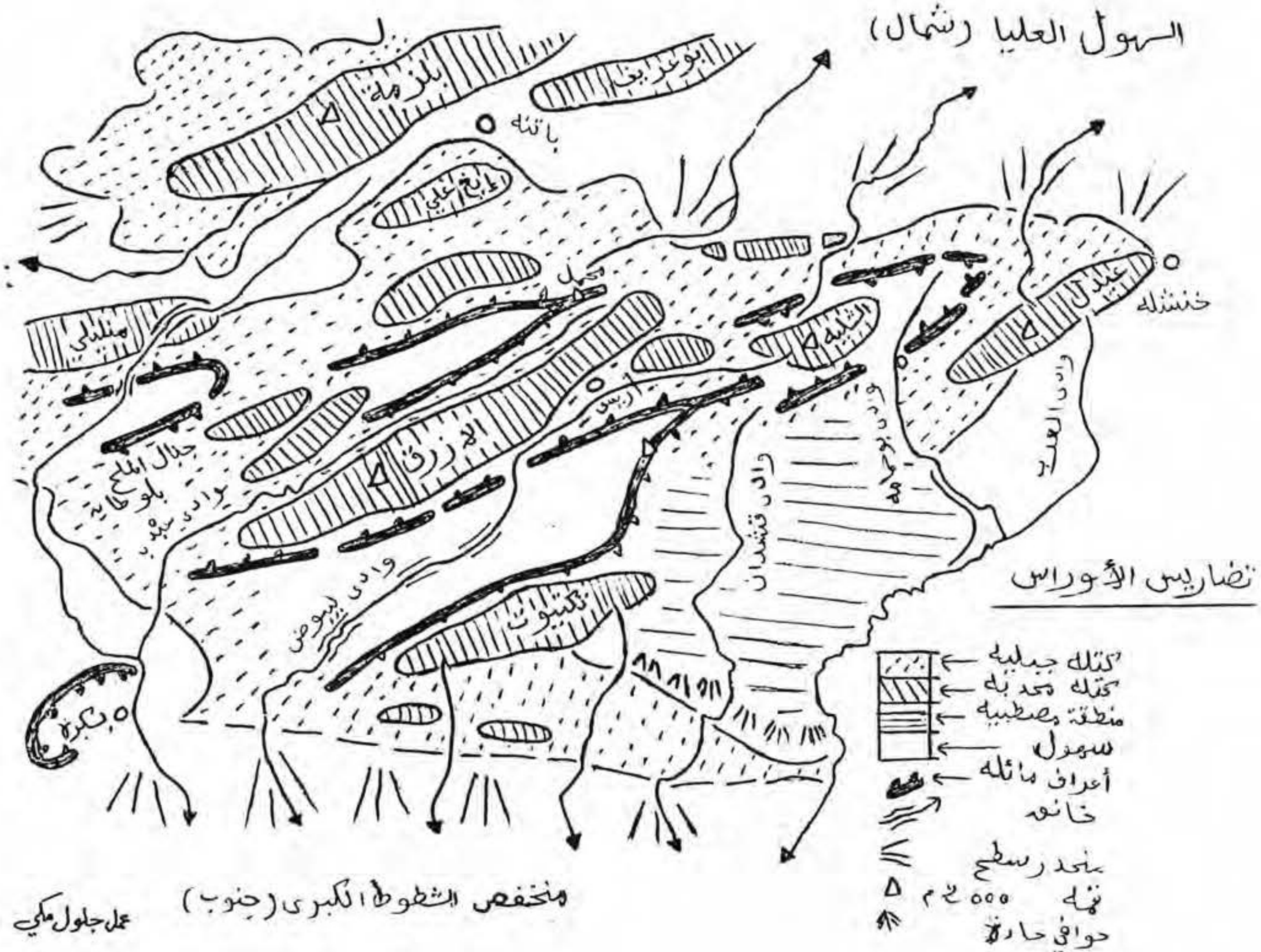
أما الشبكة الهيدروغرافية فهي تتالف من مجارى السيول المنحدرة من السفوح الجنوبية والتى تجرى فى أودية طويلة لتصب فى الصحراء ، بعد خروجها من آخر خوانق بالكتلة ، ولهذا فالاوراس صعب العبور بسبب حواجزه وخوانقه واعرافه المفصولة بالاودية العميقة التى حتت الى شعاب لها مناظر عجيبة تاخذ الانظار ، ولكن الدوران حول الاوراس ممكن ، ولهذه الميزات ثبت الاوراس أمام أعمال البدو الرحل واحتفظ بسكانه القرويين وباقتصاده الفلاحى الرعوى •

---

(3) Jean Modat : *Les Guides Bleus.* Algerie, Paris 1977, p. 475.
(4) *Géographie de l'Algérie,* p. 205.
(5) Collection (Visage de l'Algérie), la forêt algérienne. Madrid, Espagne, avril 1976 p. 31.

ملاحظة : مساحة غابات الاوراس تشمل ايضا كتلة بلزمة بالغرب من مدينة باتنة كما ان كثيرا من المناطق هي اليوم غير تابعة لولاية باتنة حسب التقسيم الاخير 1974 •

(6) *Visage de l'Algérie,* p. 31.


السهول العليا (شمال)
بوعريف
بلزمة
باتنة
خنشلة
شيليه
الأزرق
وادي لبيوض
وادي قشدان
وادي العرب
بسكرة
تضاريس الأوراس
كتلة جبليه
كتله محدبه
منطقة مصطبيه
سهول
أعراف مائله
خانق
منحدر مسطح
قمه ٢٠٠٠ م
حوافي حادة
منخفض الشطوط الكبرى (جنوب)
عمل جلول مكي

الاقتصاد التقليدى بالاوراس :

ان النشاط التقليدى الفلاحى بكتلة الاوراس تتحكم فيه عدة عوامل جغرافية ومناخية ، من أهمها التضاريس ، وطوبوغرافية السطح والمساحة الفلاحية والمناخ .

ان الكتل الجبلية والاودية والشعاب تحتل معظم مساحة كتلة الاوراس ولا تترك الا مساحة قليلة جدا للفلاحة اما بمنحدرات الاودية ، واما بالسفوح الشمالية والجنوبية وهذه المساحة الفلاحية سطحها غالبا مائل ولهذا قام الفلاح الاوراسى منذ القديم بتصطيب الاراضى الفلاحية المائلة وذلك ببناء العتبات لحفظ التربة من الانجراف وتمكين المياه من الوصول الى المزروعات لتغذيتها بكيفية شاملة وبهذه التقنية الفلاحية تمكن الفلاح من استغلال أية مساحة من الارض مهما كانت صغيرة والمحافظة عليها .

أما عال المناخ فهو لا يقل أهمية عن التضاريس فى تأثيره على نشاط الانسان، بل المناخ هو العامل الاكثر تأثيرا على النشاط الفلاحى والرعوى للانسان ، ولهذا قام الفلاح بالاوراس باستغلال كل أرض حسب نوع مناخها وما يناسبه من المزروعات التى تتاقلم مع هذا أو ذاك المناخ فعلى السفوح الشمالية قام الفلاح بالفلاحة البعلية التى تعتمد على التساقط فقط وبدون ري ، مثل الحبوب وأهم محاصيل الناحية القمح والشعير، واشتغل بحدائق الاشجار المثمرة والخضر بالاودية الوسطى من الكتلة الاوراسية وأهم محاصيلها هي الجوز والخوخ والمشمش والتفاح وأهم خضرها هي القرعة والبادنجان والطماطم هذا بالاضافة الى بعض المزروعات الصيفية مثل الذرة البيضاء (السرغو) والذرة الصفراء ، كل هذه الفلاحة بالاودية الوسطى على المنحدرات بالمصاطب ، وباستعمال الري صيفا وشتاء لري الحبوب والاشجار المثمرة مثل التين والخوخ والحمضيات ، والمشمش الذى يجفف لغرض التسويق ، أما بالاودية الجنوبية المنخفضة حيث المناخ الصحراوى الجاف اشتغل الفلاح بحدائق أشجار النخيل مع شىء من الحبوب بالمصاطب أيضا ، وهذه الفلاحة تمتد على شكل أشرطة بالاماكن الاكثر انخفاضا لكي تتستفيد من الري بماء الوديان .

وبما أن المساحة الصالحة للفلاحة محدودة ، فان قطع الارض صغيرة جدا بالاوراس ، ولهذا فهي شىء ثمين جدا مثل الماء فى هذه المنطقة الجبلية ، فعمل الفلاح على بناء المصاطب وتسميد الارض ، وهكذا صارت الفلاحة فى هذا المكان فلاحة كثيفة أشبه شىء بالبستنة مع ان مردودها قليل ، وهذا الامر هو الذى جعل سكان الاوراس يملكون عدة قطع من الارض فى أماكن متفرقة غالبا ما تكون القطعة بعيدة جدا عن الاخرى،

الامر الذى اضطر الفلاح الى التنقل دائما بين أملاكه كما اضطر كثيرا من الاوراسيين الى جعل سكناه وسطا بين أملاكه الموزعة ، فالمنزل يبعد عن أشجار الارز بالشمال بنحو 30 كلم حيث توجد قطعة أرضه ، ويبعد أيضا هذا المقر بما يقارب 30 كلم عن النخيل بالجنوب حيث يوجد ملكه والنتيجة لهذا الوضع الجغرافى لاراضيه فهو يحصد القمح فى شهر أفريل بالجنوب وفى شهر ماي بالوسط وفى شهر جوان بالشمال ٠

تربية الماشية :

ان العوامل الجغرافية والمناخية ، والتربة هي التى تتحكم فى حرفة الرعي مثل التضاريس وقلة التساقط ونوع التربة ووضع الاراضى بحيث لا يمكن استغلال هذه الاراضى فلاحيا ٠ واذا كان معظم مساحة الاوراس تشغلها الكتل الجبلية والاراضى الفلاحية قليلة وتوجد بالسفوح والمنحدرات والاودية، وما تبقى من المساحات بالقمم والمنحدرات الشديدة والاراضى القليلة التساقط والتى لا يمكن ريها استفاد منها السكان بطريقة الرعي وهكذا قرن سكان جبال الاوراس فلاحتهم التقليدية المعاشية بتربية الماشية وخاصة الغنم والماعز مستخدمين فى ذلك حركة الانتجاع الافقية بين السفوح الشمالية والجنوبية للكتلة الاوراسية أو بحركة الانتجاع الرأسية بين القمم والاودية وهكذا جمع السكان المقيمون بالاوراس بين حياة المستقرين وبين حياة الرعاة أشباه الرحل ، فالعائلات الفقيرة تملك قطيعا صغيرا من الماعز تقوم بتربيته فى نواحى القرية ، أما العائلات الثرية فتملك قطيعا من الغنم يتراوح عادة بين 50 ـ 100 رأس وهذا القطيع الكبير نسبيا يحتاج الى الانتجاع ٠

وتدرج مناطق الجغرافيا الحيوية بالجبل فرض على الحياة الرعوية التنقل بين السفح والقمة ، فالقطيع فى فصل الشتاء يغلى بسهول سفوح الجبال الصحراوية أو بالسفوح الشمالية أو بالاودية لان القمم فى هذا الفصل تكون مكللة بالثلوج ويصعد هذا القطيع فى فصل الصيف الى المراعى الجبلية العليا الخضراء لان مراعى السفوح والاودية تكون قد استنفذت ويبست ويصحب هذا القطيع راع أو بعض أفراد العائلة، ونتيجة لهذه الحركة الرأسية وخاصة بالقسم الشمالى من الاوراس أدت بالكثير من العائلات الى امتلاك مقرين : مقر بالوادى وآخر بالجبل ، وهذا مكن الفلاح المربى من أن يتجنب قساوة المناخ فيقيم بالوادى فى فصل الشتاء فرارا من صبارة القر ، لان القمم تكون باردة جدا ، ويقيم بالصيف فى أعلى الجبل هروبا من حمارة القيظ ، لان الوادى يكون حارا جدا ٠ ولكن هذه الحركة بدأت تقل شيئا فشيئا الى أن الى أن اختفت اليوم تقريبا ٠

نشــاط سكــان القرى :

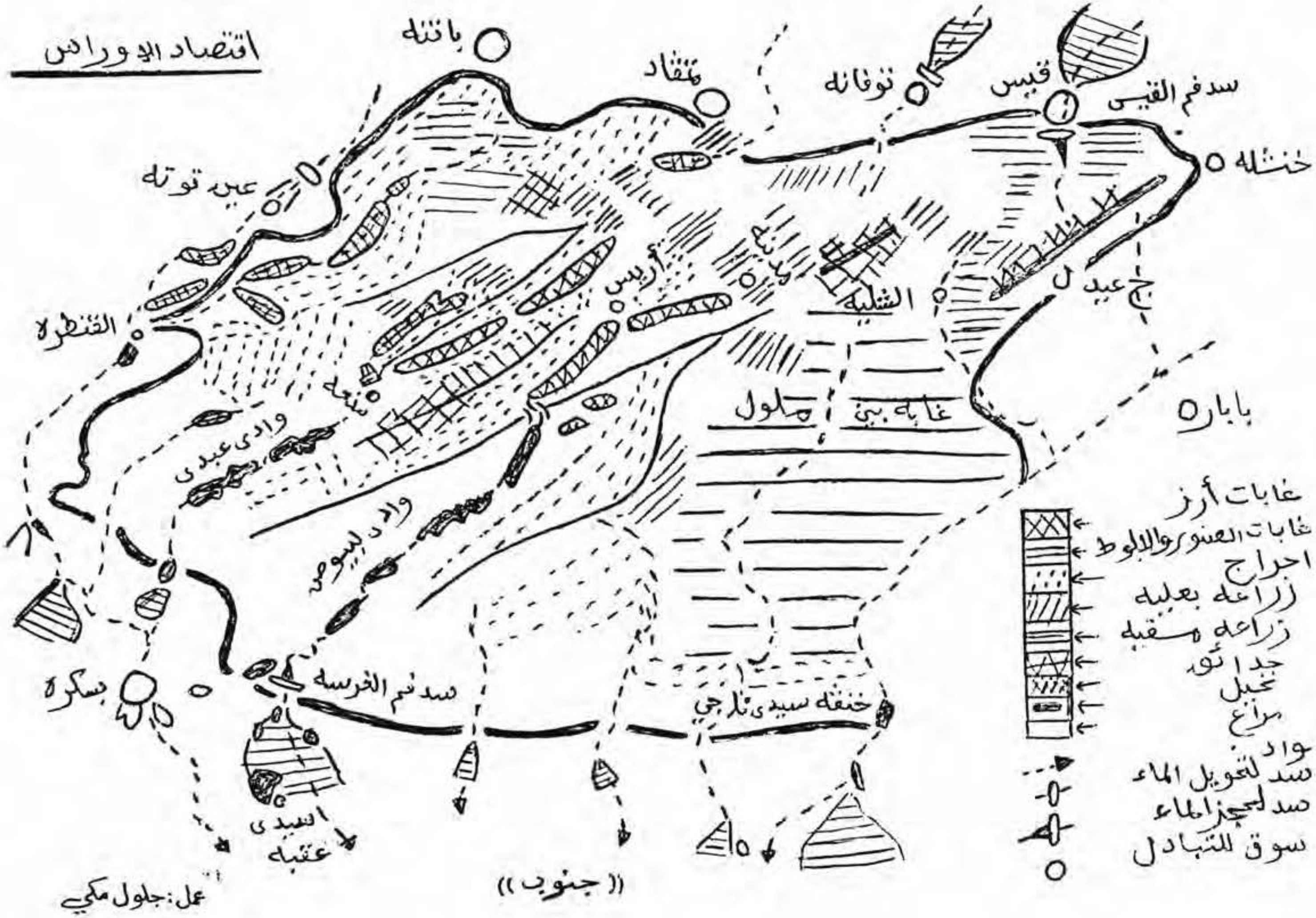
المقيمون بقرى الاودية العليا بالقسم الشمالى من الاوراس وهي منطقة باردة يعتمد سكانها فى حياتهم على اقتصاد فلاحى رعوى لاشباه الرحل ، فبعـض منهم ما زال يغادر قراه عنـد بدايـــة سقوط الثلوج ، ويسوق قطيعه المتآلـف غالبا من الانعام الصغيرة الى السفح الشمالى ، أو الى أطراف الصحراء ، مستخدما البغال فى تنقله هذا ، ويسكن اما خيمة صغيرة أو كوخا ، أو مغارة ويبدأ الصعود حثيثا للعودة الى القرى فى أول الربيع لغرض البذر للزراعـــة الصيفية مثل : الذرة البيضاء (السرغو) والخضر ، التى تكون أمــام القــرى ، فالحقول فى هذه المنطقة بدون حواجز، ويستعمل الفلاح المحراث وثورين لجره، ويحصد غلته فى شهر جوان ، أو تكون هذه العودة لحرث الحدائق الصغيـرة لاشجار الجوز والتفاح والخوخ ، أما القطعان المتكونة من الغنم والماعـــز فترعى بنواحى القرية حيث تصطـــاف بالمراعى الجبلية مصحوبـة بعائلــــة الــراعى ·

وهناك من سكان القرى من يملـــك قطيعا كبيرا من الاغنام وهذا ما يضطره الى الانتجاع بقطيعه والتنقـل دائمـا شمالا وجنوبا بين السفحين الشمــالى والجنوبى مثـل أولاد عبـدى ، وأولاد داود ، كما ان هذا التنقل يكون أيضـا فى نفس الوقت لاجل الحرث والحصاد وري حدائقهم وأحيانا يكون للعمل فى أشغال الغابة بجبل الشيلية وفى غابـة سكاك شرق عين التوتة بواسطة البرنامج الخاص لولاية الاوراس سنة 1970 حيث تقوم الدولة اليوم بأعمال تجديد أشجار الارز باعادة تشجير الغابة ·

وهكذا يقوم هؤلاء السكان بحركـة التبدى التى فى الحقيقة ما هي الا شكلا من أشكال الحياة تباشره هذه الجماعة للبحث عن عشب جديد لتربية مواشيها أو للعمل ، وبهذه الحركـة تتـم دورة حياتها السنوية العاديـة المتمثـلة فى رحلتي الشتاء والصيف على أن تستأنفها فى العام القادم · وهكذا دواليك ، ولكن هذه الرحلة قصيرة وتتم فى منطقـــة محدودة خلافا لما يقـــوم بـــه بـــدو الصحراء ·

أما سكـــان قــرى الاوراس الشرقى فيشتغل بعضهـم بالفلاحـة ، والبعض الآخر يحترف الرعي ، باستعمال حركة التنقل الراسى بين القمـم والاوديـــة بالاضافة الى العمل فى أشغال تجديد غابة الصنوبر لبنى ملول ، وهذا بواسطة البرنامج الخاص لولاية باتنة سنة 1970م بينما يقوم سكان قرى الاودية الوسطى بالاوراس بفلاحة الحقول والحدائق على المصاطب مستعملين الري صيفا وشتاء لري الحبوب وأشجار الفواكه مثـــل التين والخوخ والحمضيات والمشمـش بالخصوص ، والى جانب هذا النشاط الفلاحى يربى الفلاح قطيعا من الغنـم

اقتصاد الأوراس



والماعز على مراعى القرية أو علـى الحافة الصحراوية فى فصل الشتـاء وعلى مراعى الجبل فى الصيف ٠

أما سكان قرى الجنوب بالاوراس وهي منطقة حارة وتقع على مستـوى أقل من 800 م فيعتمدون فى معيشتهـم على أشجار النخيل ، مع شىء مـن الحبوب بالمصاطب أيضا وباستخـدام الري من ماء السـدود وخاصـة أولاد زيان بوادى برانيس ويستعمـل الفلاح فى هذه المنطقة محراثا بسيطـا مـن الخشب يدعى (الجابدة) يجرها حصان أو بغل واحد ويحصد غلته فى شهـر أفريل ، ولا يوجد الزيتون الا فى غربى الاوراس ، عنـد أولاد عبـدى ، وبنى فراح ٠ وأهم تجمع سكانى بهذه المنطقة الجنوبية من الاوراس همـا : مشونش و جمـورة ٠

وبناء على هذه المناطق الاقتصاديـة المتنوعة يكن اعتبار الاوراس اقليمـا جغرافيا كل منطقة لها نوع اقتصادها ، فالشمال الشرقى من الاوراس غـابى وتتوفر فيه أعمـال تجديـد الغابـة ، والاوراس الشرقى تكسوه الاشجـار ويعتمد اقتصاده على تربية الماشية ، أما الاودية الوسطى من الاوراس : وادى عبدى ـ البيوض فيعيش سكانها على الحدائق ، وبشىء من الصناعة الحرفية التقليدية لبيعها للسواح ، أما الجنـوب الاوراسى فيعيش على نخيله وقطعانه ٠

القـرى بالاوراس :

عادة تكون صغيرة ، يتراوح عـدد سكانـهـا مـا بيـن 200 ـ 500 ن ففى الاوراس الشرقى تشيـد الضيـعـات الصغيرة والكبيرة على أطراف الغابـة كما توجد بعض القرى على شكل كهوف، وتتميز مساكن هذه القرى بأنها تشيد على مصاطب متدرجة ، كما تتميـز جدرانها بأنها بنيت من الطوب ، كمـا توجد أيضا تجمعات سكانية من الاكواخ التى تتألـف سقوفـها مـن القش ، أو أغصان الاشجار ، ويتألف المسكن عادة من بيت واحد أو ثلاث بيوت مع حضيرة يتوسط هذا المسكن حوش ، والى جانب هذا توجد بعض المنازل الموسرة التى تتألف من طابق واحد ٠

وبعض القرى تشيد على قمم الجبـال المعزولة فهي أشبه ما تكون بأعشـاش النسور ، أو تشيد على حافة رأسيـة لواد عميق فالقرية بموقعها هذا فـهي تمثل مركز مراقبة ، وهي فى نفس الوقت حصن منيع على المغيرين ٠

أما قرى أشباه الرحل بسهول سفوح الجبال الشمالية أو بسهول سفـوح الجبال الجنوبية ، فهي تتألف من ضيعات تتكون من أكواخ الطين أو أكواخ القصب المؤقتة ، وهناك من السكان من يستعمل الخيمة مسكنا له قرب أرضه ، وقد يتخلى السكان عـن قراهـم لعامـل اقتصادى كتعاقب سنوات القحط أو بعد الاسواق عنها ، وهذا شكل من أشكال الحيـاة

لحضارة قرية (ريفية) عتيقة لقبائل امازيغ الجنوب ما زالت من بقاياها اليوم لغة الحديث وفلاحة المصاطب ٠

وبعض القرى تبنى لها حصنا (قلعة) على راس اقرب جبل اليها ، يشتمل على عدة غرف يتوسطها حوش ، تستخدم هذه الغرف مخازن للمؤونة التى تستعمل فى أعوام القحط ، وهذه القلعة (تاقليعت) هي ملجا فى وقت الخطر ينفر اليه عند أول هجوم ، وهي فى نفس الوقت مركز للمراقبة ، والداعى الى اقامة هذا الحصن هو كثرة الحروب وعدم الاستقرار اللذان شاهدتهما المنطقة فى العصور الخالية ، وهذه القلعة لا تختلف فى شكلها ومهمتها عن (اقادير) بجنوب المغرب الاقصى وعن (القصر) بتونس وطرابلس ٠

أما المدن الهامة بمنطقة الاوراس فهي المدن التى تقع بمحيط الكتلة مثل بسكرة وخنشلة وباتنة فهذه المدن هي أسواق هامة للتبادل التجارى مع المناطق الاخرى البعيدة عن الكتلة ، وسيتناول هذا المقال مدينة باتنة كنموذج لمدن منطقة الاوراس ٠

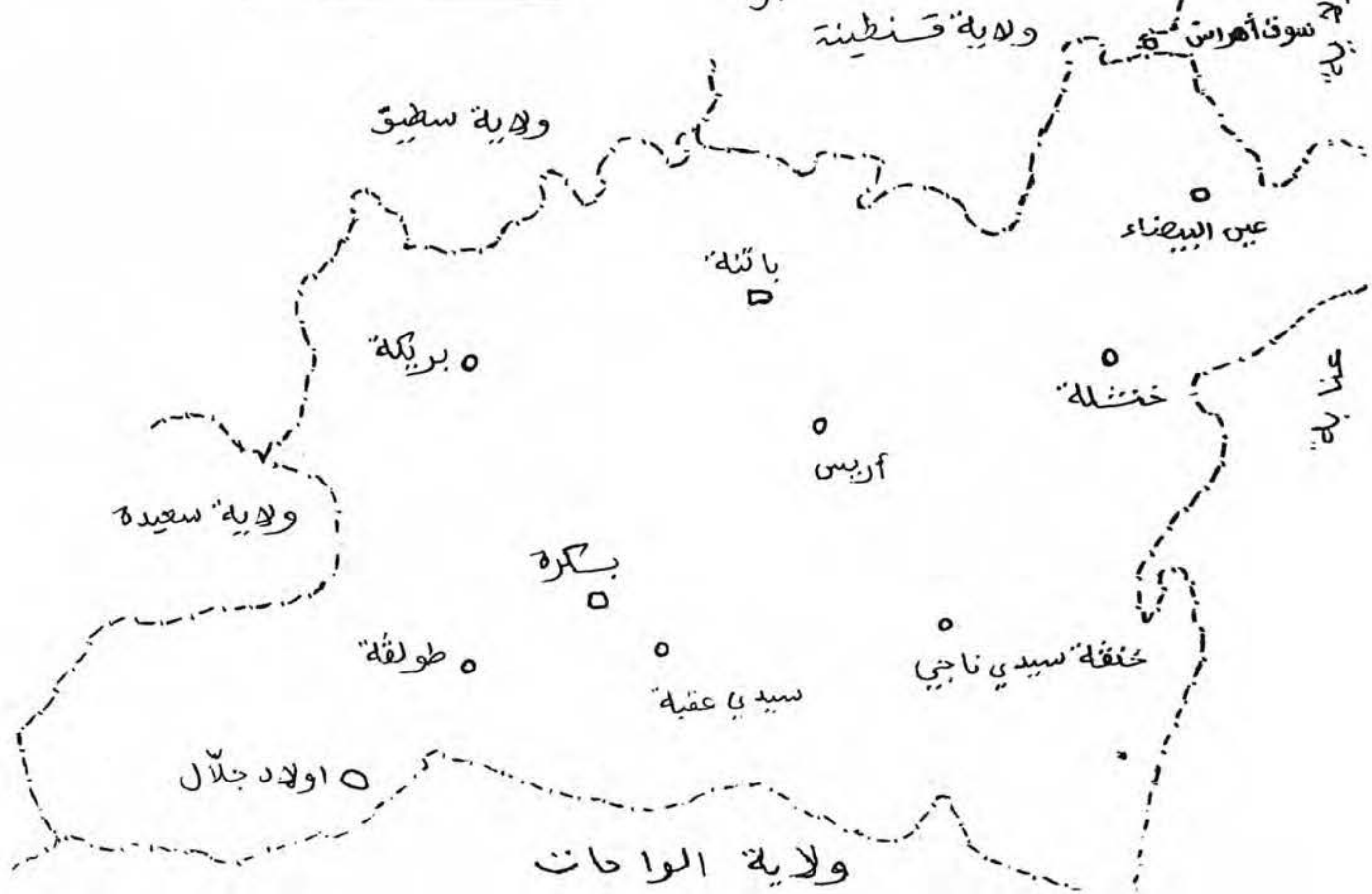
مدينة باتنة :

لقد بناها الجيش الفرنسى سنة 1844م عندما توجهت الحملة الفرنسية الى بسكرة لتكون مقرا للحامية التى تحمى الطريق الرابط بين التل والصحراء ، ولتكون قاعدة عسكرية لمراقبة الاوراس، وبعد شهرين من بقاء هذا المركز نقل الى الشرق من المكان الاول للتاسيس بنحو كيلومترين ثم بعد ذلك تجمعت حوله المنازل ، وصار هذا التجمع السكانى يدعى باتنة ٠

والمدينة خططت على مساحة مستطيلة الشكل لها انهج واسعة ، وتقع عند نقطة اتصال الاوراس بالسهول العليا القسنطينية ، بسلل يرتفع بـ 1054 م عن مستوى سطح البحر ، تغذيه عدة ينابيع، ومناخه قارى صعب ، فالشتاء بارد جدا ، كما ان الصيف حار جدا ، ويظهر هذا فى الفوارق الحرارية اليومية والفصلية بين الليل والنهار والشتاء والصيف ، واخذ هذا السهل اسم المدينة بعد ذلك ، ويعتبر السهل الممر الرئيسى للبدو الرحل للمنخفض الشرقى الكبير للصحراء الجزائرية ٠

وبمرور الزمن تحول هذا التجمع السكانى الى مدينة هامة لها وظائف متعددة فهي مقر للحماية العسكرية الفرنسية ، وسوق هامة عند اتصال الجبل بالسهل ، وهي مقر للاصطياف تقصده العائلات الموسرة لناحية بسكرة والزاب وفى نفس الوقت المدينة مقر لدائرة ادارية واسعة من الدوائر الستة لولاية قسنطينة الولاية الثالثة بالجزائر فى العهد الاستعمارى ، وكانت تشمل 10 مقاطعات ادارية منها 6 بلديات مشتركة ، بلغت مساحة الدائرة

ولاية باتنة تقسيم 1965



عمل: جلول مكي


عنابة
سكيكدة
جيجل
بجاية
تيزوزو
البليدة
الاصنام
مستغانم
معسكر
بلعباس
سعيده
تاهرت
المدية
بويرة
سطيف
قسنطينة
قالمة
باتنة
تبسة
مسيلة
الجلفة
بسكرة
لغواط
ورقلة
بشار
أدرار
تامنراست
تونس
عمل : جلول ملي


ولاية باتنة، تقسيم 1974م
أم البواقي
سطيف
مسيلة
بسكرة
تبسة
حدود ولائية
حدود دائرة
حدود بلدية
مقر ولاية
مقر دائرة
بلدية
مسيل
أولاد سليمان
راس العيون
سي سليمان
نقاوس
عين جاسر
سريانة
عين ياقوت
واد الماء
تقسلنت
باتنة
المعذر
شمرة
أولاد فاضل
تيمقاد
قيس
فايس
لمبيز
وادي طاقة
عين توتة
سيقانة
بريكة
بيطام
مدوكال
القنطرة
عين زعطوط
منعة
بوزينة
ثنية العابد
أريس
مدينة إشمول
تكوت
بوحمامة
عمل: جلول مكي

24·893 كلم وسكانها 353·237 نسمة منهم 9·435 أوروبى (7) ·

أما التقسيم الادارى الذى وقع فى عهد الاستقلال سنة 1965 م وقسمت بموجبه الجزائر الى 16 ولاية فكانت مدينة باتنة مقرا لولاية واسعة الاطراف هي ولاية الاوراس ، وكانت تشمل يومئذ 6 دوئر ادارية هي : باتنة ـ أريس ـ بسكرة ـ بريكة ـ مروانة ـ خنشلة ، وقد بلغت مساحة الولاية آنذاك 35·893 كلم ، وسكانها 893·800 ن بكثافة 24 نسمة فى كلم أما سكان المدينة فبلغوا 69·000 نسمة سنة 1966 م (8) ·

أما التقسيم الادارى الثانى الذى وقع سنة 1974 م وقسم بمقتضاه القطر الجزائرى الى 31 ولاية ، فبقيت مدينة باتنة مقرا للولاية الخامسة وهي ولاية باتنة وتشمل 7 دوائر هي : باتنة ـ قيس ـ أريس ـ عين التوتة ـ نقاوس ـ مروانة ، وتشمل 34 بلدية (9) ، مساحتها 13·837 كلم وبلغ سكانها 556·898 نسمة سنة 1977 م والكثافة 41 ن فى كلم (10) ، وارتفع هذا العدد فى شهر جانفى 1978 م الى 589·146 نسمة (11) ·

الهجرة من الاوراس :

لقد امتزجت عناصر السكان ببعضها البعض بمنطقة الاوراس منذ القديم كما هو الحال فى جميع مناطق العالم ولا يوجد تمييز بين الشاوية سكان السهل العليا وبين الشوية سكان جبال الاوراس لان هؤلاء يغمرون السهول العليا ·

وما زال سكان الاوراس يباشرون نمطا من أنماط حياة مجتمع قبلى قديم، هو المجتمع الامازيغى بمساكنه المدرجة، ولهجته وتقاليده ، كما احتفظ أيضا بحقه فى حل نزاعاته بنفسه ، وبفكرته الاستقلالية المشهورة · وهذا لان الاوراس استمر عبر القرون الماضية ملجأ للاهالى وحصنا منيعا على المغيرين ، ولهذا لم يخضع سكان الاوراس للغزاة حكام الجزائر طيلة تاريخهم ، وايام الاحتلال الفرنسى للجزائر ظلت المنطقة قاعدة للمقاومة الوطنية ، ويشهد بذلك الثورات المتعاقبة التى عرفتها المنطقة مثل ثورات : 1850

(7) Aristide, Guide. Dictionnaire Encyclopédique, Paris 1934, p. 386.

(8) كتاب الجزائر فى أرقام ـ الجزائر 1974 ـ اللجنة الوطنية لاحصاء السكان ·

(9) Division Administrative de l'Algérie par wilaya, Secrétariat d'Etat au Plan, Avril 1975.

(10) Renseignement général de la population et de l'habitat du 12 février 1977. Secrétariat d'Etat au Plan.

(11) معلومات وزارة الفلاحة والثورة الزراعية ·

ـ 1859 ـ 1879 ـ 1916 ـ 1954 م وفى فترة الوجود الفرنسى بالبلاد لم يهتم به المعمرون ·

وأهمية الاوراس هذه التاريخية والبشرية والاستراتيجية يرجع قسم كبير منها الى أن الاوراس بقى مدة طويلة عالما منغلقا على نفسه تحميه حواجزه وأوديته العميقة المنيعة ، ولم تكن هناك طرق مواصلات بالكتلة الاوراسية باستثناء بعض المسالك الجبلية التى أوجدتها القبائل أشباه الرحل بواسطة قطعانها المتنقلة بين شمال وجنوب الكتلة ·

وهكذا استمر نمو السكان بمنطقة فقيرة حتى اكتضت بسكانها حيث بلغوا 500·000 نسمة بكثافة 30 ن فى كلم سنة 1966 (12) ومستوى متوسط دخل الفرد السنوى منخفض جدا : (360 دج بالواحات ـ 250 دج بالسهول العليا 180 دج بالاوراس (13) ·

وهكذا لم يجد سكان المنطقةمخرجا من فقرهم وبؤسهم الا بالهجرة من المنطقة اما الى أوروبا وخاصة الى فرنسا ، واما بالهجرة الى أنحاء الوطن وهذه الهجرة الاخيرة معقدة جدا وكان سببها الرئيسى هو حرب التحرير التى اندلعت نيرانها من المنطقة وذلك لما اجتمع مجلس التسعة بقرية أولاد موسى بأريس حيث وزع مصطفى ابن بو العيد الاسلحة على المجاهدين وقرر المجلس أن يبدأ العمل بالثورة صباح أول نوفمبر سنة 1954 م ، وذلك بقتله للمعلم الفرنسى منيرو Monnerot

وقائد مشونش الحاج الصدوق ، وحدث هذا لما تعرض الثوار لحافلة الركاب عند التقاء وادى احمامة بوادى البيوض بالمنطقة الشرقية من الاوراس ، وهكذا بدأت حرب الجزائر التى دامت ما يقرب من سبع سنين ونصف وانتهت بالاستقلال (14) ·

وكان لهذه الحرب أهمية كبرى فى حياة المنطقة اذ فتحتها على العالم الحديث ، فالحاجة العسكرية أدت الى بناء شبكة من طرق المواصلات البرية فى كل جهة من جهات الكتلة ، حتى وصلت الطرق الى القرى الموجودة بالمناطق الاكثر صعوبة والاكثر بعدا بالمنطقة ، وهذه الطرق هي التى فتحت هذه المنطقة التى كانت منغلقة على نفسها منذ زمن بعيد على العالم الحديث، فهذه لالطرق استخدمتها بعد الاستقلال حافلات الركاب والسيارات والشاحنات للباعة المتجولين وهكذا نشطت حركة التبادل التجارى والحضارى فى الاسواق

---

(12) Despois, p. 192.
(13) *Géographie de l'Algérie*, p. 209.
(14) *Les Guides Bleus,* op. cit., p. 195.

الواقعة شمال كتلة الاوراس خاصة ·

فهجرة سكان الاوراس أثناء حرب التحرير (1954 ـ 1962 م) حدثت الى مدن خنشلة ـ باتنة · أما بعد هذه الفترة فالهجرة تمت الى مدن أبعد من المدن السابقة ، لاجل العمل والتجارة والخدمات الاجتماعية وللترفيه مثل الهجرة الى قسنطينة والعاصمة ، ووقعت هذه الهجرة بتعويض وتمت على مراحل فالعائلات الريفية المهاجرة من الاوراس تستقر فى مكان العائلات القديمة التى تنتمى اليها بقرابة والتى كانت فى باتنة أو خنشلة وانتقلت الى قسنطينة أو الى العاصمة وهذا النوع من الهجرة يمثل غالبا خروجا للنخبة ولرؤوس الاموال من المنطقة وهذا يعد خسارة بشرية ومالية كبيرة للناحية ·

كما أثرت الهجرة أيضا على عدد السكان بالمنطقة فمجوع عدد المهاجرين من المنطقة ومجموع عدد الخسائر البشرية لحزب التحرير الوطنى تسببت جميعها فى نقصان من 10 الى 30٪ من سكان بلديات الاوراس الشرقى، بينما زاد عدد سكان الاوراس الغربى بالهجرة اليه لوجود المدرشة والتجارة، أما الارياف ، فان ثلاثة أرباع 4/3 مداشر الاوراس افتقرت من سكانها وهذه ظاهرة هامة فى التاريخ الديمغرافى اللاوراس فلاول مرة فى التاريخ ينخفض عدد سكانه ، وهذه ظاهرة ونتيجة حتمية لحرب التحرير ·

وهناك تاثير آخر لحرب التحرير حدث بعد انتهائها وهو اعادة بناء القرى التى تهدمت ولكن أعيد بناؤها فى غير مواقعها الاولى حيث كانت تشيد القرية قرب الماء وفى مكان حصين ، فشيدت بعد الاستقلال قرب الطريق والمدرسة ، ووجود القرى قرب المدرسة يدل على أن سكان الاوراس دخلوا فى مرحلة التبادل الاقتصادى وانفتحوا على العالم الحديث ·

الاقتصاد بمنطقة باتنة :

لقد قسم المخططون الاقتصاديون بالجزائر البلاد الى مناطق اقتصادية ثلاثة هي : 1 ـ منطقة اقتصادية من الدرجة الاولى وتشمل العاصمة وما حولها ، ووهران وارزيوا وعنابة وسكيكدة وهذه المنطقة الاولى تجمع أهم النشاط الرئيسى للاقتصاد بالبلاد وبها 38٪ من السكان و 3/2 سكان المدن و 58٪ من الوظائف غير الفلاحية ومستوى المعيشة يبلغ ثلاثة أضعاف المستوى الوطنى المتوسط ، أما المنطقة الاقتصادية الثانية بالبلاد فمستوى المعيشة فيها يساوى متوسط المدخول الوطنى وتشمل مدن : الاصنام ـ تاهرت تيزى وزو ـ سطيف ـ باتنة وهذه المنطقة هي بصدد التصنيع والمنطقة الاقتصادية الثالثة بالجزائر هي المنطقة الاكثر

حرمانا وتوجد عامة بجبال الشمال والسهوب والجنوب (15) .

وحسب هذا التقسيم الاقتصادى للبلاد وحسب التضاريس فان منطقة باتنة تعانى متاعب اقتصادية واجتماعية متنوعة وخاصة ان الناحية عانت كثيرا من أحداث حرب التحرير ، فقد أحرقت غاباتها بالنبالم ودمرت قرى بأكملها وفقد كثير من سكان ما بقى من قراها واضطربت فيها الفلاحة واختل بها التوازن الايكولوجى بين الانسان والبيئة ولهذا كانت ولاية الاوراس محل اهتمام الحكومة حيث اجتمعت بمقر الولاية فى شهر فيفرى من سنة 1968 م لدراسة مشاكلها وانتهى هذا الاجتماع باقرار برنامج خاص لتنمية الولاية مبلغه (400) مليون دج وجاء بعد برنامج ولاية الواحات سنة 1966 م للتقليل من الفوارق الجهوية الموجودة بين الشمال والجنوب ، وبين المناطق المحرومة والمناطق المحظوظة ، وينص هذا البرنامج على النهوض بالولاية اقتصاديا واجتماعيا وهذا بتجهيزها وتطويرها ويتمثل التجهيز فى تجهيز أرياف الولاية بالكهرباء والغاز الطبيعى وقد وصل النور والغاز كثيرا من قراها وكذلك الماء النقى الصالح للشرب ، بالاضافة الى مد الطرق وتحسينها ، والاعمال جارية اليوم لاعادة بناء المطار القديم بمدينة باتنة للمواصلات الجوية (16) .

أما تطوير الولاية فيتمثل فى وضع برنامج اقتصادى واجتماعى هام يشمل الميادين التالية : الفلاحة - الصناعة - التعليم والتكوين - والشباب والصحة ... فى الميدان الفلاحى تعتبر ولاية باتنة ولاية فلاحية لانتاج الحبوب وهذا يظهر من المساحة المستغلة بالولاية البالغة (308.999) هكتار من المساحة الاجمالية للولاية حسب التقسيم الادارى الاخير لسنة 1974 م البالغة (1.383.700 هـ) أو 13.837 كلم (17) .

ولقد وزعت المساحة الفلاحية كما يلى : بقطاع الثورة الزراعية (54.169 هـ) موزعة على 156 تعاونية فلاحية انتاجية للثورة الزراعية (ت ف ا ث ز) بها 1.431 مستفيد وهذه التعاونيات ظهرت بتطبيق المرحلة الاولى من الثورة الزراعية سنة 1971 م وقد انشىء بجانب هذه التعاونيات 34 تعاونية فلاحية بلدية متعددة الخدمات (ت ف م خ) لتدعيم تعاونيات الثورة الزراعية وهي العامل المحرك لها ،

(15) T. D. C. N° 158 du 18-12-1975, p. 28.
(16) El-Moudjahid du 18 mai 1978.
(17) Information Statistiques, p. 5.

وبالولاية حاليا 1247 فوجا يضم 49000 منخرطا فى الاتحاد الوطنى للفلاحين الجزائريين (ا و ف ج) (18) ·

امـــا باقى المساحـــة الفلاحيـــة (1·329·531 هـ) فموزعة بين القطاع الخاص والقطاع الاشتراكى وهذا يشمل المزارع المسيرة ذاتيا وتعاونيات قدماء المجاهدين ، فالمسيرة ذاتيا 20 مزرعـــة وهذا القطاع ظهر منذ سنة 1962 م ·

ان معظم الاراضى الفلاحية بالولايـة تشغلها المحاصيل السنوية بحيث تشغل مساحة تقدر بـ 304·614 هـ وتحتـل الحبوب سنويا مساحـــة تقـــدر بــ 232·780 هـ وحدائق الخضر 1940 هـ والعلف 1030 هـ اما بساتين الفواكـه والكروم فتشغل 4·385 هـ ·

والملاحظ ان الولاية لا تكفى حاجاتها من الخضر والفواكه ولهذا فهي تستورد ما ينقصها وحوالى 95٪ من حاجاتهـا بواسطة التعاونية الفلاحية البلديـــة المتعددة الخدمات والتى تستوردهـــا بدورها من التعاونية الولائية للخضـر والفواكه ·

وتوجد اليوم بالولاية 42·501 وحدة استغلالية (مزرعة) موزعة عـــلى الدوائر كما يلى : دائرة باتنة 4·687 وحدة استغلالية ، ودائـرة مروانـــة 7·120 وحدة استغلالية ، ودائرة عيـن التوتة 4·311 وحـدة ودائـــرة أريس 11·275 ودائرة نقاوس 5·657 وحدة ، ودائرة قيس 5·572 وحدة ، ودائـــرة بريكا 3·878 وحدة ·

وتعتبر ولاية باتنة من الولايات الهامة لانتاج المشمس حيث تحتل اشجـــاره مساحة هامة تقدر بـ 940 هـ من المساحة الاجمالية لاشجار المشمش بالجزائـــر والبالغة 4·600 هـ وهذا يمثل 20،4 ٪ ·

ان القطاع الفلاحى بالولاية يشغـل 98·741 عاملا وهذا يمثل 16،7٪ مـــن جملة السكان بالولاية ، ويمثل ايضـا 48،6٪ من السكان القادرين على العمل والذين يقدر عددهم بـ 203·161 شخصا وهؤلاء يمثلون نسبة تقدر بـ 34،4٪ من جملة سكان الولاية البالغ عددهم حسب احصـائيـــة جـانفى 1978 م 589·146 نسمـــة (19) ·

الثروة الحيوانية :

الاغنام بالولاية 251·609 رأس منها 11·580 رأس لقطاع الثورة الزراعيـة و 20029 رأس للقطاع الاشتراكى المسير ذاتيا وتعـاونيـات قدمـاء المجاهديـن و 220·000 رأس للقطاع الخاص ·

اما الابقار فيبلغ عددها بالولايـــة

(18) EL-Moudjahid du 17 novmebre 1977.

(19) Résultats préliminaires par commune. Secrétariat d'Etat au Plan. Alger, novembre 1977, p. 13.

14·067 رأس منها 837 رأس للقطـــاع الاشتراكي و 1·230 رأس لقطاع الثورة الزراعيـــة و 12·000 رأس للقطـــاع الخـــاص · ·

الســـد الاخضـر :

ان الصحراء ما انفكت تغزو كل عام آلاف الهكتارات من الغابات والسهـوب والسهول العليا ، واحيانا المزروعـات، ولا نشاهد اليوم سوى الحصى والرمل، والاراضى الجرداء ، فحوالى 12 مليون هكتار من الغطاء النباتى بالسهـــوب تصخرت منها مساحات كبيرة محصورة بين خطى التماطر 300 ـ 400 مم تمتـد من الحدود الغربية الى الحدود الشرقية للجزائر ، وتبلغ مساحة هذه السهـوب 303·660 هـ وهذا الرقم يمثل 10,5٪ من المساحة الكلية لشمال الجزائـــر والبالغة 28·885·200 م هـ (20) فهذه السهوب تعيش عليها 8 ملايين رأس غنم من القطيع الوطنى البالغ 10 ملايين رأس بالاضافة الى هذا فان السهـــوب تقدم المادة الاولية للسيليلوز من الحلفاء، فهذه السهوب تعيش اليوم تغييرا كبيرا فى شكلهـا البـنـوى والاجتـمــاعى والاقتصادى ، اذ ان تصـحر هـــذه السهوب أدى الى القضاء على كثيـــر من أنواع النبات التى كانت موجودة فى الماضى ، ولم يبق منها ســوى نباتات متفرقة ، كما أدى التصحـــر الى وجود ظواهر طبيعية هذا بالاضافة الى تصحر مساحات واسعة من الغابات نتيجة لعدة عوامل من أهمها زحـــف الصحراء على شمال الجزائر ، فالغابة تؤلف وسطا طبيعيا حيث تتفاعل فيــه عدة عوامل وتعمل على اتزان وتطور كل الاحـيـــاء ، فالارض الجـــرداء اذ اعشوشبت اينعت طبقة التربة ، وهذا يسمح بالاحتفاظ بالماء بواسطة التسرب، وهذا الامر يخفف ويهدوء من تقـــدم التصحر نحو الشمال ، ويجعل (2 م هـ) منتجة بالسهول العليا القليلة الامطار فى الخريف والربيع ، ومعنى هذا ان السد الاخضر يحسن اقتصاد السهول العليا بالاطلس (21) ·

فالغابة الجزائريـــة كانت مساحتها 4 م هـ سنة 1830 م وانخفضـت هـذه المساحــة الى 3·298·000 هـ سنة 1952م وتـوجـــد حـاليـــا 2200000 هـ و 800000 هـ غابة الماكى (22) ، فمجموع مساحـة الغابـات بالجزائـر تقريـبـا 3·000·000 هـ ·

---

(20) El-Moudjahid du 12- -1976.

(21) Algérie Actualité du 9 au 15 novembre 1976.

(22) غابة الماكى هي غابة أشجار قديمة اتلفت ·

وعلى هذا فمساحة الغابة الجزائرية تشغل ١،3٪ من المساحة الاجمالية من التـــراب الوطنى ، وتغطى المســـاحة المشجرة بشمال الجزائر ما يقرب مـــن ١٥٪ من مساحـــة الشمال تقريبا (23) وعلى هذا تعد الجزائر اليوم فى أقل بلدان البحر الابيض المتوسط غابـات، وهذا نتيجة لتقدم الصحراء نحو الشمال كل عام متسببة فى تغيير المناخ والزيادة من عوامل جفاف المناخ فى بلادنـــا ، وابعاد الرطوبة والتساقط ، كما تسبب فى التعرية التى تأخذ كل عام 50٠000 هـ تقريبا من الاراضى الفلاحية ولهـــذا فالغابة عنصر أساسى للتوازن الطبيعى والمناخى والاجتمـاعى والاقتصـــادى للمناطق الريفية بالخصوص وللوطـــن كلـــه ٠

والغابة لا تظهر وسيلة ضروريـــة لحماية التربة من التعرية والتصحـــر ، وحماية وتحسين الانشطـة الفلاحيـــة والرعوية ، وتحسين البيئة فقط ، بـــل الغابة أيضا ضرورية لحيـاة سكـان الريف ، فهي ثروة طبيعية تساهـــم فى الانطلاق الصناعى ، لكن الغابة الـتى تقدر مساحتها بملايين الهكتارات ، قد انخفضت هذه المساحة كثيرا ، فقـــد أصابتها منذ زمن بعيد عدة عوامل من التجريد ، أدت أحيانا الى زوال الاشجار تماما من مناطق واسعة ، متسببة فى اختلال التوازن الذى يؤدى غالبا الى زيادة الخطورة على الوسط الطبيعى ٠

وهناك عدة عوامـــل ساهمـت فى الوضعية الخطيرة للغابة ببلادنا ، منها الاستغلال المفرط للاخشاب ، خاصـــة أثناء الحرب العالمية الثانية ، فاستنفذ كثير من الاحتياطى لثروتنا الخشبية ، وعوامل الحرائق المتـكررة وخاصـــة الحرائق الاجراميـة للجـيش الفرنسى أثناء حرب التحرير الـوطنى فحـوالى 800000 هـ قضت عليها قنابل النبالم (24) فغيرت هذه الحرائق كثيرا حالة غاباتنا، وتسببت فى الاتلاف الهائـل لمساحات كبيرة للاشجار ، وزوال الغطاء النباتى الواقى لمناطق واسعة من الغابة وهكذا ساهمت هـذه العوامـل : البشريـــة والعوامل الطبيعية الاخرى فى عمليـة التعرية ، ففصل الجفاف والحر ، وفصل الامطـــار والبرد ، وهبوب الريـــاح وسكونها ، عملت هي الاخرى عـــلى الاسراع فى عمليـة النحت ، وكذلـــك تذبذب نزول الامطار وعدم انتظامهـا ، ونزولها المفاجىء والعنيف ، ساهمـت هذه العوامل جميعا فى اتلاف التربـة وتصحيرها ، ففى كل عـــام تذهـــب

(23) « Visage de l'Algérie », la forêt algérienne, p. 13.

(24) Jean-Claude Martens : « Le modèle algérien de développement ». Bilan d'une décennie (1962-1972). Alger 1973, pp. de 189 à 190.

100000 م3 تقريبا مـن التربة وهـذا ما يساوى 40000 هـ تقريبا (25) وهكذا تهدد بالاخطـار الانشطـة الفلاحيـة الفلاحية والرعويـة ، وتتسبـب فى الاختلال الكلى لتوازن البيئة ، وتؤدى هذه التعرية الى خسائر كبيرة منها : فقدان الاراضى الفلاحية ، وفيضانات تسببت فى تحول السدود ، وضيـاع كميات كبيرة مـن الميـاه الى البحـر ، والنتيجة المباشرة لهذا التصحر هـو القضاء على جزء كبير من الثـروة النباتية من الاخشاب والاعشاب التى يعيش عليها قسم هام مـن الثـروة الحيوانية المتمثلة خاصة فى قطعـان الاغنام ، وهذا يؤثر مباشرة على مربى المواشى من بدو وحضـر كـمـا ادى التصحر الى تحويل الاراضى الفلاحية شيئا فشيئا الى مراع وهذه الاخيـرة الى أراض قفر ·

هذه العوامل كلها لها انعكاسـات سيئة وخطيرة على الاقتصاد الـوطنى، ولهذا وضع المسؤولون عن التخطيـط الاقتصادى بالبلاد مخططا لحل هذه المعضلة حلا دائما ، وهذا الحل يتمثـل فى مشروع اقامة حزام أخضر يمتد من الحدود التونسية شرقا الى الحـدود المغربية غربا بطول 1500 كلم وبعـرض يتراوح مـا بيـن 12 الى 30 كلـم وفى المتوسط 20 كلم ويقام على طول خـط التساقط 300 مم الذى يقع على مشارف الصحراء (26) ويشمل قسما كبيرا من السهول العليا القارية بنواحى عيـن الصفراء ـ البيض ـ أفلو ـ جنـوب الجلفة ـ المسيلة ـ باتنة (27) ·

وهذا الجدار الاخضر هو عبارة عن غابة من عدة أنواع من أشجار الصنوبر والكافور تقف أمام زحف الصحْراء نحو الشمال ، وتزيد هذه الغابة من عوامـل رطوبة المناخ ، وامكانية التساقـط ، وبالتالى نمـو المـراعى من جـديـد ، والزيادة من مساحة الاراضى الفلاحية، واعادة التوازن الذى اختل بين الانسان والبيئة الطبيعية ·

وهكذا بدأت الجزائر فى تنفيذ هذا المشروع الطموح يوم 14 أوت 1970 مع بداية الشروع فى تنفيذ المخطط الرباعى الاول (70 — 74) وليصادف دخـول المرحلة الاولى من الثورة الزراعيـة مرحلة التطبيق سنة 1971 م بعـد أن استعانت الجزائـر بخبـراء دولييـن اختصاصيين فى علوم التربة والمنـاخ والنبات واختيـرت خمس مناطـق نموذجية لبدا التشجير بها هي : البيض

(25) Jeune Afrique, novembre 1972.
(26) Visage de l'Algérie, p. 51.
(27) Visage de l'Algérie, p. 52.

افلو ـ الجلفة ـ بوسعادة ـ تبسة ، وتم هذا الاختيار لاعتبارات طبيعية ومناخية هي في البيض وافلو قلة التضاريس الجبلية مع توفر الماء والمساحات المغروسة مع سهولة التوسع في غرس الاشجار لتوفر الامكانيات من قبل ، ونفس الشروط متوفرة في مناطق بوسعادة والجلفة وتبسة ، وخصصت ميزانية ضخمة لهذا المشروع الخاص بتشجير 1·500·000 هـ في مدة 7·500·000 ساعة عمل (28) ·

واسندت هذه المهمة لاعادة تشجير الغابة للديوان القومي للغابات التابع لوزارة الفلاحة والثورة الزراعية ومن هنا ظهرت فكرة السد الاخضر العظيم ، فهو مشروع تنمية في اطار سياسة تطوير الغابة ، ومنها ان يساهم السد في عملية وقف زحف الصحراء على الشمال ، وعهد بانجاز هذا المشروع التاريخي الكبير الى شبان الخدمة الوطنية ففي كل عام حوالي 500000 جندي تغرس حوالي 15000 هكتار بمئات الآلاف من الاشجار ويمتد انجاز هذا العمل التاريخي على مدى 20 سنة الى آفاق 1990 م وبالانتهاء منه تكون حوالي 7 ملايير شجرة قد غرست على 3 ملايين هكتار على أن تشمل المرحلة الاولى مسافة الطول فقط من شرق الحدود الى غربها بعرض قدره 10 كلم فقط (29) ·

ويساهم السد الاخضر في استرجاع 12 مليون هـ بالسهوب القابلة للفلاحة ، مقابل 4 ملايين هكتار تستغل اليوم ، ويشتمل المشروع أيضا على أعمال أخرى كاحياء الاراضي المسترجعة بأنواع أشجار الفواكه ، وزراعة العلف والزروع وانشاء البحيرات التلية ، واحواض ماء سعة كل منها 200 م 3 من الماء وأنظمة للري وبناء الطرق ، والقرى الغابية والبحث واستغلال المصادر المائية (30) ·

ولقد قسم مكتب الدراسات والتخطيط التابع للمحافظة السامية للخدمة الوطنية التابع للجيش الوطني الشعبي هذا المشروع الى مناطق نموذجية ستة تنطلق منها الاعمال ، وكانت المنطقة الاولى بدائرة نقاوس بولاية باتنة والثانية بتادميات بولاية الجلفة ، والثالثة بعين الصفراء بولاية سعيدة ، والرابعة بأفلو بولاية الاغواط ، والخامسة ببلدة ماء الابيض بولاية تبسة ، والسادسة ببلدية بوسعادة بولاية المسيلة (31) ·

---

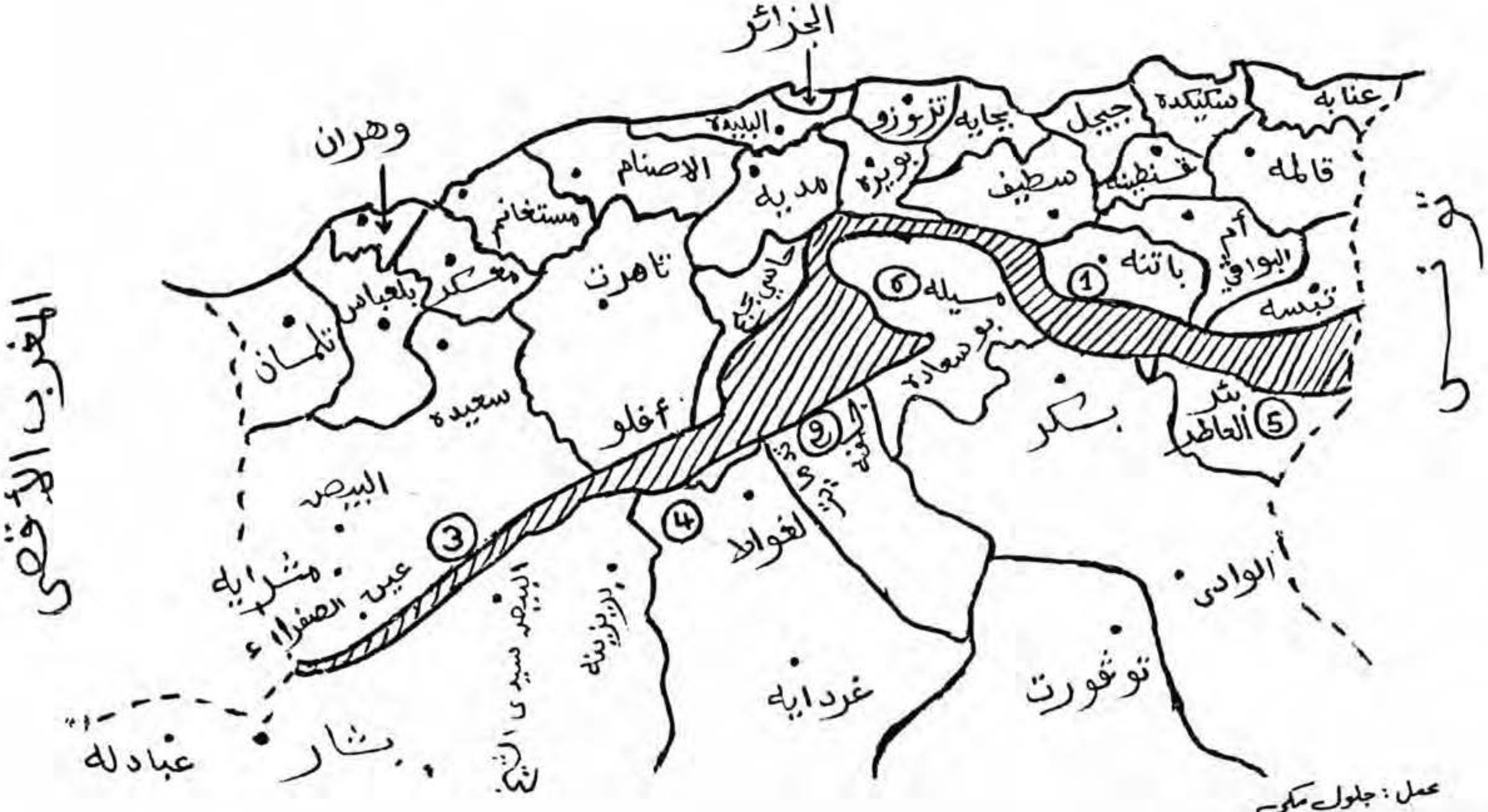
(28) عشر سنوات من الانجازات (19 جوان 65 ـ 19 جوان 1975) وزارة الاعلام والثقافة ـ ماي 1976 · مدريد اسبانيا · ص 150 ·

(29) T. D. C. N° 140, 1975.

(30) عشر سنوات من الانجازات (المصدر السابق ذكره) ص 152 ·

(31) El-Moudjahid du 4 avril 1977.

السد الأخضر


الجزائر
وهران
عنابه
سكيكدة
جيجل
بجايه
تيزي وزو
البليدة
الاصنام
مستغانم
معسكر
بلعباس
تلمسان
مدية
بويرة
سطيف
قسنطينة
قالمه
أم البواقي
باتنه
تبسه
مسيله
بوسعادة
تاهرت
سعيدة
أفلو
بسكرة
الواد
البيض
مشرايه
عين الصفراء
لغواط
غردايه
توقورت
بشار
عبادله
المغرب الأقصى
تونس
1
2
3
4
5
6
عمل: جلول مكي

وبدأت أول فرقة لحماية البيئة واحياء الاراضى باحياء أكثر من 2500 هـ سنة 1970 م بدائرة نقاوس وشجرت 5000 هـ بدائرة بريكة و 70000 هـ برمج لها لغرس الاشجار المثمرة فى سهل عطوطة بدائرة نقاوس (32) .

وقد نص المخطط الرباعى الاول على تشجير 190000 هـ وحماية واحياء أراضى تقدر بـ 100000 هـ وتنظيم واستصلاح 347000 هـ (33) .

وتبدأ حملة التشجير هذه فى بداية كل خريف وتنتهى بنهاية شهر مارس حيث ان هذه الفترة هي فترة الساقط الضرورى لنمو النبات فى هذه المنطقة، أما باقى الفترة الزمنية من السنة فهي فترة تهيئة الارض للغرس المقبل وري وحماية الشجيرات الصغيرة وتحضير المشاتل الى آخره ، وهكذا فى كل عام تأتى دفعة جديدة من شبان الخدمة الوطنية لتخلف الدفعة الاولى وتستأنف ما قد بدأته الدفعة السابقة من هذا العمل التاريخى العظيم ، وأعمال التشجير هذه تتناسب مع 21 مارس اليوم العالمى للاحتفال بيوم الغابة الذى أقرته منظمة الاغذية والزراعة التابعة لمنظمة الامم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونيسكو) ولقد تلقت مساعدات المنظمة المذكورة فى هذا المجال .

وهذا المشروع سيحقق أشياء هامة منها أنه يقاوم ضد التعرية والتصحر ، ويعمل على تحقيق التوازن الطبيعى المناخى لمناطق السهوب ، ويوفر أخشابا جديدة من الغابات ، وخلق ظروف حسنة لتطوير النشاطات الفلاحية والرعوية ، وتحسين ودمج واسع للسهول العليا للاطلس الصحراوى ، وترقية اقتصادية واجتماعية لهذه المناطق ، وخلق وظائف لتحسين ظروف حياة السكان الذين يعيشون بالغابات أو بالمناطق القريبة منها (34) .

السد الاخضر للاشجار المثمرة :

ان نقص بعض الفواكه ببلادنا أدى بالمسؤولين الى التفكير فى ايجاد حل لهذه المسألة ، وانتهى الامر الى اقرار مشروع لا يقل طموحا ، عن المشروع الاول للسد الاخضر المقام لايقاف زحف الصحراء ، نحو الشمال هذا المشروع هو اقامة سد من الاشجار المثمرة بالجنوب الجزائرى رغم ما يبدو اليوم من جفاف المناخ وقساوته وتصحر

---

(32) عشر سنوات من الانجازات (المصدر السابق) ص 152 .

(33) J. C. Martens : *Le modèle algérien de développement*, p. 190.

(34) عشر سنوات من الانجازات ص 152 .

هذه المناطق التى ما زالت بها آثار تشهد فى الوقت الحاضر على أن المناطق الجنوبية من الجزائر كانت بها فلاحة لاشجار الفواكه ، وقد ذكر هذا الامر بعض المؤرخين والرحالة ، فقد كان الجنوب الجزائرى منطقة زراعية تشغلها الزروع والاشجار المثمرة ، وهذا باستغلال الثروة المائية السطحية منها والجوفية باقامة السدود الصغيرة وحفر الابار ومد السواقى وبناء القنوات وفلح الارض بما يناسبها من المزروعات والاشجار ، وهكذا وسع الرومان الزراعة الى الجنوب الجزائرى وزيتنوا مناطق واسعة بالعروض الجنوبية مثل مناطق : بريكة ـ نقاوس ـ القنطرة ـ خنقة سيدى ناجى جنوب الاوراس او غرسها بالكروم وأشجار الفواكه (35) ٠

وهكذا صممت الجزائر على تعميم شجارة الاشجار المثمرة فى البلاد ، وهذا باقامة سد من أشجار الفواكه ، ويتمركز كثير من الجهود لتحقيق هذا الانجاز حول القرى الاشتراكية الفلاحية وحول المدن وبمناطق تخصص لها ، وتوزع الاشجار على المواطنين مجانا ، وسيشمل هذا العمل الكبير مساحة تقدر بـ 128000 هـ فى كامل التراب الوطنى وستغرس بعد الانتهاء منه حوالى 700000 شجرة مثمرة ٠

بدأت هذه العلمية بنهاية المخطط الرباعى الاول سنة 1973 م بداية وئيدة وانطلقت بفعالية سنة 1977 م بحملة وطنية لغرس الاشجار المثمرة فى ولاية المدية يوم 17 مارس 1977 والذى صار يوما وطنيا للاحتفال بالشجرة المثمرة وتستمر الحملة الى يوم 21 مارس اليوم العالمى للاحتفال بالشجرة ويكون الغرس فى المناطق التى تستقبل كمية من التساقط أكثر من 400 مم ٠

وقد غرس بولاية باتنة وحدها 14040 شجرة مثمرة بأنواع من أشجار الفواكه كالزيتون والمشمش والتفاح والاجاص وغيرها من الاشجار المثمرة والاشغال جارية اليوم لغرس 500 هـ بالعنب والزيتون (36) ٠

ولقد نص الميثاق الوطنى فى العنوان السابع منه الخاص بالاهداف الكبرى للتطور على زيادة المساحة المروية الى أكثر من مليون هكتار لمواجهة تزايد حاجات السكان من المواد الغذائية ، وتحرير البلاد من السوق العالمية للمنتجات الفلاحية وللتخلص من الضغط

---

(35) محمد بشير شنيتى (التوسع الرومانى نحو الجنوب وآثاره الاقتصادية والاجتماعية) مجلة الاصالة ، عدد 41 ـ جانفى 1977 صفحات 21 ـ 22 ٠

(36) معلومات من وزارة الري وحماية البيئة واحياء الاراضى ٠

الذى قد تمارسه الدول العظمى المسيطرة على هذه السوق ٠

وفى المدة الاخيرة انشئت فى كل ولاية مؤسسة ولائية لاعادة واصلاح الثروة الغابية يوم 4 ديسمبر 1977 فقامت بأعمال منها استصلاح سهل بلزمة بدائرة مروانة بحفر 29 بئرا فى شهر أفريل 1978 ومنشآت أخرى كبناء الحضائر وغيرها ، وهذه المؤسسة هي التى تقوم بأعمال الغابات واحياء الاراضى واقامة أحواض مياه وحفر آبار الخ ٠٠٠ (37) ٠

أما الصناعة فان الدولة بذلت جهودا كبيرة بمنطقة باتنة لان أرض الولاية تتوفر على ثروات طبيعية هامة ، من مواد أولية نباتية وحيوانية ومعدنية تساعد على اقامة صناعات خفيفة بها فالاخشاب متوفرة في غاباتها والحلفاء فى سهوبها ، والحبوب من سهولها العليا ، والفواكه من جنائنها المنتشرة فى أنحائها كما يوجد بها قطيع هام من الاغنام لوفرة المراعى بسهوبها وبأوديتها وسفوح وقمم جبالها كما يوجد أيضا قطيع من البقر معتبر ٠

أما المواد الاولية المعدنية فباطن أرض الولاية يزخر بمعادن هامة منها عدة مناجم مثل مناجم الرصاص والزنك والزئبق والنحاس والبرتين الطبيعى الذى تعتزم الشركة الوطنية للابحاث والاستغلالات المنجمية (سوناريم) استغلاله بجبل اشمول جنوب الاوراس حتى تستغنى الجزائر عن استيراد البرتين الذى يستعمل فى عمليات التنقيب عن البترول والتى يستورد منها كميات هامة ، والشركة تعتقد حسب التكوين الجيولوجى للاوراس انها ستجد فى باطنه معادن هامة وثمينة ، وعلى هذا فهي تعتزم القيام بمسح شامل ومنهجى للمنطقة للبحث عن المعادن واستغلالها ٠

ولقد نص البرنامج الخاص بانماء ولاية الاوراس سنة 1968 م بتصنيع الولاية التى لم تعرف التصنيع من قبل وذلك باقامة مصانع صغيرة بعضها بمقر الدوائر والبعض الآخر بمقر الولاية وتتمثل في الوحدات التالية : مدبغة للجلود بها 174 وظيفة ، ومصنع للزفت وآخر للآجر والقرميد به 130 عاملا ، بالاضافة الى اقامة وحدات للصناعات الحرفية النفعية الحديثة كمصنع الغزل ومصنع البطانيات وثالث للاحذية به 239 وظيفة ورابع للخزف الملون ووحدات أخرى للصناعات الحرفية التقليدية ، كفن تقليدى مثل السراد والاثاث المنقوش وغيرها فهذه الصناعة مصدر لحفظ القطع الفنية النادرة ، وهي أيضا عامل حفظ وتنشيط للتراث الثقافى والفنى لبلادنا بالاضافة الى انها عامل دعاية داخلية وخارجية

---

(37) الجمهورية يوم 4 أفريل 1978 ٠

للفن الشعبى ببلادنا بلغت جميع هـــذه الوحدات 13 وحدة انجز معظمها (38) ٠

ثم حظيت الولاية بمشاريع أخرى برمجت لها الدولة ضمن خطة التصنيع الشاملة للبلاد حسب المخططات الوطنية والمشاريع التى تحققت أو هي فى طريق الانجاز أو التى ستتحقق فى المستقبـــل القريب بين سنتى 1976 ـ 1982 ، الهدف منها هو ايجاد وظائف عمل لتشغيـــل أكبر عدد ممكن من اليـــد العاملـــة العاطلة ، وهذا للتخفيف مـــن مشكـــل البطالة المطروح بحدة فى هذه الولاية النائية والفقيرة كما تهدف الى ايقاف الهجرة من القرى الى المدن الكبرى ، وتدخل أيضا هذه الوحدات ضمن اطار سياسة التوازن الجهوى التى انتهجتها الدولة منذ شروعها فى تنفيذ البرامج الخاصة بالولايات المحرومة منذ سنـــة 1966 م بولاية الواحات ٠

أما المصانع الى اقرت للولاية فهي مصانع متوسطة وأخرى صغيرة الحجم اقيم معظمها بمقر الولاية حيث تتوفـــر اليد العاملة لوجود تجمع سكانى كبير بينما أقيم الباقى بمقر الدوائر (39) ٠

فالمشاريع التى تحققت بمدينة باتنـــة مقر الولاية هي : مصنع لقارورات الغاز الطبيعى ، ومخزن تابع للشركة الوطنية للحديد والصلب والذى دشن يوم 26 أفريل 1978 وينجز يوميا 9600 قارورة من غاز البيطان و 50 قارورة من غـــاز البروبان وبالمعمل خزانان سعة كـــل منهما 4000 طن ومنشآت أخرى تابعـــة لهذا المعمل ويشغل 460 عـــامـــلا (40) ومركز تدنين الغاز فى القارورات تابع للشركة الوطنية لنقل وتسويق المحروقات (سوناطراك) فالمنتجات تأتيه من حاسى الرمل ومجمع سكيكدة بواسطة الشاحنات فى انتظار انجاز محطة تجهيز حيـــث سيتم تعبئة وتجهيز ومراقبة القـــارورات الفارغة آليا ويشغل 115 عاملا وطاحونة لانتاج الدقيق تشغل 57 عاملا ومعمل للجير والاسمنت 75 عاملا ومصنع لانتاج المواد الغذائية من العجين يشغل 252 عاملا ومعمل للملابس الجـــاهزة 120 وظيفة ومعمل للخياطة 1043 وظيفـــة ومعمل بالولاية يشغـــل 130 عامـــلا ومجموع الوحدات التى تحقق معظمها بمقر الولاية 34 وحدة من ضمنها عدد تابع للقطاع الخاص وهـــذا الاخيـــر لا يتناوله هذا المقال لانه لا يشغل الا عددا قليلا من العمال اذ يبلغ حوالى 500 عامـــلا (41) ٠

(38) كتاب الثورة الجزائرية : وقائع وأبعاد ـ اسبانيا 1972 ص 234 ٠
(39) كتاب الثورة الجزائرية (المصدر السابق) ص 234 ٠
(40) El-Moudjahid du 26 avril 1978.
(41) حسب احصائية وزارة الصناعات الخفيفة لشهر فيفرى 1978 ٠

أما فيما يخص المشاريع التى سطرتها الدولة ما بين سنتى 1976 ـ 1982 لخلق وظائف شغل جديدة فلقد وضعت الخطة حسب كل دائرة ففى دائرة باتنة وفرت المشاريع التى أنجزت 3.130 وظيفة شغل و 2090 وظيفة هي بصدد التوفير و 13.500 وظيفة هي مشاريع المستقبل فالمشاريع التى هي بصدد الانجاز هي : توسيع مجمع النسيج لكي يوظف 1.200 عاملا ووحدة المياه المعدنية 60 عاملا ومخزن لقارورات الغاز 75 عاملا ، أما المشاريع التى سيعمل على تحقيقها بالدائرة فهي : وحدة للجبس 150 وظيفة ووحدة لقوالب الطوب 200 عامل ومسبك للصلب وحديد الزهر 320 عامل ومركز لتركيب الهياكل المعدنية ، وقاعدة للهندسة المدنية 500 عامل ووحدة لهياكل البناءات ذات المقاييس الموحدة 320 عامل ومركز متعدد الاختصاصات تابع لسوناطراك ، ومركز للتخزين والتوزيع 300 عامل ومحطة تخزين تابعة لتدنين الغاز ، وموقف ابدال لسائقى الشاحنات يشغل 510 عامل ، ومجموع الوظائف فى دائرة باتنة بالمشاريع الجارى بها العمل والمشاريع المقبلة تبلغ 10.140 وظيفة بالاضافة الى محطة لتوجيه الغاز الطبيعى لحاسى الرمل الى مجمع سكيكدة ولتزويد مدينة باتنة بالغاز ، كما يمر بها انبوب البترول المتوجه الى المجمع البتروكيمياوى بسكيكدة (42) .

أما المشاريع بدائرة عين التوتة منها ما هي فى طريق الانجاز ومنها ما سيشرع فى تحقيقه وهي مقلع حجارة الملاط (حجارة ، رمل ، حصى ..) قدرته الانتاجية 1000000 طن فى العام ومبلغ تكاليفه 8 ملايير سنتيم ويشغل 160 عاملا والمشاريع بالدائرة هي طاحونة تنتج 2000 قنطار يوميا من الدقيق وتشغل 214 عاملا ووحدة للقمصان 540 عاملا ومركز للتوزيع 20 عاملا فالمجموع 930 عاملا .

وفى دائرة أريس فى طريق الانجاز طاحونة 210 عمال مصنع لغزل القطن 1200 عامل معمل خردوات للبناء 250 عاملا مصنع كنزات صوفية (بلوفر) 1100 عامل ومجموع العمال بالدائرة سيبلغ 2.780 عاملا .

وبدائرة بريكة وحدة تشغل 210 عامل مشروع مصنع سيارات خفيفة من نوع خاص للاستعمال فى كل أرض 3.100 عامل .

وفى دائرة قيس : مشاريع تجهيز مجمع رياضى 500 عامل ، ومركز للتوزيع 20 عاملا وفى دائرة مروانة :

---

(42) ملاحظة : هناك عدد من الانجازات تمت فى أماكن هي اليوم غير تابعة لولاية باتنة حسب التقسيم الاخيرا 1974 .

مشاريع مصنع لغزل الصوف المندوفة 700 عامل مركز للتوزيع 20 عامــلا ، وبدائرة نقاوس : مشاريع مراطة لدبغ الجلود الرقيقة 320 عاملا ومركز للتوزيع 20 عاملا ، فمجموع العمال المشتغليــن بالقطاع الصناعى بالولاية يقــــارب 25٠000 عاملا (43) ٠

السكـــــن :

وفى مجال السكن والبناء تم برمجة 9 قراى اشتراكية فلاحية هي : قريـــة زكار الكواشية بها 200 مسكن وقرية ذراع القبور بها 200 مسكن وقريـــــة ذراع بولطيف بها 100 مسكن وقريـــة فنار نقاوس بها 150 مسكن وهذه القرى الاربعة قد دشنت ، وقرية هنشير المليح بها 210 مساكن وقرية راس الماء بها 100 مسكن وقرية ثنية السدرة بها 105 مساكن وقرية عين الاصــفر بهـــا 100 مسكن وقرية عين البيضـــاء بهـــا 202 مسكن وهي على وشك الانتهاء ومجموع هذه القرى بها 1٠367 مسكنا بلغــت تكاليفها 142٠898٠000 دج ٠

ثم تقرر توسيع هذه القرى الاشتراكية باضافة مساكن أخرى اليها وهذا ببرمجة 900 مسكن واعتمد لهـــا مبلغ من المال قدره 51٠480٠000 دج انجز منها بنسبة 10٪ ٠

أما فيما يخص البناء الذاتى فى نطاق البرنامج الخــاص للولايــة فخصــص 1٠000 مسكن أنجزت كلها وبلغـــــت تكاليفها 9٠175٠260 دج ومن المعلوم ان هذا النوع من البناء هو أن المواطـــن يساهم بشىء رمزى فى هذا العمل اما بالاسمنت أو بالعمل اليدوى أو بأجرة البنائين الخ ٠٠٠ والباقى تســـدده الدولـــة ٠

ولقد وضع برنامج اضافى للبنـــاء الذاتى بـــ 1000 مسكن اعتمد له مبلغ من المـــال يقــدر بـــ 17٠000٠000 دج فأنجز بعض منـــه ، ومـــا بيـــن عـــامى 1974 ــ 1977 خطط لبناء 2٠300 مسكن اعتمد لها مبلغ قدره 53500٠000 دج ، وهنالك نوع آخر من البناء فى مدينـــة باتنة هو البناء المسير ذاتيا قـــدره 24٠220٠000 دج (44) ٠

وأخيرا ظهر نوع حديث من البنـــاء فى مدينة باتنة وهو انشاء العـــمارات التعاونية بمساهمة الصندوق الوطـــنى للادخـــار والاحتيـــاط وبـــدأ فى بنـــاء عمارتيـــن (45) ٠

---

(43) Emplois et implantation des projets industriels en 1976,, en 1982. Décembre 1977 Ministère des Industries Légères, Alger.

(44) Villages socialistes agricoles. Ministère de l'Habitat. Etudes Art, p. 234.

(45) Algérie Actualité du 16 au 22 avril 1978.

التربيـة والثقافـة :

لقد شاهدت ولاية باتنة تطورا هاما فى ميدان التربية والثقافة ، ففى العهد الماضى لم يكن هناك شىء ذو أهميـة يذكر ، الا بعض المدارس وقليل جـدا من المتوسطات ، وثانوية واحـدة فى مدينة باتنة ، أنشئت فى الاصل لابنـاء الاوروبيين ، ولهذا بعد الاستقلال بذلت الدولة مجهودا ضخما فى هذا الميدان، حيث بدأت منذ الاستقلال تعمل على توفير المدارس ، حتى تهيىء لكل طفل مكانا فى المدرسة ليتعلم ، وتم فى هـذا المجال الشىء الكثير ، اما بواسطة البرنامج الخاص بتنمية ولاية باتنة ، واما ضمن المخططين الوطنييـن الربـاعى الاول والثانى وقد احصى فى العام الدراسى 1977 ــ 1978 : 1745 قسـمـا و 1150 مسكنا هذا فى مرحلة التعليم الابتدائى، وقد بلغ عدد التلاميذ 7479 تلميـذا وتلميذة وبلغ عدد المعلمين 2491 معلما على اختلاف أطرهم وجنسهم ، منهـم 1653 باللغة الوطنية ، 838 باللسـان الاجنبى (46) .

وبلغ عدد المتوسطات 28 متوسطة ، بدون ملاحقها ، منها متوسطة متعـددة الاختصـاصـات ومتقنان متوسطـان فلاحيان خاصان بفلاحـة الاحـراج والغابـات وحمايـة البيئة واحـيـاء الاراضى ، وقد بلغ عدد التلاميذ بهذه المرحلة 21545 تلميذا .

وفى مرحلة التعليم الثانوى ، فتوجد بالولاية 6 ثانويات ، منها 4 للتعليـم العام ، و 2 متقنان وصل عدد الطلبـة بالتعليم العـام 5332 معربـا و 1421 مزدوجا وبلغ عدد الطلبة فى التعليـم التقنى 827 طالبا منهم 584 مزدوجـا و 243 معربـا .

وفى ميدان التكوين فيوجد بالولاية معهدان لتكوين المعلمين بهما 660 طالبا وطالبة منهم 514 معربا ، 150 مزدوجـا وبلغ عدد الاساتذة بالمتوسط والثانوى 284 أستاذا على اختـلاف أطرهـم وجنسهم واللغة التى يعملون بها (47) .

فمجموع التلاميذ والطلبة بالولايـة للعام الدراسى 77 ــ 78 بلغ 92811 مـن مجموع سكان الولاية البالغ عـددهـم 589146 نسمة (جانفى 1978) (48) . ومجموع المعلميـن والاسـاتذة 2789 معلما واستاذا .

وفيما يخص التكوين المهنى فقد انشات الدولة ما بيـن سنـتى 1970 ــ 1975 م 103 قسم عبر الولاية بهـا والى 4120 تلميذا تكون منهم 1568 شابا ، وفى

(46) Informations statistiques au 12 novembre 1977. DECJ, Batna, p. 43.
(47) Information p. 2.
(48) احصاء وزارة الفلاحة والثورة الزراعية : جانفى 1978 .

العام الدراسى 77 ـ 78 انشىء 20 قسما جديدا فى كل قسم 30 شابا فالمجموع 600 شاب ومجموع المعلمين 339 معلما ، ويتخرج الشبان فى مختلف اختصاصات التكوين المهنى . لحرف الخدمات والصيانة ، وهذا نتيجة لتطور الاقتصاد وارتفاع مستوى المعيشة ونمو القدرة الشرائية ولهذا تزداد أهمية هذه الحرف يوما بعد يوم مثل أعمال البناء والنجارة والكهرباء والرصاصة والتجارة الخ .. اذ أن هذه الصناعات الحرفية الحديثة الاستعمالية هي عنصر مكمل لمجمل الصناعة الوطنية ، وهي محققة للتجانس فى منتجاتها وانتاجها كما أنها موسعة للسوق المحلية ، وهي أيضا عنصر هام فى تثبيت الجماهير الريفية وفى تحسين أوضاعها بفضل انشاء فرص عمل جديدة لا تكلف الدولة الا استثمارات طفيفة .

وفى التعليم العالى والبحث العلمى فقد أسس بالولاية مركز جامعى فى 16 نوفمبر 1977 جنوب المدينة على طريق بسكرة تتسع عند الانتهاء من بنائها 5000 طالب وطالبة وتضم معاهد هي :
1 ـ معهد العلوم التطبيقية (آلات صناعة النسيج ـ لمواد البناء ـ والكهرباء) .

2 ـ معهد العلوم الاجتماعية : قسم العلوم الاقتصادية ، قسم الحقوق والادارة ـ قسم علم الاجتماع ـ قسم علم النفس .

3 ـ 3 دوائر : 1 ـ دائرة الرياضيات 2 ـ الفيزياء والكيمياء ، 3 ـ اللغة والادب العربى والاجنبى .

ويتبع الجامعة مركز حسابى ومكتبة بها 150000 كتاب ومطعم جامعى وقاعات للانشطة الثقافية والرياضية وحيا جامعيا به 500 سرير وبالجامعة حاليا 640 طالبا منهم 40 طالبة (49) .

بالاضافة الى مدرسة تكوين المهندسين المطبقين للاشغال العامة بمدينة باتنة وستفتح فى العام القادم 78 ـ 79 مدرسة ثانية لتكوين مهندسين مطبقين لسد الحاجيات المتزايدة لهذا الاختصاص ، بالاضافة الى مركز لتكوين تقنيين اختصاصيين فى الهندسة المدنية تابع لوزارة البناء والاشغال العمومية .

وفى ميدان الشبية والرياضة ، فقد برمج للولاية منذ البرنامج الخاص لولاية الاوراس عدة نشآت رياضية هامة لفائدة الشباب ، وذلك بتجهيز قاعة للتربية البدنية والرياضة بمدينة باتنة وتحسين واصلاح ملعبها ، ودار لانشطة الشباب ودار لايواء الشباب ،وأخرى للاحداث المنحرفين لاعادة تربيتهم بها حوالى (120 صبى) بالاضافة الى تجهيز ملاعب بريكة ـ مروانة ـ عين

(49) El-Moudjahid du 17 novembre 1977.

توتة ـ القنطرة ـ أريس ، وتشييد ثلاث مجمعات رياضية فى بريكة ـ وادى الماء ـ أريس ·· ودارين لانشطـــة الشباب فى كل من شمرة وعين توتة ، اما فى يدان التربية المدنية المدرسيـــة وضعت وزارة الشبـــاب والرياضـــة تجهيزات مدرسية فى نقاوس وباتنة ·

وهناك مشاريع فى طريق الانجـاز هي : تجهيزات رياضية مدرسية بثانوية للبنين وبالمعهد التقنى لتكوين المعلمين من ضمنها مسبح فى باتنة ومركز خاص بالاحداث المنحرفين لاعادة ترتيبتهـــم سعته اكثر من 100 صبى وقد بلغـــت تكاليف هذه المشاريع 32·000·000 دج وهناك مشاريع هي بصدد الدرس وتشمل تجهيزات رياضية مدرسية بمتوسطـات للتعليم فى كل من منعة ـ نقاوس ـ قيس تمقـــاد (50) ·

وفى ميدان الثقافة فقد اقيمت قاعة للسنما بتيمقاد وزودت وزارة الاخبار والثقافة كل بلديات الولاية بمكتبة وهذا ضمن المخطط الوطنى الرامى الى تزويد كل بلديات الجمهورية البالغ عددها 703 بلدية ، بمكتبة وهـذا للمساهـمـة فى تعميم الثقافة للجميع بالاضافة الى دار للثقافة بمقر الولاية ·

وفى ميدان تعليم الكبار فان المركـز الوطنى لمحو الامية يشرف على عـدة اقسام لتعليم الكبار القراءة والكتابـة وهذا النشاط يشمل ميادين ثلاثة هي : مجال محو الامية لـدى الفلاحـين فى المزارع ، لقد فتحت مديرية التربيـــة والثقافة والشباب لولاية باتنة سنـــة 76 ـ 77 10 اقسام فى 10 مزارع بها 238 متعلما يدرس بها 11 معلما ولدى القطاع الصناعى فتحت المديرية فى 5 وحدات صناعية 12 قسما ، 7 اقســـام للرجال بها 190 متعلما ، و5 اقسام للنساء بها 307 متعلمة ويقوم بهذه المهمـــة 27 مدرسا اما محو الامية الجماهيـرى ففى هذه السنة غير موجود وقد كـان عدده فى السنوات السابقة هاما جدا فقد بلغ 500 متعلم سنة 1975 م (51) ·

وفى مجال الصحة والطب المجانى فقد أنجز بناء مستشفيات فى كل مـــن أريس ، مروانة ، باتنة و 18 مركـــزا صحيا عبر مدن الولاية ، و 6 عيادات متعددة العلاجات بمقرات الدوائر ·

وفي مجال السياحة فقد اقر البرنامج الخاص بالولاية انشاء عدة فنادق فى كل مـن تيمقـاد ـ أريس ـ مشـونش ـ منعة ، وفندق كبير فى مدينة باتنـــة

---

(50) معلومات وزارة الشبيبة والرياضة ·

(51) معلومات المركز الوطنى لمحو الامية ·

هو فندق الشيلية الذى دشن أخيـــرا ، 50 مقعدا وحانة 140 مقعدا (52) ، ولقد ويشتمل على 71 غرفة و 142 ســريرا زار المدينة عدد من السواح بلغ سنــة ومطعم يتسع لــ 160 وجبة ومقهى تسع 1976 م 2403 مسافرا (53) ٠

---

(52) جريدة النصر : الخميس 29 جوان 1978 ٠

(53) معلومات وزارة السياحة ٠